

297.09: A222A.C.1

297.09:A22uA

• العدوى، ابراهيم أحمد

• الأميون والبيزنطيون

MAR 15 A575 MAR 13 A2273

297.09:A22uA

تجليد
صالح اللقن
بيروت - المزرعة

Jafet Library

27 MAR 1995

DATE DUE

JAFET LIB.

18 MAR 1978

JAFET LIB.

2 JUN 1982

Jafet Library

10 MAR 1995

JAFET LIB.
01 DEC 1995
3.186

JAFET LIB.

23 JAN 1995

JAFET LIB.
14 JUN 1990

J. Lib.

JAFET LIB.
28 JUN 1990

Jafet Lib
17 FEB 1995

AUG 1970

Handwritten text, possibly a signature or initials, located in the upper right corner of the page.

297.09
A22 u H
C.1

دكتور إبراهيم أحمد العُدوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة



الأمويون والبيزنطيون

البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عمارة الزين سابقا)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

تجتاز الدول الإسلامية اليوم مرحلة هامة من مراحل اليقظة السياسية والاجتماعية ، والعمل على نيل مكانة لا تفتقر لها بين مجموعة أمم العالم . وتتطلب هذه المرحلة دراسة دقيقة مستفيضة لمقومات الدول الإسلامية ، وفهم التطورات التي مرت بها فهماً علمياً صحيحاً ، حتى يستطيع أولو الأمر في العالم الإسلامي السير على هدى هذه الدراسات في توجيه بلادهم نحو ما يحقق لها العزة والسؤدد . فالنهضات التي لاتدعمها الدراسات العلمية تتعرض للمعثر والأخطاء التي قد تؤدي بها أو تحرمها من أن تؤتي أكلها .

ويعتبر عصر الدولة الأموية الحقبة الجديرة بالبحث والدراسة ، إذ تدين معظم الدول الإسلامية اليوم في نشأتها ومايسودها من مظاهر حضارية إلى تلك الفترة المبكرة ، وما حققت به من أعمال . فقد أخذ الإسلام ينتشر إذ ذاك بين البلاد التي دخلت حظيرة الدولة الأموية ، ولا سيما بعد أن أدرك سكانها أن هذا الدين نظام اجتماعي كذلك ، حافل بالقواعد والأنظمة التي تضمن لهم عيشة راضية في ظلها . ثم توج الأمويون هذه الوحدة الدينية بغرس بذور الوحدة اللغوية والثقافية التي ما زال رباطها يصل بين الشعوب الإسلامية حتى الوقت الحاضر . ويهدف هذا الكتاب إلى معالجة الدور الذي قام به بنو أمية في توجيه سياسة الدولة الإسلامية في الفترة المبكرة من تاريخها السياسي ، وبيان ما لأعمالهم

من أثر في تدعيم صرح الإسلام وتقويته حتى شمع وعلا . وكان التوفيق حليف
بني أمية في خطواتهم لإعزاز دولة الإسلام لأنهم جهدوا على جعل البحر الأبيض
المتوسط بحيرة إسلامية منذ تقلدوا مركز الصدارة في هذه الدولة . إذ أدرك
الأمويون أن هذا البحر قلب العالم النابض ، وعصب الحياة لأية قوة تبغى البقاء
وارتقاء مدارج الزعامة العالمية . وهذه الحقيقة حجر الزاوية في صرح كل دولة
كبرى عرفها العالم حتى الوقت الحاضر .

وقد تناولت في الفصل الأول خبرة الأمويين زمن الجاهلية بالبحر الأبيض
المتوسط لاتصالهم بإقليم الشام ، الذي ارتادته قوافلهم مراراً وتكراراً في رحلات
الصيف التجارية ؛ ووضع الأمويون هذه الخبرة في خدمة الجيوش الإسلامية
عند قيام الفتوحات على عهد الخليفةين أبي بكر وعمر . وأدى اشتراك الأمويين
في فتوح الشام إلى تفصيص أحدهم وهو معاوية بن أبي سفيان واليا عليه . وهنا
تطلع الأمويون إلى السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية الناشئة ،
وتم لهم تحقيق أمنيتهم بفضل اعتمادهم على أهل الشام ومرافقه .

وبدأت منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام سياسة الأمويين إزاء
البحر الأبيض المتوسط والاهتمام به لخدمة مصالح دولة الإسلام . إذ عرف معاوية
أن البيزنطيين أعداء المسلمين يعملون في دأب على استرداد ما استولوا عليه من
شواطئ هذا البحر . فعالجت في الفصل الثاني جهود معاوية لإنشاء بحرية
إسلامية ساعدته في الاستيلاء على الجزر البيزنطية التي تهدد أرض المسلمين ،
والإطاحة بقوة البيزنطيين البحرية في معركة ذات الصواري التي انقلب المسلمون
بعدها إلى سياسة التوسع البحري .

وكانت آية هذا التطور حملات المسلمين على القسطنطينية عاصمة الدولة
البيزنطية ، إذ أدرك الأمويون أن تدعيم قوة المسلمين البحرية تتطلب كسر
شوكة هذه العاصمة التي تقف لمشاريعهم البحرية بالمرصاد . ومن ثم تناولت

في الفصل الثالث اضطلاع دمشق عاصمة الدولة الأموية بتنسيق القوى الإسلامية الحربية، وإعداد ثلاث حملات كبرى حاصرت القسطنطينية ونالت من سطوتها وشلت حركتها مدة طويلة .

وقد تردد صدى الحملات الأموية على القسطنطينية في جبهة أخرى هامة مطلة على البحر الأبيض المتوسط . إذ تطلع الأمويون إلى بسط سلطانهم على شمال إفريقيا وطرد البيزنطيين منه ، ليبعدوا عن أرض الإسلام كل خطر يهددها من هذه الناحية . فتناولت في الفصل الرابع حملات الأمويين المتكررة على شمال إفريقيا ، وكيف استفادت من أحداث حصار القسطنطينية . وتجلت هذه الحقيقة السالفة عندما أسس عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان التي أصبحت مركز الحملات الإسلامية في قلب شمال إفريقيا البيزنطية ، إذ صادف تأسيس عقبة للقيروان انشغال الدولة البيزنطية بالدفاع عن عاصمتها ضد الحصار الأموي الثاني المعروف بحرب السنوات السبع . ومن ثم قضى عقبة ثلاث سنوات في تخطيط القيروان دون أن يخشى هجوماً من الحاميات البيزنطية في المدن الساحلية بشمال إفريقيا لافتقارها إلى الأمداد والعتاد .

وباستيلاء الأمويين على شمال إفريقيا خرج البيزنطيون من آخر معقل لهم في الشواطئ الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ، الذي ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية القديمة تسميته « بحر الروم » ، وغدا حرياً أن يدعى « بحر المسلمين » . على أن قيام الدولتين الأموية والبيزنطية جنباً إلى جنب أدى إلى ظهور تجاوب حضارى بينهما . ومن ثم عالجت في الفصل الخامس مظاهر التجاوب الحضارى بينهما ، وبيان ما تتمتع به الأمويون من عقلية سكان البحر الأبيض المتوسط ، وما اتسمت به من اتساع الأفق ومقدرة على الاستفادة من التراث الذي خلفه البيزنطيون في البلاد التي دخلت في حظيرة الدولة الإسلامية .

واستطاع الأمويون بذلك أن يضعوا أسس الحضارة الإسلامية التي

ازدهرت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وغدت رباطاً قوياً شد أزر الشعوب الإسلامية المطلة عليه. وكان عمال بنى أمية في الدول الإسلامية نماذج عالية للتفاني في الواجب والإخلاص للسلطة المركزية وتنفيذ ما يعهد إليهم به على أحسن ما يرتجى. ولذا استطاعت الدولة الأموية أن تشعر بالترابط والتضامن بين أجزائها، وسارت فيها النهضات العلمية والمظاهر الحضارية الإسلامية سيراً موحداً مضطرباً.

وأدى اهتمام الأمويين بالبحر الأبيض المتوسط وتقوية بلادهم المطلة عليه إلى ترك القسم الشرقي من دولتهم ملجأ للعناصر المعادية لهم. فاضطربت العراق وفارس بالحركات المناهضة للبيت الأموي، واستطاعت أن تطيح به في النهاية عن عرش الخلافة الإسلامية. وكان لذلك الانقلاب نتائج بعيدة المدى في تطور حياة الدولة الإسلامية وتاريخها. إذ ارتبطت أحداث الدولة الإسلامية بما نبع في آسيا من قوى وحركات، وغدا البحر الأبيض المتوسط لا يلقى اهتماماً إلا من الدويلات الإسلامية التي جنحت إلى الانفصال عن السلطة المركزية ببغداد، أو استقلت بشؤونها عنها تمام الاستقلال.

وقد ظل التراث الأموي رغم هذه التطورات ماثلاً أمام أولى الأمر في الدولة الإسلامية على مر العصور. فكانت جهود الأمويين في تحقيق التعاون السياسي بين قوات المسلمين، وتدعيم هذا التعاون بغرس بذور اللغة العربية وتهيئة الجو لانتشارها، نماذج حية في العالم الإسلامي يعمل قاده على محاكاتها والسير بها إلى الأمام. وإن الدراسات التفصيلية للعصر الأموي كفيصلة أن تهنيء للدول الإسلامية اليوم خير القواعد التي تقيم عليها سياستها ونهضتها، وتشيد عليها صرح علاقاتها الثقافية وما تبغيه من تضامن جماعي. وبذلك تستطيع الدول الإسلامية أن تعيد سالف مجدها وعظمتها على البحر الأبيض المتوسط الذي يعد حتى الوقت الحاضر محور أحداث العالم.

ابراهيم أصم العمري

القاهرة في ١٥ رجب سنة ١٣٧٢ هـ
٣٠ مارس سنة ١٩٥٣ م

بنو أمية للأبناء ما فتحوا

وللاهدى ما سادوا وما دانوا

دانوا ملوك سير الشرق تحتمهم

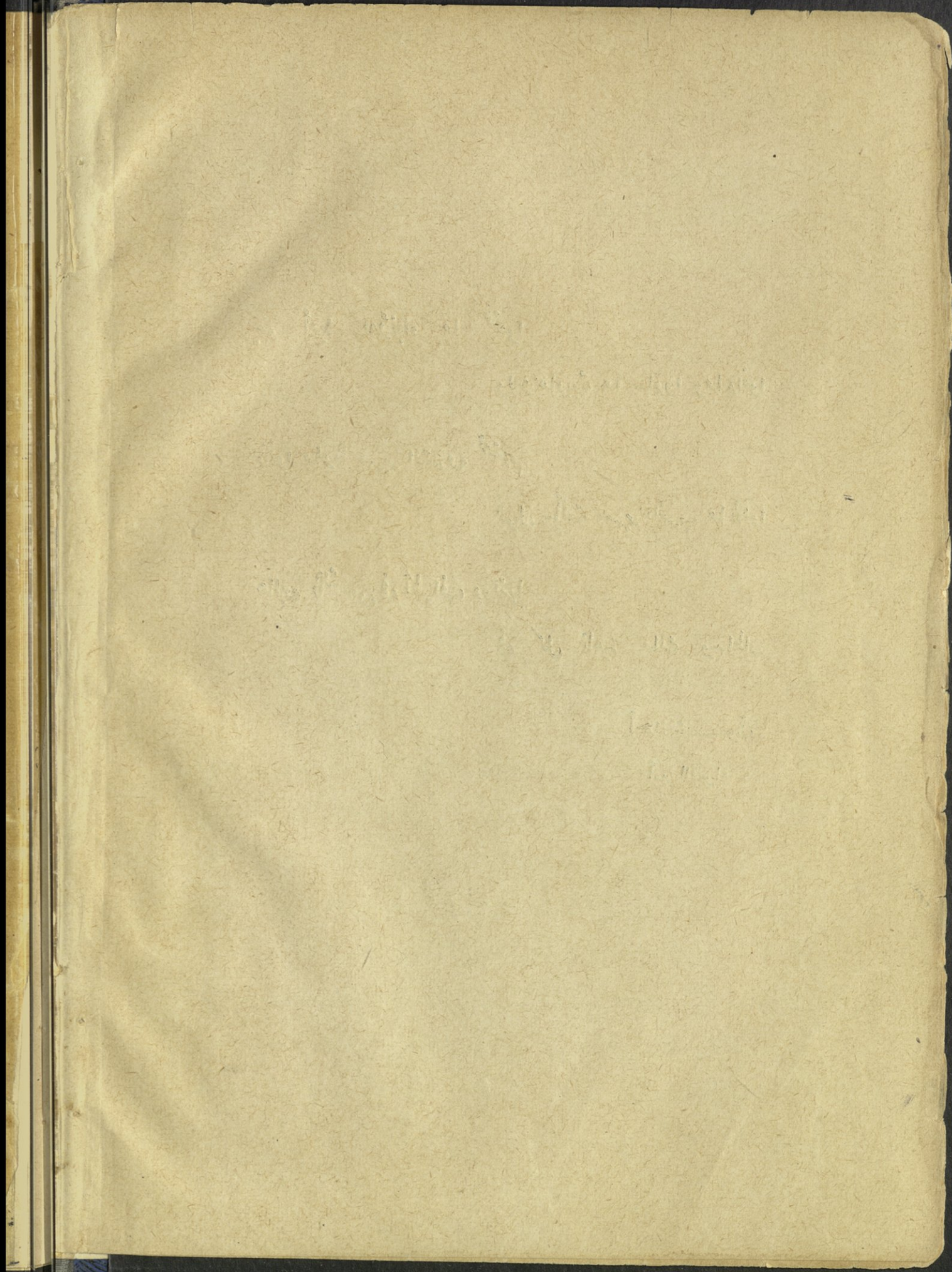
فهل سألت سير الغرب ما دانوا

عالمين بالشمس في أطراف دولتها

في كل ناحية ملك وسلطان

أحمد شوقي

أمير الشعراء



الفصل الأول

مهد الخلافة الأموية

ورحلة الصيف

عرب الشام قبل الإسلام

الشام على عهد البيزنطيين :

شاهد حوض البحر الأبيض المتوسط الشرق منذ فجر تاريخه قصة صراع عنيف بين الشرق والغرب حين اصطدمت في القرن السادس قبل الميلاد أطماع الفرس القدماء بحركة امتداد الاستعمار الأغرقي على شواطئ آسيا الصغرى المطلة على بحر إيجه . وظل أوار هذه الحرب ، التي عرفت هذه الحلقة الأولى من سلسلتها باسم الحروب الميديية ^(١) ، يتأجج على أدوار متباعدة متتابعة ، من يقظة الجانب المغلوب على أمره سواء في الشرق أو الغرب لمحو العار الذي لحقه ، واسترداد سلطنة وكيانه ، والانتقام لما نزل بأرضه من هوان وإذلال .

وتجلت بداية هذه الحروب الطويلة الأمد حين عبء الملك دارا الفارسي (٤٩١ ق . م) ^(٢) جيوشه ، وزحف بها على بلاد اليونان وصال فيها وجال ، منزلاً بها ما حلّ له من ضروب الهزائم والدمار . وظهرت سخوة الغرب في صورة

(١) ميديا هي المقاطعة الفارسية الواقعة شرقي آسيا الصغرى . والحروب الميديية تعتبر أول صراع عنيف بين فكرة الأوتقراطية الشرقية ممثلة في الإمبراطورية الفارسية ، والديمقراطية الإغريقية ممثلة في ولايات العالم الإغريقي . وهذا لا يمنع أن صراعاً سابقاً قد نشب بين الفرس والإغريق ممثلاً في الثورة الأيونية ، ولكن الصراع لم يكن قد امتد بعد إلى العالم الأوربي ، وإنما اقتصر على آسيا الصغرى ، حيث أيوننا الإغريقية التي خضعت للفرس .

(٢) هزم دارا اليونانيين في معركة مارثون (Marathon) سنة ٤٩١ ق . م .

واضحة للرد على حركات الفرس حين استطاعت مقدونيا أن تلم شمل الأوغريق
وتعبيء قواتهم . فانبعث الغرب تحت لواء الإسكندر المقدوني (٣٣٦-٣٢٣ ق.م)
الذي جاب الكثير من بقاع الشرق حتى قوض أركان دولة الفرس وخلد اسمه
في حويليات هذا الكفاح .

ومنذ غزوة الاسكندر لبلاد الشرق وقصة الصراع بين الشرق والغرب
تمثل فصولا طويلة في تاريخ القسم الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط ،
حتى أن كر العصور ومر الأزمان لم يخفف من حدة هذا النضال الذي عمرك
أوصال الطرفين . ولكن إذا تركت جانبا الفترات التي اندفعت فيها عجلة
الطرفين الحربية تطوى ما أتاحتها لها قوتها الذاتية من أراضي وبلاد الطرف
الآخر ، ثم تكرر راجعة بعد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، تظهر سمة خاصة اتصفت
بها هذه الحروب ؛ وتلك الظاهرة هي اتجاه كل من الفريقين المتناضلين إلى حماية
وتقوية حدود البلاد القريبة من تخومه . وتجلت هذه السمة بأوضح صورها حين
ورثت الأمبراطورية البيزنطية تراث أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى في
الشام والأراضي المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي .

وكان للعوامل الجغرافية أثر كبير في تحديد مجرى الحروب الفارسية وحمل
الأمبراطورية البيزنطية على المحافظة على تقاليد الدولة الرومانية الكبرى في الدفاع
عن أراضيها والسير على نهجها خطوة بخطوة في تلك السبيل . ذلك أن سياسة
الدولة البيزنطية اصطدمت في هذه البقعة من أمبراطوريتها بالصحراء الشامية
التي واجهت من قبل روما وأباطرتها . فهذه الصحراء أشبه بمثلت قاعدته على خط
عرض ١٠° ورأسه تقرب من آسيا الصغرى حيث تتلاقى أراضي الشام الخصبة
بمروج العراق . وأقصر جوانب هذا المثلث يطل على الغرب حيث يحده شبه
جزيرة سيناء والبحر الميت ووادي الأردن وجبال لبنان ، وينتهي رأس المثلث
عند حلب تقريبا . أما الجانب الثالث فيمتد من الجنوب الشرقي لحلب ويحده

نهر الفرات الذي يلتقي عند الطرف الجنوبي الشرقي لزاوية المثلث بنهر دجلة في
المجرى المعروف بشط العرب^(١) .

وهذه الصحراء لم تكن كما يتصور المرء امتداداً شاسعاً من رمال لا يمكن
اجتيازها وفلاة موحشة مقفرة ، إذ على النقيض من ذلك لعبت هذه الصحراء
دوراً هاماً في حلقة الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، فقد اشتملت على
بعض مسالك تجارية اخترقت بقاعها ذات الحصى والتي انتشر فيها بين هنا وهناك
بعض الحشائش والنباتات . وقد أدرك القدماء طبيعة هذه الصحراء وقسموها
أقساماً تساعدهم على الأفادة من مسالكها . فأطلق بطليموس على قسم منها اسم
بلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea) نسبة إلى مدينة البتراء^(٢) التي
ازدهرت لمرور القوافل التجارية بها ، على حين سمي الجزء الأوسط والجنوبي
الشرقي من الصحراء باسم بلاد العرب الصحراوية (Arabia deserta) ،
أما الجزء الباقي من الصحراء الذي نال قسطاً كبيراً من التأثير الروماني فسماه
الشام (سوريا)^(٣) .

وهذا التقسيم الجغرافي يفسر السياسية التي وجدت الامبراطورية البيزنطية
نفسها ملزمة باتباعها في تلك البقعة من أراضيها . ذلك أن قيام عدوتها دولة
الفرس على الطرف الشرقي من هذه الصحراء فرض عليها لوناً جديداً من الدفاع
وضعت الدولة الرومانية الكبرى أسسه ومعاله العامة . إذ كانت سياسة الرومان

(1) C. P. Grant, The Syrian desert, 1, 2 ;

T. Mommsen, The provinces of the Roman Empire II, 19.

(٢) البتراء (Petra) كلمة يونانية معناها صخر ، يقابلها الرقيم في المراجع العربية ،
واسمها الحديث وادي موسى ، وكانت تقع على طريق القوافل العام من سبأ ببلاد اليمن إلى
البحر الأبيض المتوسط .

(٣) Grant, op cit , 6, 10, 11 .

دأب عرب الشام على تقسيم هذه الصحراء ، التي أطلقوا عليها اسم بادية الشام ، إلى قسمين
هما بادية الشام وبادية العراق . على أن هذا التقسيم كان عاماً ، ولم يكن له أثر ملحوظ في حياة
سكان هذه البادية عامة .

اتخاذ البحار والأراضي التي لا يمكن اجتيازها كالجبال مثلاً حدوداً طبيعية تقف عندها أطراف فتوحاتهم ، أما الحدود التي لا تتمتع بهذه الحصانة الطبيعية فدأبوا على حمايتها بعقد أواصر الصداقة والتحالف مع الجيران المثلين عليها . ووقفت الصحراء الشامية بمعزل عن تطبيق السياسة الرومانية الخاصة بالحدود الطبيعية ، مما حمل روما على اتباع نمط خاص في هذه الصحراء جاء فذا وفريداً في تلك البقعة المطلة على عدوها اللدود ، إذ اتجهت روما إلى إقامة سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات للمحافظة على الحدود ، مع الاستعانة أيضاً بالقبائل الضاربة في هذه الصحراء في أعمال الحراسة والدفاع^(١) .

ومنذ القرن الرابع الميلادي تولت الامبراطورية البيزنطية أيضاً تنظيم هذه البقعة من أراضيها التي تفصلها عن منافستها دولة الفرس ، وفضلت اتباع سياسة روما الخاصة بعدم الاندفاع وراء مشاريع حربية لا طائل من ورائها فيما وراء الفرات . فدعمت سلسلة الحصون في الصحراء الشامية ، ثم نظمت ولايتها الشرقية بأن جعلت سوريا وفلسطين ولاية واحدة عرفت باسم الولاية الشرقية (Oriens)^(٢) .

وكانت هذه الحصون أشبه بمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التي عهدت إليها مهمة حراسة الحدود والطرق التجارية التي تجتاز الصحراء . فكان في بصرى معسكر رئيسي يتبعه عدة مراكز أخرى لحاميات انتشرت في بعض مناطق ذات أهمية حربية أو تجارية . ومن أمثلة ذلك حصن نامارا (Namara) الذي تحكم في منطقة حوران لسيطرته على الينبوع الوحيد بهذه البقعة . وكان كل حصن من هذه الحصون الهامة عبارة عن بناء مستطيل الشكل على جانبيه الأبراج ، ويحيط به جدار سميك^(٣) .

(1) Garnt, op cit, 1 - 11 .

(2) J. B. Bury, History of later Roman Empire I, (1931), 27.

(3) Bury, op cit, 94 ;

Mommsen, op cit, 153: Cambridge mediaeval History II, 32, 33

واقترن بإقامة الحصون اعتماد الامبراطورية البيزنطية على الإمارات العربية التي قامت في صحراء الشام بالدفاع عن أراضيها ضد الفرس . وهذه السياسة تبين مدى ارتباط الحروب الفارسية بالهجرات العربية التي استقرت في بلاد الشام ، إذ رأت الدولة البيزنطية اتخاذ القبائل العربية الضاربة في صحراء الشام وكلاء وحواجز تنفذ سياستها في تقليم أظافر الخطر الفارسي . فالتجّهت إلى اصطناعهم بلمال وإغداق أرفع الألقاب على رؤسائهم الذين كانوا خير وسيلة لتأدية مهمة الدفاع في هذه البيئة الصحراوية . ولكن المهم هنا هو بيان دور هذه الإمارات العربية في خدمة الدولة البيزنطية إبان حروبها مع فارس ، وأثر ذلك في مجريات الأحداث في بلاد الشام .

تعتبر سياسة البيزنطيين إزاء الإمارات العربية صورة صادقة لما سارت عليه الإمبراطورية الرومانية الكبرى إزاء الإمارات المعاصرة لها ، وربما اتخذ البيزنطيون أعمال روما نموذجاً نهجوا على منواله . وأقدم هذه الإمارات مملكة الانباط التي اتخذها الرومان حاجزاً يقيهم شر دولة البارثيين الفارسية^(١) . واتسعت رقعة هذه الامارة في القرن الأول للمسيح حتى امتدت من عاصمتها البتراء إلى دمشق شمالاً وإلى مدائن صالح أو الحجر جنوباً وإلى الفرات شرقاً . ولكن الامبراطور الروماني تراچان قضى على نفوذ هذه الامارة سنة ١٠٥ م^(٢) . وكان ذلك جزءاً من السياسة الرومانية التي دانت بها الامبراطورية البيزنطية فيما بعد ، وهي تقليم أظافر هذه الامارات العربية والقضاء عليها إذا غدا استقلالها خطراً يهدد سلامة الامبراطورية .

(١) تسمى المقاطعة الجنوبية من إيران موطن الفرس باسم « بارس » ، وحرف اليونان كلمة بارس إلى برسيس وأطلقوها على كل البلاد ، ودولة الفرس البارسية هي التي حاربت الإمبراطورية الرومانية الكبرى . ولكن تولت أسرة الساسانيين مقاليد الحكم في فارس سنة ٢٢٦ م ، وهي التي حاربت الإمبراطورية البيزنطية .

Hitti, History of Syria, 382 . (٢)

وتجلت هذه السياسة الرومانية مرة أخرى مع إمارة تدمر التي بلغت أزهى عصورها بين سنتي ١٣٠ و ٢٧٠ م . فقد حانقت هذه الامارة روما ، ونفذت سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أذينه حاكم تدمر في طرد شابور الأول الفارسي من الشام سنة ٢٦٥ م ، ومنحه الامبراطور الروماني لقب حاكم الشرق (Dux Orientis) اعترافاً بجهوده وخدماته . ولكن ما أن اعتزت هذه الامارة بقوتها وسطوتها حتى حطمها الامبراطور أورليان ، وقضى على عاصمتها تدمر سنة ٢٧٣ م^(١) .

ومهد القضاء على تدمر إلى ظهور مملكة الغساسنة التي عاصرت حولياتها الإمبراطورية البيزنطية . إذ بينما أخذت روما تهدم سلطان الامارات العربية الواحدة بعد الأخرى كانت قبيلة عربية أخرى تسير قدماً في التدعيم لنفسها على أنقاض البتراء وتدمر ، ونجحت في إقامة حكم لها في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق^(٢) . وحوالي نهاية القرن الخامس الميلادي دخل أفراد هذه القبيلة الذين عرفوا بالغساسنة في دائرة النفوذ البيزنطي ، واتخذتهم الإمبراطورية وكلاء لتنفيذ سياستها ضد الفرس .

وعلا شأن الغساسنة لاشتداد موجة الأطماع الفارسية في القرن السادس الميلادي . إذ فضلا عن الحملات الفارسية التي هاجمت الشام وتوغلت كثيراً في غيره من الأراضي البيزنطية ، أقام الفرس إمارة عربية أخرى هي دولة اللخمييين في اخيرة لمناوة البيزنطيين وعماهم الغساسنة . فالدولة الفارسية نهجت على سياسة البيزنطيين في استخدام القبائل العربية الضاربة في المنطقة الخصبية الواقعة إلى غرب القرات والأطراف الشرقية لصحراء الشام ، وجعلت منهم دولة أخذت إسمها من عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لحم الزعيم الحقيقي لهذه القبائل التي لم شملها^(٣) .

وفي القرن السادس الميلادي وصلت دولة الغساسنة ومنافستها دولة اللخمييين

(1) Hitti, op cit, 393 - 396 .

(2) Lammens, L' Arabie Occidentale, 310.

(3) Hitti, op cit, 402.

إلى أقصى نفوذها ، واشتبكتا في حروب صريرة لخدمة الإمبراطوريتين البيزنطية
والفارسية . وأدرك البيزنطيون قيمة أعمال الغساسنة وجهودهم الحربية ، فأغدق
الإمبراطور جستنيان على الحارث الثاني الغساني — الملقب بالأعرج (٥٢٩ —
٥٦٩ م) لقب فيلارخ ، ونصبه سيداً على كل قبائل عرب الشام ، لما بذله من
جهود في حرب الفرس واللاخميين ولما ناله من انتصارات رائعة . إذ قضى الحارث
في معركة من أشهر المواقع التي نشبت بين الغساسنة واللاخميين وتسمى « يوم
حليمة » على المنذر الثالث (٥٠٥ — ٥٥٤ م) المعروف بابن ماء السماء ، وكان
المنذر رمز عظمة اللاخميين وشوكة أرقق البيزنطيين في بلاد الشام ^(١) .

• وإذا كانت « أيام العرب » ^(٢) قد حفلت بالكثير من الوقائع التي جرت
بين الغساسنة واللاخميين ، فإن الإمبراطورية البيزنطية نظرت إلى الغساسنة وأعمالهم
من ناحية ما يعود عليها من نفع خاص . إذ عندما بلغ مجد الغساسنة السماكين
وظنوا أنهم قادرون على الشام وأهله تنكرت لهم الإمبراطورية البيزنطية ، وبادرت
بتطبيق سياسة أمها روما القديمة ، في كسر شوكة الغساسنة وإبقائهم على التبعية
لها في الصورة التي تحددها لهم ^(٣) .

وإذا كانت هذه السياسة البيزنطية صورة مكررة لنهج قديم خضعت له
الامارات العربية التي علا نجمها في الشام ، فإن أعمال الإمبراطورية البيزنطية في
ميدان الغساسنة خلفت نتائج جني ثمارها العرب بعد أن لم الإسلام شملهم وبدأوا
فتوحاتهم الباهرة في بلاد الشام . ذلك أن السياسة الرومانية التي ورثتها

(1) Hitti, op cit, 402 .

(٢) يقصد بأيام العرب الغزوات القبلية التي قامت بين القبائل بسبب النزاع على أرض
المراعى وعيون الماء . وكانت المعارك تبدأ أول الأمر بين أفراد قلائل نتيجة النزاع على الحدود
ثم ينغمس الجميع في المعركة . ومن أشهر هذه المعارك حرب البسوس ، ويوم داحس ، وكذلك
المعارك بين الغساسنة واللاخميين .

(٣) نلدكة ، أمراء غسان ، ص ٣١ ، ٣٢ .

الامبراطورية البيزنطية في الاعتماد على العرب الضاربين في الصحراء الشامية للدفاع عن حدودها ضد الفرس وحركاتهم الحربية غرست بذوراً نمت وترعرعت في صالح القبائل العربية وإماراتها .

ولم تتبين الدولتان الرومانية والبيزنطية ما يحمله الاعتماد على العرب من أخطار رغم قضائهما على إماراتهم . إذ أن إقصاء الرومان والبيزنطيين لأنباء بلادهم وبنى جلدتهم عن شئون الدفاع عن إقليم الشام ، وإلقاء الزمام في أيدي القبائل العربية مهد الطريق لعظمة أولئك العرب الذين لم تؤثر فيهم مطلقاً التيارات السياسية التي رفعتهم حيناً وحطت بهم حيناً آخر . فكانت تلك القبائل تستمد قوة وحيوية مضطردة دائمة من منبع دافق فياض ، هو الهجرات التي وصلت إليهم تبعاً من بلاد العرب . إذ فضلاً عن أن قيام العرب بمهمة الدفاع عن الحدود البيزنطية ضد الفرس جعلتهم القوة الفعالة الرئيسية في بلاد الشام ، جاء اهتمام البيزنطيين بالحروب الفارسية وتكريس جهودهم لها عاملاً ترك الجبهة الجنوبية من إمبراطوريتهم بالشام المواجهة لبلاد العرب مفتوحة سهلة الاجتياز لدى القبائل العربية^(١) . فأخذت هذه القبائل تدخل أراضي الشام زرافات ووحداً ممثلة بشائر عهد جديد قطف بنو أمية ثماره فيما بعد من مقر دولتهم بالشام .

القبائل العربية في الشام البيزنطية :

يتضح من خريطة آسيا أن بلاد العرب تمتد شمالاً على شكل لسان طويل ضيق أشبه بإسفين بين فارس والامبراطورية البيزنطية . ويسمى هذا الامتداد بادية الشام ، وقد اقترن تاريخياً بالأطباع السياسية التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين ، لما كان لموقعها الجغرافي من أثر كبير في توجيه نشاط الفريقين الحربي وسيطرتها على منافذ البحر الأبيض المتوسط التجارية^(٢) . على أن الحقيقة

(1) Mommsen, op cit, 115, 119 .

(2) De Lacy O'leary, Arabia before Muhammed, 153.

الكبرى التي توجت بميزات هذا الموقع الجغرافي الفريد هي أن الصحراء الشامية جزء طبيعي من بلاد العرب خضع لما تبعته إليها تلك البلاد من مؤثرات بشرية ، وميدان تردد فيه ما اضطر به جوفها من حركات قبلية . فكانت أبرز هذه المظاهر والمؤثرات الهجرات البشرية التي جاءت بلاد الشام من الجزيرة العربية . إذ يرى بعض علماء السامية أن بلاد العرب كانت تزدهم بالسكان ازدحاماً يزيد كثيراً عما تتحمله مواردها الاقتصادية ، مما حمل سكانها على الهجرة إلى الأراضي الخصب التي تحيط ببلادهم شمالاً .

(وهذه الحقيقة تفسر مدى ارتباط صحراء الشام ببلاد العرب ، إذ كانت الهجرات تبدأ بارتداد القبائل العربية للأطراف الشمالية من بلادها ضاربة في صحراء الشام دون أن تشعر بفارق يذكرها بأنها غادرت أرضاً غير أرضها ، أو تقابل حاجزاً يجعلها تدرك أنها في بيئة غير بيئتها . غير أن هذه القبائل لا تلبث أن تعمل على الاستقرار في تلك الصحراء منتهزة فرصة مواتية للاغارة على إقليم الشام الخصب أو للتسلل إليه جاهدة على الأخذ بنصيب من خيراته . وظلت أراضي الشام الخصبة تسيل لعاب أولئك البدو الضاربين على حدودها ، حيث كانت تفيض بالنبيد والزيت والقمح ، المثل الأعلى للبدوى عن حياة النعيم^(١) .

وتعتبر هجرة الأنباط العرب نموذجاً يوضح حركات البدو في الصحراء الشامية وتأقلمهم بالبيئة هناك ، ثم وضعهم أساس صرح نفوذ العرب السياسي في بلاد الشام قبل ظهور الإسلام . إذ حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . غدت الصحراء الشامية من شرق سوريا وفلسطين إلى الفرات منتجع العرب الأنباط الذين أطلق عليهم الرومان اسم أهالي الخيام (Scenites) . وكانت حياتهم نموذجاً لما كان عليه البدوى في مهده الأصلي ، إذ كانوا في نضال مستمر حول استغلال أماكن

(1) Mommsen, op cit, 136 .

الرعى والتسكالب على الأراضى التى يمكن فلاحتها ، حتى أصبحت حياتهم مليئة بالنشاط والكفاح ، (Vita est illis semper in fuga)^(١) .

ولكن الجماعات التى استقرت منهم فى الجهات التى أمكنهم استثمارها عرفوا تأسيس الإمارات . فظهرت البتراء التى اتخذها الأنباط عاصمة لهم ، وبلغت أوجها فى القرنين الأول والثانى الميلاديين . وعندما قضى الرومان على البتراء سنة ١٠٥م ، أسس أولئك العرب الضاربون فى صحراء الشام إمارة أخرى فى تدمر . وهكذا ظل العرب فى مهجرهم يمثلون حياتهم البدوية الأولى ، منهم الحضرة والمستقرون الذين عرفوا تأسيس الإمارات ، على حين ظل القائمون منهم على حياتهم البدوية فى تنقل وترحال وحب للاغارة ، يستفيدون من الأحوال التى تفشت من حين إلى آخر نتيجة الحروب الفارسية ، وما صاحبها من اختلال واضطراب^(٢) .

وكانت هذه الإمارات تلقى دائماً مددا لا ينقطع من الهجرات ، بعثت بها بلاد العرب التى شجعت أحوالها على اتجاه هذه الهجرات إلى بلاد الشام ، إذ دخلت بلاد العرب السعيدة وهى أرض اليمن فى فترة من الانحلال والاضمحلال الاقتصادى ، تلاها خضوع لاستعمار أجنبي فى القرن الرابع الميلادى . فكانت آية التدهور الاقتصادى انهيار سد مأرب ومظاهر الاستعمار سيطرة الأحباش على صنعاء . وارتبط بهذه الأمور هجرة بنى غسان إلى منطقة حوران فى الشام خلال فترة من الفترات التى تصدع فيها سد مأرب^(٣) . وهؤلاء الغساسنة هم الذين سيطروا فيما بعد على قبائل الشام وهياؤها كياناً سياسياً . بعد سقوط تدمر حتى ظهور الاسلام . فسقوط تدمر أمنت روما شر القبائل العربية فترة قصيرة ،

(1) Bury, op cit, 95 .

(2) Bury, op cit, 95 .

Grant, op cit, 16, 18 .

(٣) نلدكة ، أمراء غسان ، ص ٧ ، ٨ .

ولسكن منذ عهد الامبراطور يوليان ظهرت حركة جديدة من استقرار بعض القبائل العربية في الأراضى الشرقية من إقليم الشام .

وكان أصل أوائل العرب الذين استقروا إذ ذاك بالشام من قبيلة تنوخ التي نزلت في بادىء الأمر على الحدود الفارسية إبان فترة الاضطرابات التي تلت سقوط الدولة البارثية القديمة . وكانت هذه القبيلة بدورها من أصل يبنى تقاطرت بعد اضطراب أحوال اليمن على وادى دجله والفرات . ولسكن لما استقرت الأمور في فارس للملوك الساسانيين قامت محاولة لإدخال هؤلاء العرب في حظيرة الدولة الفارسية الجديدة . فهاجر كثير من عرب تنوخ إلى الشام حوالى سنة ٢٣٠ م ، أى قبل نهاية تدمر . ويطلق أحياناً على هذه المجموعة من القبائل التي هاجرت إلى أراضى الشام إسم قضاة ، وهو الأصل الذى تفرعت عنه تنوخ . واتسمت طبيعة حركات هذه القبائل بالانضواء تحت زعامة أقوى القبائل هيمية ونفوذاً ، إذ لم تلبث قبيلة تدعى سليمح أن هزمت من بالشام من قبيلة قضاة ، وأخذت منها عصى الزعامة التي انتزعها منهم أخيراً الغساسنة^(١) .

وحوالى القرن الخامس الميلادى اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى استخدام الغساسنة فى مراقبة حركات القبائل البدوية التي كانت تجوب بين شمال بلاد العرب وصحراء الشام وصد تيارها إذا ما حازل الأثيالى على أراضى الشام الخصبة ، وذلك فضلاً عن استخدام الغساسنة فى حركاتها الحربية ضد دولة الفرس . وفى عهد الإمبراطور البيزنطى جستنيان العظيم ٥٢٩ م ، بلغ الغساسنة أوج عظمتهم إذ نجحوا بعد انتصاراتهم على اللخمييين عملاء الفرس ، فى ضم شيوخ القبائل العربية المبعثرة فى فلسطين وغيرها من الأراضى فى جنوب الشام إلى دائرة نفوذهم . فاستطاع الحارث الأعرج (فى المراجع البيزنطية Arethas) على عهد جستنيان

(1) R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l' Islam, 9;

O'Leary, op cit, 161 , 162 .

أن يهيمن علي كثير من شيوخ القبائل العربية الضاربة بالشام ، وغدت له اليد العليا عليها حتى جبال لبنان شمالاً وإلى الشاطئ الفينيقي غرباً وفي فلسطين ووادي الأردن^(١) .

ولكن سياسة الدولة البيزنطية التي لم تدع لأية إمارة عربية بالشام فرصة تدعم فيها قوتها أخذت تعمل أعمالها منذ عهد المنذر بن الحارث نفسه . إذ أدى إمتهان الإمبراطورية البيزنطية لسلطان الغساسنة وكسر شوكتهم إلى فرط عقد القبائل المنضوية تحت لواء بني غسان وتحرك الأحقاد القبيلة القديمة في نفوسهم . وكان شيوخ هذه القبائل — ممن ائتمروا بأوامر الغساسنة زمن الحروب وأظهروا لهم الطاعة أيام السلم — يحقدون على الغساسنة علو كعبهم لدى الامبراطورية البيزنطية وما نالوه من ألقاب ورتب وعطايا وافرة . فما أن قبضت السلطات البيزنطية على المنذر بن الحارث أثناء حضوره الاحتفال يتدشين كنيسة في حوران ونقيه إلى صقلية حتى هب شيوخ القبائل صاحبة السيادة القديمة بالشام جاهدين على استرداد ما ضاع من سلطانهم^(٢) .

ويتضح من النزاع الذي نشب بين الغساسنة وغيرها من القبائل سوء السياسة البيزنطية وتهميتها الجو لاستقرار كثير من القبائل العربية الأخرى . فكانت الامبراطورية البيزنطية لا تتدخل في المنازعات القبيلة بين الغساسنة وغيرها من القبائل إلا حين يمتد خطر منازعاتهم من المناطق الصحراوية إلى المدن الآهلة بالسكان^(٣) ، ولكن منذ أن قلبت الامبراطورية البيزنطية للغساسنة ظهر الحزن بعد أن أدركت تخاذلهم في نصرتها في الحروب الفارسية ، واهتمام بني غسان أيضاً بالمذهب المونوفيزيني حتى شجعت القبائل العربية على مناهضة سلطان الغساسنة^(٤) .

(1) O' leary op cit, 164, 165.

(٢) نلدكة ، أمراء غسان ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) نلدكة ، نفس المرجع ، ص ١٧ .

(4) A. Kammerer, petra ét la nabatine, 244 .

ويتضح أيضاً من القصائد التي أنشدت في مدح الغساسنة المتأخرين أن قوتهم كانت آخذة في الضعف وعهدهم آذن بالأفول رغم ما كسبوه من نصر في بعض الجهات . فبينما تشير هذه القصائد إلى أن نفوذ أمراء الغساسنة المتأخرين وصل في نضالهم إلى قبيلة عوف بن مرة الضاربة في شمال الحجاز ، أو في الشمال الغربي من نجد ، يتضح من ناحية أخرى ما طرأ على الغساسنة من وهن وعجز على عهد النعمان الذي حكم في العقد الأول من القرن السابع الميلادي . فكان محاطاً بأعداء أقوياء ناصبوه العداء ، ونازعه السلطان . ولذا على حين نجاح في القضاء على بعضهم مثل قبيلة أسد الضاربة شمالي مكة ، اكتفى بتهديد قبيلة فزارة التي ينسب إليها النابغة ، وفشل في غزوة الأراضي التابعة لبني عذرة الذين كانوا يقطنون وادي القرى الواقع شمالي مكة (١) .

ويعزى فشل الغساسنة في كبح جماح القبائل العربية إلى أنهم كانوا يناضلون في جبهة أخرى ، وهي مهاجمة أراضي الدولة البيزنطية نفسها حياً في الأخذ بالنار والانتقام لما نالهم من هوان بالقبض على زعمائهم . وكانت إغاراتهم موجهة إلى مراكز الحاميات البيزنطية بالشام ، ونجحوا نجاحاً مؤقتاً في القاء الذعر في تلك الحاميات ، منها حامية بصرى التي تعتبر أعظم مركز حربي في الشام بعد دمشق ، وبججوا فضلاً عن ذلك في الاستيلاء على كثير من ذخائرها . على أن هذه السياسة باءت أخيراً بالفشل وأجهدت الغساسنة ومكنت البيزنطيين من القضاء عليهم في النهاية . ذلك أن الأمبراطورية البيزنطية لم تتمكن الغساسنة ، رغم استخدامهم في الحروب الفارسية وعطفها عليهم إبان أوجهم ، من السيطرة على المراكز الحربية التي أقامت بها القوات البيزنطية . فلا توجد أية إشارة إلى سيطرة الغساسنة على أي مكان محصن أو مدينة اتخذها الجيش البيزنطي مركزاً له داخل نطاق أراضيهم ،

(١) نلدة ، أمراء غسان . ص ٣٨ ، ٣٩

مثل دمشق وبعصرى وتدمر التي أعاد تخصيصها الأباطور جستنيان^(١) .
ويلاحظ بموت النعمان الغساني إنقسام الرعايا التابعين لهم إلى خمس عشرة
فرقة ، لكل واحدة منها رئيس خاص ، ويحتمل أن هذه الفرق كانت خمس
عشرة قبيلة ورؤساؤهم الشيوخ القدامى الذين تقلص جانب كبير من نفوذهم زمن
الحارث والمنذر^(٢) . وإلى جانب ذلك علا ذكر بعض القبائل العربية الأخرى
إلى جانب الغساسنة . إذ أن امتداد إغارات الغساسنة إلى أراضي الحجاز دليل
علي إحساسهم ميل القبائل العربية هناك إلى الهجرة إلى الشام ورغبتهم في
الاستقرار بها . وكان نجاح القبائل التي استطاعت أن تهاجر إلى الشام في تلك
الفترة من انهيار سلطان الغساسنة عاملاً هياً المسرح الذي مثل عليه بنو أمية
قصة خلافتهم وما حفلت به من أعمال وآيات . إذ قبضت هذه القبائل على دفة
الأمور بالشام زمن الخلافة الأموية ، وغدت قطب الرحي في سياسة بني أمية .
ومن أشهر هذه القبائل العربية التي استقرت بالشام إذ ذاك قبيلة بني كلب ،
إذ نزل أفرادها زمن الجاهلية بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام ووادي القرى .
وكانوا في تلك الفترة مثالا للحياة العربية التي صر بها كل عربي ، إذ كان بعضهم
بدوا والبعض الآخر حضراً . وسيطرت هذه القبيلة على الينابيع والواحات في
شرق حوران وجنوبها ولاسيا في دومة الجندل . وفضلا عن ذلك أقام بعض
أفراد قبيلة كلب حول سلامة وتدمر على الطريق التجاري الهام إلى الشام^(٣) .
وورثت كلب مجد الغساسنة وحلت مكانهم في الزعامة على سكان إقليم الشام
زمن الأمويين ، وأصبحت العمود الفقري لسياسة خلفاء بني أمية ولا سيما زمن
معاوية مؤسس الدولة الأموية .

(١) نلدكة ، نفس المرجع ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ٥١ .

(٢) نلدكة ، نفس المرجع ، ص ٣٣ ، ٣٥ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشي ، ج ١ ، ص ٣١٦ .

واستقرت قبائل أخرى بالشام إلى جانب قبيلة كلب في نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي . وكان بعضها ممن حارب الغساسنة ، وأفلح في الإقامة بالشام حيث طاب لها المقام . ومن الصعب تحديد الجهات التي نزلت بها كل قبيلة ، إذ تداخلت أراضي القبائل مع بعضها بعضاً . وكل ما يمكن أن يذكر في هذا الصدد هو المكان الذي استوطنت به الغالبية الكبرى من أفراد القبيلة . فمن ذلك أن معظم مساكن كلب استقرت في بادية السماوة ولم يخالطها هناك أية بطون لقبائل أخرى . وهكذا استقرت القبائل العربية في نواحي متفرقة من بلاد الشام . فاستوطن بنو جحج من قریش منطقة أذرعاء ، وأقامت نخم بين الرملة ومصر ، وإن كان بعضها قد نزل حوران . وأقامت جذام بين مدين وتبوك على حين نزل فخذ منها فيما يلي طبرية من أرض الأردن ^(١) .

ونالت هذه القبائل بدورها قسطاً من الحضارة البيزنطية ، كما عرفت الديانة المسيحية ودانت بها قبل ظهور الإسلام . ويرجع ذلك إلى الرهبان والنساک الذين أقاموا لهم خلوات في صحراء الشام منذ القرن الرابع الميلادي . وأصبحت هذه القبائل مسيحية العقيدة في القرن السادس الميلادي ، وقامت بدور أشبه بما قام به الغساسنة من قبل . إذ غدت عاملاً هاماً في إيصال المسيحية وتعاليمها إلى بلاد الحجاز قبل ظهور الإسلام ، كما كانت حلقة الاتصال التي حافظت

(١) القلقشندي ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ ؛

الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٩ :

وروى الهمداني (في ص ٢٠٦) شيئاً من شعر أحد القدامى ، يتضح منه الجهات التي استقرت بها فروع من القبائل العربية زمن الجاهلية .

وقد فارقت منا ملوك بلادها	فصاروا بأرض ذات مبدى ومحضر
وغسان حتى عزهم في سيوفهم	كرام المساعي قد حووا أرض قيصر
وقد نزلت منا قضاة منزلاً	بعيداً فأمست في بلاد الصنوبر
وكلب لها ما بين رملة عالج	إلى الحرة الرجلاء من أرض تدمر

على أواصر الروابط بين هذه البلاد وإقليم الشام^(١).
والمقصود من ذكر هذا المظهر الحضارى هو الإشارة إلى الدور الذى قام به
أولئك العرب الذين استقروا فى الشام من إيجاد ضرب من الصلة بين سكان بلاد
العرب ولا سيما الحجاز وبين البيزنطيين . وهذا الدور مهد السبيل فيما بعد لبنى
أمية أن ينعموا بتراث القبائل العربية التى استوطنت الشام زمن الجاهلية . إذ
كان ميدان النشاط الذى دعمت فيه هذه القبائل أقدامها هو الميدان التجارى
وحرصها على التمتع بخيراته . فكانت القبائل العربية بالشام خير وسيط ساعد
على انتظام طرق القوافل التى كانت تصل إلى الشام من بلاد العرب محملة
بالمناجر الشرقية ، واتصلت فى هذا الميدان التجارى بأبناء البيت الأموى ، الذين
سيطروا على تجارة الحجاز ، وترددوا على إقليمهم .

واستطاع بنو أمية أن يدعموا علاقاتهم مع القبائل العربية بالشام . فأدرکوا
مقوماتها وطرق كسب ودها وصدقتها ، ثم لجأوا أخيرا إلى رحابها بإقليم الشام ،
واتخذوه عضدا ونصيرا حين رأوا فرصتهم قد سبحت لتأسيس خلافة لهم بعد أن
سطعت شمس الإسلام فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وبددت سلطة
البيزنطيين الجاثمة على إقليم الشام .

(1) O'leary, op cit, 163 .

Bury, op cit, 65 .

Encyc. of Islam (Art al - sham) .

بنو أمية ورحلة الصيف

استطاعت القبائل العربية التي استقرت في إقليم الشام أن تسيطر على النشاط التجاري الذي كان المحرك وراء الأطماع التي جاشت بها نفوس الفرس والبيزنطيين. فبينما جهدت فارس مراراً في الاستيلاء على إقليم الشام وتقاتلت الإمبراطورية البيزنطية في الاحتفاظ بهذا الإقليم في دائرة نفوذها، خطت القبائل العربية الضاربة في صحراء الشام شوطاً بعيداً في تقلد أعنة التجارة، عصب الحياة في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. ذلك أن دور هذه القبائل في الصراع الحربي بين الفرس والبيزنطيين، الذي دونته حوليات الفريقيين، يعتبر ثانوياً في تاريخ حياتها ونشاطها إذا قيس بما بذلته من جهود في حركة التبادل التجاري بين الشرق والغرب.

فالقبائل العربية التي نزلت بالشام أقامت في بقاع تنتهي عندها طرق القوافل الآتية من بلاد اليمن، وتسيطر على المحطات التجارية التي تنقل منها المتاجر الشرقية إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان الطريق التجاري من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التي حملت منتجات الشرق إلى الغرب منذ أقدم العصور؛ وكان له مجريان، أحدهما بحري يتجه إلى أيلة (العقبة)، والآخر يبدأ من موزع أو صنعاء في بلاد اليمن، ثم يسير شمالاً مخترقاً الحجاز وماراً بمكة التي كانت إذ ذاك محطة تجارية على هذا الطريق، ثم ينتهي عند العلا (ديدان) وهي إحدى المحطات التجارية على حدود مملكة الأنباط. وظل اليمنيون حتى القرن الأول الميلادي ينقلون متاجرهم بأنفسهم إلى شمال بلاد العرب^(١)، وإذا وصلت سفنهم بحراً إلى

(١) فردريك بيك، تاريخ شرق الأردن وقيائلها، ص ٦٧، ٦٨؛

O' Leary, op cit, 162.

أيلة ، وقوافلهم براً إلى ديدان وأحياناً تيمية التي غدت نهاية طريق القوافل
المار بالحجاز . ثم تولى الأنباط بعد ذلك أمر نقل المتاجر من هذه المحطات إلى
بصرى وتدمر ودمشق^(١) .

وظل هذا الطريق التجاري حكراً على الممالك التي ظهرت بجنوب بلاد
العرب حتى امتدت أطماع الرومان إلى نزع السيادة التجارية من أيدي عرب
الجنوب . وتجلى حرص الرومان على تنفيذ سياستهم التجارية في حملة جايوس
جالوس (٢٥ ق . م) ، التي فشلت في عهد دولة حمير الأولى ، وعجزت عن
إخضاع عرب اليمن . ولسكن نشطت السفن الرومانية رغماً عن الهزيمة السالفة في
مزاومة سفن عرب الجنوب في الطريق التجاري البحري بسبب اكتشافهم الرياح
الموسمية واستغلالهم لها^(٢) . وكان لهذه المنافسة البحرية أثرها في نشاط عرب الجنوب ،
إذ حولوا جهودهم إلى الطريق البري المار بالحجاز بعد أن قل نشاطهم البحري .
وظل الأمر قاصراً على ذلك حتى العصر الحميري الثاني . إذ حدث تغيير جوهري
في الطريق البري قوامه ظهور سادة جدد ، هم عرب الحجاز . فقد ألقت إليهم
مجريات الأحداث إذ ذاك زمام التجارة الشرقية ، التي سيطر عليها اليمنيون
مدى طويلاً .

ويعزى السبب في هذا الانقلاب إلى سياسة الامبراطورية البيزنطية إزاء
جنوب بلاد العرب وامتداد أطباعها التجارية إلى هذه البقعة الحيوية ، إذ كان
قيام الأسرة الساسانية بفارس واحتسكارها للطرق التجارية الآسيوية المؤدية إلى
القسطنطينية عاملاً دفع البيزنطيين على إحياء سياسة روما الخاصة بالسيطرة على
طريق البحر الأحمر التجاري ، البعيد عن خطر الفرس . ولسكن الظروف قد

(١) O' Leary, op cit, 103, 104.

(٢) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥ ، حاشية ١ : ص ٢١

تبدلت حينئذ^(١)، ولم تسفر جهود الإمبراطورية البيزنطية عن شيء غير التمهيد
والتسكين لعرب الحجاز من السيطرة على طريق القوافل البرى المؤدى إلى الشام .
ذلك أن سياسة الإمبراطور جستنيان في الاعتماد على الحبشة في السيطرة على تجارة
اليمين مجلت بزوال عظمة الحميريين . إذ خضعوا للأحباش^(٢) وانكمشوا في بلادهم
تاركين لعرب الحجاز مهمة نقل المتاجر إلى بلاد الشام . ولم يلبث عرب الحجاز
أن انفردوا بنقل المتاجر لأن الأحباش عجزوا عن إعادة الحياة إلى الطريق
البحرى ، فلم تستطع سفنهم مناهضة السفن الفارسية في المحيط الهندي ، حيث
تجمعت حاصلات الشرق في جزيرة سيلان .

وهكذا أضحي الطريق البرى بين اليمن والشام المسلك الحيوى منذ مطلع
القرن السادس الميلادى ، وحكراً على عرب الحجاز وحدهم . وكان وصول عرب
الحجاز لهذه المكانة منذ القرن السادس الميلادى حدثاً شجعت العوامل الطبيعية
عليه . إذ غدا وصول المتاجر آمنة إلى الشام رهناً بكسب صداقة عرب الحجاز
بعد أن زالت هيبة عرب الجنوب وفقدوا استقلالهم السياسى . فالبدوى معروف
منذ أقدم العصور بالإقدام والشجاعة وحبه للنضال إذا دعا داعى الجهاد ، أو
حدث ما يكرهه على أداء عمل لا يرغب فيه ، ولكن إذا كسب أحد صداقته
وأخذ منه الموائيق على أداء عمل أوفى بما عاهد عليه ولو ضحى في ذلك بالمال
والنفس^(٣) .

وانعكست صورة هذه الصفات التى تحلى بها البدوى فى النشاط التجارى
عبر طريق قوافل الحجاز ، إذ كان اعتزاز العربى بكرامته وشجاعته حافزاً أدى
إلى ضرورة نيل موافقته وأخذ وعده قبل أن تجتاز أية قافلة الأرض التى تسيطر

(١) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 214, 215

(٢) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١ .

(٣) O'Leary, op cit, 149

عليها قبيلته . فقد اعتبر البدوي هذه الأرض ملكه المقدس الذي يجب أن يزود عنه ويحميه بأى ثمن ، وكانت موافقة البدوي تتم نظير دفع مبلغ معين من المال أو مقابل أى شيء آخر يرتضيه الطرفان . ولكن النشاط التجارى حفز عرب الحجاز على أن يخطوا خطوة إلى الأمام أوسع من مجرد المحافظة على سلامة القوافل أثناء اجتيازها لبلادهم ، إذ رأوا من مصلحتهم أن يساهموا فى نقل هذه المتاجر ويعدوا أنفسهم لأداء هذه المهمة^(١) . ولذا عندما تغيرت الأحوال فى جنوب بلاد العرب غدوا وسطاء فى نقل المتاجر ، وحين خلا لهم الجو تماماً بعد انهيار مجد دولة حمير قبضوا على ناصية التجارة نفسها . ورضى جيرانهم المحيطون بهم فى الجنوب والشمال أن يكلوا إليهم مهمة نقل المتاجر لدرائتهم بمسالك الصحراء ودروبها ، ولجدارتهم على تدبير شئون القوافل أثناء ترحالها فى البيئـة الصحراوية^(٢) .

وهكذا ألقى زمام التجارة الشرقية فى أيدى عرب الحجاز عامة . ولكن النشاط التجارى تركـز بصفة خاصة فى أيدى أولئك العرب الذين استقروا بمكة ، التى ارتفعت مكانتها من مجرد محطة على طريق القوافل القديم إلى مراكز تجارى هام^(٣) . فاشتغلت جماعات من سكان مكة بنقل المتاجر جنوباً إلى اليمن ، وأخرى بالذهاب شمالاً إلى الشام . على أن الغالبية العظمى منهم كرسـت جهودها فى نقل المتاجر إلى الشام ، إذ ظل الأحباش واليمنيون يسهمون بنصيب فى نقل المتاجر من جنوب بلاد العرب إلى مكة . أما الطريق من مكة شمالاً إلى بلاد الشام فعدا حكراً على أهل مكة وحدهم ، ووفد إليهم وكلاء من قبل الامبراطورية

O'Leary, op cit, 180

(١)

O'Leary, op cit, 181

(٢)

(٣) وقد ظلت مكة تتحكم فى الطرق التجارية الهامة التى تخترق بلاد العرب حيث كانت تقع

فى ملتقى هذه الطرق جميعاً .

البيزنطية لعقد الصفقات التجارية ، كما استقر بينهم عملاء من فارس وغيرها من الحبشة^(١) .

وكان علو شأن مكة سبباً في منح أصحاب النفوذ بها مكانة عالية على سائر عرب الحجاز ، وتمتع بهذا المركز الرفيع دون سائر القبائل قبيلة قريش ، أو أولئك القوم الذين عرفوا باسم قريش البطاح . ويبدو أن هذه القبيلة اشتركت في النشاط التجاري بالحجاز قبل أن تصل إلى مركز الزعامة بمكة ، وأن رؤساءها الذين لموا شملها أدركوا أهمية تجارة مكة مع بلاد الشام . فيذكر أن قصي ، الجد الذي ينسب إليه اتحاد بطون قريش الضاربة حول مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي ، قضى أيام نشأته الأولى بين إخوته لأمه من بني عذرة النازلين على حدود الشام . ذلك أن أباه كلاب بن مرة القرشي توفي تاركاً لأمه فاطمة ولدان ، زهرة وزيد . وكان زيد طفلاً عندما مات أبوه ، فتزوجت أمه رجلاً من قضاة ، أخذها معه إلى بلاده من أرض بني عذرة بأطراف الشام . فاحتملت فاطمة إبناً زيدياً معها لصغره ونشأ بعيداً عن وطنه مكة مما دعا إلى تسميته قصي (تصغير قصي)^(٢) .

ولما بلغ قصي مبلغ الرجولة وقع بينه وبين شخص من قضاة شي من الجفاء ، دفع القضاة إلى تعبير قصي بالعربة ، قائلاً له ألا تلحق بقومك ! ؛ فلما عرف أصل موطنه الحقيقي بمكة خرج في الأشهر الحرم إليها مع حاج قضاة ، وأقام هناك جاهداً على إعادة مجد قريش . إذ عز على قصي أن يرى خزاعة سادة بني قومه القرشيين^(٣) ، وناصر خزاعة العداء حتى تمكن من إقصائها عن مكة

O'Leary, op cit, 183

(١)

(٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٣) في القرن الثاني الميلادي هاجرت عدة قبائل من اليمن موطنها ، واستقرت إحدى قبائلها وهي خزاعة في مكة ، وسيطرت في القرن الثالث الميلادي على كافة السلطات بها ولم تترك لقريش سكان مكة الأصليين إلا المناصب القليلة الأهمية مما آلم قصي فيما بعد .

(في القرن الخامس الميلادي) وولى أمر البيت الحرام ، وجمع قبائل قريش التي كان بعضها مقما في الشعاب وزووس جبال مكة ، وقسم منازلهم بينهم مما أ كسبه لقب **الْجَمَع** ^(١) .

وبعد وفاة قصي سنة ٤٨٠ م آلت السلطات التي تمتع بها في مكة إلى أبنائه وأحفاده من بعده ، ولسكن كان المشتغلون من هؤلاء الأبناء في التجارة إلى الشام هم أصحاب النفوذ الأعلى والسطوة . وتجلي ذلك حين انقسم أحفاد قصي نتيجة التنافس على رئاسة إدارة مكة إلى معسكرين ، أحدهما تزعمه بنو عبد الدار والآخر بنو عبد مناف الذين كان أظهرهم عبد شمس . فما أن تداعى الفريقان للسلم حتى تم الاتفاق بينهما على أن تكون الحجابة والندوة واللواء في أيدي بني عبد الدار ، على حين آلت السقاية والرفادة إلى عبد شمس بن عبد مناف ^(٢) . وكانت سقاية الحاج والرفادة ، وهي الإشراف على جمع الضريبة التي تخصص لإطعام فقراء الحجاج مقيمين أو مسافرين ، من الأمور التي تكسب القائم عليها ذكراً عالياً وتجعله الرئيس الفعلي لمنكة .

وكانت هذه الشؤون الخاصة بالحجاج تحتاج إلى رجل موثر للقيام عليها ، ولم يستطع عبد شمس أن ينهض بأعبائها الفقرة وكثرة أسفاره . فتنازل عما بيده من سلطات إلى أخيه هاشم الذي كان أكثر منه ثراء . وكان هاشم يستمد ثروته من نشاطه التجاري في الشام ، فقد تردد على هذه البلاد كثيراً ، وجلب منها ما تحتاج إليه مكة ، إذ حدث أن أصاب قريش قحط مرة ، فرحل هاشم إلى فلسطين واشترى منها دقيقاً وعاد به إلى مكة ، ثم أمر به أن يخبز ونحر الجذور لقومه وأطعمهم ، وسمى من هذه الحادثة هاشماً ، حيث كان يدعى من قبل عمرو ^(٣) .

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ص ١٨١ ، ١٨٢ ؛

Sir William Muir, The Life of Mohammad, 59.

(٢) محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام ، ص ١٦٩ .

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ؛

المقريزي ، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم ، ص ٨ .

ويعتبر هاشم المؤسس الحقيقي لمجد مكة التجارى وواضع أساس نشاط قريش التجارى فى بلاد الشام ، إذ أعطى هذه التجارة طابعاً منظماً وعمل على تنفيذها . فينسب إلى هاشم أنه أول من سن لقريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام^(١) ، ويبدو أن هاشم نظم رحلات قريش وأعطاهما هذا المظهر الثنائى مما جعل الروايات تعدّه مبتكر نظام رحلتى الشتاء والصيف . ودعم هاشم هذا النشاط التجارى الجديد على أسس ثابتة ، إذ عقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالفات حتى تضرب قوافل الحجاز فى أراضيها أمانة مطمئنة وتتجر بها فى هدوء ونشاط . فعقد هاشم بنفسه مع البيزنطيين وأمراء غسان غدا بمقتضاها لقريش حق التجوال فى بلاد الشام^(٢) . وازدهرت حياة مكة التجارية فى عهد هاشم ، ونعم أهل قريش بحياة رغدة هنية .

ولكن منذ عهد هاشم يمكن تلمس بداية نشاط الأمويين التجارى وحرصهم على استعادة ما سلف من نفوذهم ، الذى تنازل عنه عبد شمس لفقره . وتجلّى ذلك عندما تحركت كوامن الغيرة فى نفس أمية بن عبد شمس لما ناله عمه هاشم من مكان رفيع فى مكة ، إذ طمع فى انتزاع الشرف الذى بلغه هاشم بأن يطعم قريشاً كما فعل عمه . فكان هاشم يخرج سنوياً مالا كثيراً ينفقه على إطعام قريش وحجاج مكة كما تجلّى حين أصاب مكة القحط . ولكن أمية عجز عن مناهضة هاشم فى هذا المضمار وباء بفشل جعله موضع شماتة قريش وسخريتهم وعابوه على أفعاله . فغضب أمية وناقر هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق تنحدر بمكة ، وعلى جلاء عشر سنين لمن يكسب الموقف . وربما كان شرط الجلاء عن مكة يبين مدى ما أهاج نفوس بنى أمية من سيادة بنى هاشم لهذه المدينة التجارية ورغبتهم فى إبعادهم عن مصدر ثرائهم ونفوذهم . واحتكم هاشم وأمّية إلى كاهن

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

من خزاعة أصدر حكمه في صالح هاشم . فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعم من
حضر المنافرة ، وخرج أمية خاسراً إلى بلاد الشام ، وأقام بها عشر سنوات^(١) .

تعتبر هذه الحادثة ، التي تتخذها الروايات أول مظاهر العداء بين بني هاشم
وبني أمية ، حجب الزاوية في سياسة بني أمية التجارية ، إذ أدركوا ضرورة القبض
على أزمة النشاط التجاري إلى الشام للوصول إلى مركز الرئاسة بمكة ، واستعادة
ما كان لأبيهم عبد شمس من سلطان . وجاء اتجاه أمية إلى الشام وإقامته بها مدة
العشر سنوات رمزاً جذب أنظار بني أمية إلى هذا الاقليم وحثهم على التزود من
منابعه الاقتصادية . وجاءت الأحداث تترى بما تهيئ لبني أمية الاستيلاء على
تراث قريش التجاري في بلاد الشام ، إذ بموت هاشم في إحدى رحلاته إلى الشام
(حوالي سنة ٥١٠ م) ودفنه بغزة ، التي حوت بذلك رفات أول قرشي بأرض
الشام^(٢) ، خلى الجو لبني أمية ورأوا الفرصة مواتية لاعتلاء مدارج نشاط مكة
التجاري مع بلاد الشام .

ويرجع السبب في نجاح بني أمية إلى أن أبناء هاشم كرسوا جهودهم للإشراف
على إدارة مكة وتديبر شئونها الدينية أكثر من بذل عنايتهم للنواحي التجارية .
ولذا لم يستطيعوا النهوض بأعباء الرئاسة الدينية مع مطالب الرحلات التجارية
إلى الشام على نحو ما فعل هاشم . فكان اتجاه أبناء هاشم إلى الشام أمراً غير
ملموس لانصرافهم إلى تديبر شئون الحاج والإشراف على البيت الحرام . فاقتنص
بنو أمية هذه الظروف وأخذوا مقابليد إعداد الرحلات التجارية والخروج على
رأس القوافل إلى الشام ، مسيطرين بذلك على العمود الفقري الذي ارتكزت
عليه حياة مكة والشام التجارية .

واتضح هذا التبدل الجوهري في حياة بني أمية وبنو هاشم حين أعيد تنظيم

(١) المقرئزي ، نفس المرجع السابق ، ص ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

الإشراف على مكة الإدارية بعد كشف عبد المطلب لبئر زمزم في القرن السادس الميلادي^(١). إذ وزعت الاختصاصات الإدارية بين الأعضاء البارزين من أحفاد قصي ، وغدت مناصبهم تنتقل وراثياً إلى أكبر أبنائهم . فاختص بنو هاشم بالشؤون الدينية من هذه الإدارة ، حيث عهد إليهم الإشراف على بئر زمزم وسقاية الحاج ، ونال بنو أمية اللواء ، الذي يعتبر صاحبه كبير القواد ، والقائم على شؤون الركب في الأسفار سواء في القتال أو في الخروج للتجارة . وظل هذا الأمر يتوارثه بنو أمية حتى نهض به في الأيام الأولى من فجر الإسلام أبو سفيان ابن حرب^(٢) والد معاوية مؤسس الدولة الأموية . ومن ثم يلاحظ أن بني أمية غدوا نتيجة هذا التعديل الأخير أكثر فروع قريش ثراءً وأعلاها نفوذاً في القرن السادس الميلادي ، إذ هيأ لهم نشاطهم التجاري سبل الاتصال بكثير من البيوت الكبيرة ، فضلاً عن أن نجاحهم التجاري وما نالوه من ثراء عوضهم عما عجزوا عنه من قبل من الحصول على سيادة مكة ، حتى اعتبر بعض المؤرخين بني أمية قادة مكة وأصحاب الحل والعقد فيها قبل ظهور الإسلام .

وهكذا قبض بنو أمية بفضل زعامتهم التجارية وإشرافهم على إعداد رحلة الصيف على أزمه الأمور في مكة ، وورثوا ثمار الجهود التي بذلتها الهجرات العربية من قبل في الشام وتأسيسها بعض الممالك هناك . وإن نظرة علي تنظيم بني أمية لرحلة الصيف وقوافلها تبين التيارات التي أدرك الأمويون فيما بعد أهميتها ، وكيف حولوا مجراها إلى خدمة مآربهم في الشام حين سنحت لهم الفرص بعد قيام الفتوحات الإسلامية .

(١) اجتاز تاريخ بئر زمزم أدواراً متباينة ، فقد كان يسكن إلى جوار مكة قبل أن ينبع الماء في زمزم الجراهمة ، الذين احتفظوا بسدانة البيت العتيق بعد ضعف بني إسماعيل ، وأشرفوا على شؤون بئر زمزم كذلك . ولكن جرهما بغت بمسكة وضعف أمرهم مما جعل خزاعة تنتجح في التغلب عليهم . ولكن قبل أن يبرح آخر ملك جرهمي مكة رمى في بئر زمزم تحفه وذخائره ثم طم البئر ، وظل حال البئر على ذلك حتى اكتشفه عبد المطلب .

(٢) مبروك نافع ، المرجع السابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

كانت دار الندوة بمكة^(١) طبقاً للنظام القبلي تفص بعلمية القوم ، ينعقد جمعهم على هيئة مجلس حين يأتي ميعاد خروج قافلة من مكة قاصدة الشام . وكانت إدارة دفة المجلس وتدير شئون الأعمال التجارية التي تتناولها مناقشاته خاضعة لما يشير به بنو أمية . فقد اشتهروا بالخبرة الواسعة في ميدان المال ، فضلاً عن أن اختصاص النظر في مثل هذه الأمور التجارية منوط بهم حسب تقسيم شئون مكة الادارية . وكان يعهد إلى كبيرهم قيادة القافلة وإعدادها ، لما يعلقه أهالي مكة من آمال على ضروره نجاح القافلة وجلال مطالبها . إذ كان كل فرد في مكة أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي يساهم بنصيب معين في تكاليف إعداد القافلة .

واشترك في إعداد القافلة الغني والفقير ولا سيما النساء بصفة خاصة . فحياة أهالي مكة ، الغني منهم والفقير ، متوقفة على القوافل التجارية الذاهبة إلى الشام ومدى ما تدره عليهم من أرباح . إذ تطلعت الأسر الغنية إلى زيادة ثرائها في هذه المشاريع التجارية الرابحة والإعلاء من شأنها بين البيوت التجارية الكبرى ، على حين رأت الأسر الفقيرة في استغلال أموالها الضئيلة في هذا الميدان سبيلاً يعاونهم على قضاء مطالب الحياة ، والحصول على مورد خارجي يمكنهم من النهوض بأعبائها . فكل فرد منهم كان يقتصد من دينار إلى دينارين أو كل ما يستطيع أن يدخره من مال ليساهم في إعداد القافلة^(٢) .

كذلك اشتركت النساء في مكة في إعداد القوافل ، إذ رأت الكثيرات

(١) يقترن اسم دار الندوة دائماً بمكة ، وهي المسكان الذي اجتمع فيه سادة المدينة ليدرسوا شئون مدينتهم . وكانت دار الندوة في الأصل البيت الذي بناه قصى مسكناً له سنة ٤٤٠ م بالقرب من الناحية الجنوبية الغربية للكعبة . وعرف هذا البيت باسم دار الندوة لأن قريش دأبت على الاجتماع به لمناقشة مسائلها العامة . وكان يحضر هذه الاجتماعات الفرد الذي لا يقل سنه عن أربعين سنة . وكان قصى يسلم في هذه الدار اللواء أو العلم لقائد الحملات الحربية . وقد آلت إمتيازات قصى إلى أولاده وأحفاده من بعده .

منهن ، ولا سيما من كبار البيوتات المكية ، طريقاً لتنمية مواردهن والعيش في حياة رغده هائلة . ومن أمثلة هؤلاء خديجة التي تزوجها الرسول الكريم ، والذي أشرف على إدارة أموالها واستثمارها عن طريق هذه القوافل التي اتجهت إلى الشام . على أن نساء البيت الأموي كن أكثر النساء نشاطاً في هذا الميدان التجاري . فكانت أم أبي جهل تتاجر في العطور ، وهند زوجة أبي سفيان تبيع مقاجرها بين بني كلب في الشام^(١) .

وكان العبء الأكبر في إعداد القافلة وتمويلها ، رغماً عن هذه المساهمات السابقة الذكر ، يقع على كاهل بني أمية وحدهم . فهم يجمعون الأموال من كل راجب في التجارة ، ثم يزودون القافلة بما تحتاجه إلى جانب هذه المساهمات من مال ، وكان ذلك هو القسط الأوفر غالباً . فمن ذلك أن المال الذي طلب لإعداد القافلة التي أدت إلى غزوة بدر بلغ مقدار ٥٠٠٠٠٠ دينار ، قدم بنو أمية أغلبيته الكبرى . فدفعت جماعة أبو أحيحة وحدها من عائلة سعيد بن العاص الأموي ، مبلغ ٣٠٠٠٠ دينار ، إذ كانوا عبارة عن نقابة تجارية تستغل رأس مالها في هذا النشاط . وفضلاً عن ذلك ساهمت بيوت بني أمية الأخرى بمبلغ ١٠٠٠٠ دينار ، وعبارة أخرى أم بنو أمية قافلة بدر بأربعة أخماس المبلغ الذي طلب لإعدادها . وهذه القافلة أطلق عليها اللطيمة ، وذلك إسم يقصد به غالباً القافلة التي تحمل العطور^(٢) ، وهي أهم المتاجر الشرقية التي تنقل إلى الشام .

وهذه القافلة التي تعتبر نموذجاً لغيرها من القوافل الذاهبة إلى الشام تبين مدى ما بذله الأمويون من مال في الميدان التجاري ، وأنها توحى بضرورة وضع القافلة تحت إشراف شخصية لها خطرها حتى لا تصاب بسوء يعد كارثة تصيب

(1) O'Leary, op cit 183;
Encyc. of Islam (art Mecca) .

(2) Grant, op cit. 126.
Encyc. of Islam (art Mecca)

كل فرد في مكة جميعها ، غنياً كان أو فقيراً . وكانت مهمة اختيار الرئيس
أمراً لا يقل خطراً عن إعداد الرحلة نفسها ، إذ على شخصيته وهيئته وحدها
تتوقف سلامة الرحلة . فكان لا بد أن يختار من ذوى المكانة العالية والحسب
العريق ، إذ يعتبر هو وأقاربه مسئولين عن تعويض المشتركين في إعداد القافلة
عن أية خسارة تلحق بتجارها^(١) . ولذا كان إسناد هذه القافلة إلى أبي سفيان
يوحى بما تمتع به هذا الرجل من مكانة وهيبه في مكة ، فضلاً عن وظيفته الرسمية
في الخروج على رأس أشباه هذه القوافل الهامة .

وهكذا كان قيام أموى على رأس القوافل التجارية أمراً لا تتطلبه الشؤون
التجارية فحسب ، وإنما ضرورة تقتضيها سلامة الرحلة والاطمئنان على تكليل
نشاطها بالنجاح . وهذا الأمر السالف يحمل معنى السلطات الواسعة التي خولت
لبنى أمية ، إذ كان رئيس الرحلة يخرج على رأس قافلة هائلة تحتاج إلى يد حازمة
وساطان مطلق . فبلغ عدد الجمال التي خرجت في قافلة بدر ٢٥٠٠ بعير فضلاً عن
عدد كبير من الحراس بلغ حوالى ٣٠٠ رجل بين دليل وخفير^(٢) . وقد
منح رئيس الرحلة كافة السلطات التي تخوله الاتفاق مع من يشاء لإحاطة قافلته
أثناء الطريق بالأمن والهدوء . فكان يدخل في مفاوضات مع قبائل البدو التي
تجتاز قافلته أرضها ، ويأخذ منهم حراس للمحافظة على القافلة عند اجتيازها أى
منطقة مخوفة . وإذا اقتربت القافلة من إحدى المدن يعمل على الاتفاق مع
السلطات بها على إرسال حامية من الجنود تدفع عن القافلة غائلة العدوان^(٣) .

وإلى جانب هذه الامتيازات الواسعة التي تمتع بها بنو أمية لتوليهم رئاسة
القوافل ! اكتسبوا بفضل التجارة صرناً على الإستعداد للنوازل والعمل على تفاديها

(1) Grant, op cit. 128,129

(2) Grant, op cit 127, 128

(3) Ibid, 128

قبل وقوعها . فتعلموا في رحلات الصيف تكريس جهودهم للمحافظة على سلامة متاعهم أولاً وقبل كل شيء ، والاحتياط على تحقيق أهدافهم مهما كلفهم من وسائل . فكان رئيس القافلة إذا مادهم خطر يبعث نذير له هيئة مفرعة يستنفر الناس للدفاع ، ولكن النجاح في هذا الأمر يتوقف على حيطة الرئيس وبعد نظره .

وتجلى ذلك حين عاد أبو سفيان بقافلته من الشام إلى مكة . إذ عندما اقترب من الحجاز أخذ يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان عن أحوال الطريق ، وحين علم أن الرسول خرج للثأر لنفسه وللمهاجرين من غير قريش القادمة من الشام استأجر شخصاً يدعى ضمضم بن عمر الغفاري وبعثه إلى مكة ليستنفر أهلها للدفاع عن ثروتهم وكيان حياتهم^(١) . وكان هذا النذير يمنح مبلغاً كبيراً نظير تادية مهمته ، إذ أعطى أبو سفيان ضمضم مقدار عشرين ديناراً ، ولكن هذا القدر يعد قليلاً إلى جانب الأرباح الهائلة التي تدرها تجارة القوافل وما يترتب على نجاحه من إنقاذ أموالهم .

وكان خروج القافلة إلى الشام يعتبر يوماً عاماً عند جميع أهل مكة ، إذ يخرجون جميعاً لتوديعها معلقين الآمال على تأديتها تجارتها في أمن وسلام^(٢) . واتبع بنو أمية في قيادتهم لهذه الرحلات الطريق التجاري القديم ، إذ بعد اجتياز بلاد الحجاز يؤدي الطريق إلى الأراضي البيزنطية عند أيلة (العقبة) التي ضمها الرومان إليهم سنة ١٠٥ م . وعند هذه المدينة يبدأ طريق تراجان الذي يمتد بين البحر الأحمر وفلسطين وينتهي عند غزة . فكانت القوافل تتابع سيرها من أيلة إلى غزة وأحياناً يذهب فرع آخر منها إلى بصرى ، التي كانت عاصمة الولاية العربية بالشام^(٣) وسوقاً كبيراً وفدت إليه القوافل التجارية قبل الإسلام .

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٧٠ .

Encyc. of Islam, (art Mecca)

O'Leary, op cit, 186, 187

(٢)

(٣)

وتمتع قادة قوافل قریش من بنی أمیة بشهرة عالیة فی میدان التجارة هیات لهم جنی ثمار الامتیازات التي حصل علیها هاشم من البیزنطیین والغساسنة . فكانت القوافل تجدد كل معونة من السلطات البیزنطیة عند دخولها أیلة ، وكانت مقر الفیلق العاشر الذي احتل جزء منه جزيرة «جوتابا» لإكمال حركة الرقابة علی أیة تجارة قد تأتي بحراً . ففی أیلة كان التجار الأمویون یحرصون علی الحصول علی الدینار البیزنطی لتصرف شئونهم التجاریة ، علی حین لقوا كل ترحیب فی المدن الأخری التي سادها نفوذ الغساسنة^(١) . وكانت أهم السلع التي تحرص قوافل مكة علی الحصول علیها من الشام هی المنسوجات القطنیة والحریریة والأقمشة المصبغة ذات اللون الأرجواني ، علی حین تجلب من بصری الأسلحة والحبوب والزیت ، وهذه كلها أشياء تهافت البدو علی الحصول علیها^(٢) .

واشتهر بقیادة قوافل قریش ابن جعدان وأبو أیحجه وأبوسفیان ، وغالبیتهم من البیت الأموی . وقد ذاعت شهرتهم لیس بین بنی جلدتهم لحسب ، وإنما حظوا بالمسكانة العلیا كذلك بین السلطات البیزنطیة . فكانت الدولة البیزنطیة تعمل كل ما وسعها من جهد لإعلاء شأن أمثال هؤلاء القادة العظام ؛ وربما قلدت السیاسة الرومانیة القدیمة فی إقامة تمائیل لهم تخلیداً لذكراهم ولما أبدوة من ضروب الشجاعة والمهارة الفائقة^(٣) . ولذا یحتمل أن أبناء البیت الأموی تمتعوا بمركز رفیع بین السلطات البیزنطیة فی الشام ، حیث غدوا أساة الشریان التجاری البری وسادته الذین بعثوا فیهم دم الحیلة نابضاً بعد أن هبط نشاط النقل البحری عبر البحر الأحمر .

ولامراء فی أن علوشان بنی أمیة عند حکام الشام البیزنطی أوقفهم علی

(1) Lammens, op cit, 310 312, 313

(2) Encyc. of Islam (art Mecca)

(3) O'Leary, op cit, 184 :

Lammens, op cit, 313

أمثل الطرق لا اكتساب عطفهم والعمل على نيل رعايتهم ، مما يقتضى دراية وعلماً بالشخصيات ذات الحظوة لدى أولئك الحكام ، واتخاذهم وسطاء لديهم . وهذا من خلق التاجر الذى يتخذ من توثيق الصلات بين الناس ، ومعرفة طبائعهم وإرضاء نزواتها شعاراً للمحافظة على متاجره وترويجها بينهم . «فإن كان جريئاً على الخصومة . . . مقداماً على الحكام كان ذلك أقرب إلى النصفة . . . وإلا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيمية عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معاملته^(١)» . هذا إلى أن التاجر يشتهر بعين الفاحص الخبير التى تمكنه من معرفة أحوال البلاد التى يحط فيها حاله ، وضروب السلع التى تحتاجها ، والتطورات التى تطرأ على أذواق أهاليها . كل ذلك بما يضمن له تصريف متاجره فى أمن وسلام . ومن ثم كانت رحلة الصيف إلى الشام المدرسة التى تلقن فيها الأمويون دروساً فى طريقة خطب ود أهالى الشام ومراناً على إرضاء أذواقهم ، وعرفوا حين سفتحت لهم الظروف فيما بعد سبل السيطرة على أزمة هذا الإقليم وهيئة الاشراف به .

وإلى جانب هذه الخبرة الراسعة التى عرفها الأمويون عن أهالى الشام أدركوا كذلك بفضل إشرافهم على القوافل التجارية مصادر السلطة والهيمنة فى بلاد الحجاز وأيسر السبل لاجتذاب خيرة رجالاته إلى جانبهم . وذلك أن قيامهم على جمع أنصبه المساهمين من أهل الحجاز فى القافلة الذاهبة إلى الشام جعلهم يخبرون شتى أصناف الشخصيات ودراسة خلقها وطباعها . فكان وصول القافلة من الشام إلى مكة يوم عيد عند الجمع يخرجون فيه جميعاً لتحية الركب بقرع الطبول ، ويحدوهم الأمل بالريح الوفير^(٢) الذى يحمله لهم قادة القافلة من بنى أمية .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٠

(2) Grant. op cit, 130
O'Leary, op cit, 185

وكانت القافلة تدخل مكة تبعاً أشبه بالجيش وما يحدثه في النفس من رهبة . ثم يقبل الجميع يتزاحمون لأخذ أنصبتهم وأرباحهم من أبي سفيان الذي جلب لهم من الشام الخير العميم ، ويعودون مرحين مغتبطين بما أصابوا من ثراء . على أن أبي سفيان وأهل بيته من الأمويين يجمعون إلى جانب أرباحهم الخبرة الواسعة عن شخصيات عرب الحجاز ومدى صلابة عودهم . ولذا عند ما حصلوا على ما ادخره لهم الزمن من سلطان عظيم في دمشق بعد فتح الشام وجدوا لديهم قوائم جاهزة بأسماء الأعوان والأنصار الذين تقانوا في نصرة قضيتهم وتحقيق ما جاشت به نفوسهم .

وهكذا استطاع بنو أمية بفضل نشاطهم التجاري ، ومشاربتهم على الخروج في رحلات الصيف إلى الشام أن يكونوا أصحاب المركز الأول في الحجاز ، والقابضين على أزمة حياته الاقتصادية . ومن ناحية أخرى كسب الأمويون مكانة مرموقة في إقليم الشام ، ولا سيما أنهم حرصوا على اقتناء الأملاك والعقار الذي منحهم هيبة بين السكان . فاشترى أبو سفيان ضيعة في البلقاء ^(١) بفضل ما أغدقته عليه التجارة من ثراء وافر . ولا شك أن هذه الخطوة التي قام بها أبو سفيان جعلت الأمويين المشتغلين بالتجارة على صلات قوية مع أهل الشام وقربت الألفة بينهم .

وأصبح الأمويون بذلك قبل ظهور الإسلام مباشرة العمود الفقري في النشاط التجاري بين الشام والحجاز وأصحاب الكلمة المسموعة في كل ما يتصل بهذا الميدان . وعرف الأمويون بعد ظهور الإسلام كيف ينعمون بالأسس التي وضعها زعمائهم زمن الجاهلية في إقليم الشام حتى شيّدوا عليها صرح دولتهم عالياً .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

قيام البيت الأموي في الشام

يعتبر العقد الأول من القرن السابع الميلادي مشرق ظهور الأمويين على مسرح الأحداث السياسية في بلاد الشام ، إذ أدت سياسة البيزنطيين في إضعاف الغساسنة والقبض على سادتهم إلى غروب شمسهم بشكل ملموس واضح ، وتهيئة المسرح لسلطان بني أمية في الشام . وآية ذلك أن الأباطرة البيزنطيين لم يعضوا الطرف عن الغساسنة بعد تشتيت أمراءهم ونفيهم خارج بلاد الشام ، وتابعوا السياسة التقليدية الخالدة التي تنادي « فرق تسد » . فأخذوا يوقعون الشقاق بين قبائل الغساسنة بعد أن انفرط عقد اتحادهم وسطوتهم ويغرون القبائل العربية الأخرى على التحرش بهم والإجهاز على البقية الباقية من نفوذهم . وكان الأمويون المترددون بقوافلهم التجارية على بلاد الشام يرقبون هذه الأحداث عن كسب ، جاهدين على الابتعاد عن تيار المنازعات وقائمين بما يجدونه من رعاية وطمأنينة لدى هذه القبائل جميعاً .

وظل الأمويون على هذا النهج حتى اتجهت السلطات البيزنطية إلى الاستعانة بالقبائل العربية الضاربة في شمال الحجاز على إخماد حركات بعض الغساسنة الذين لم ينكسوا راية العصيان . وكانت وسيلة الإيقاع التي عمد إليها البيزنطيون هي إثارة حفيظة هذه القبائل العربية على ما ارتكبه الغساسنة نحوهم من عسف في أيام أوجههم . وجاءت الأحداث بما يمهد للبيزنطيين السبيل ، إذ اتخذت من ادعائها حق حماية المسيحيين ببلاد العرب تسكئة للاقصال بالقبائل العربية في الحجاز ، وكان القرشيون في مكة إذ ذاك سادة القبائل العربية وأقواها بسبب زعامتهم التجارية التي نالوها بفضل بني أمية ونشاطهم التجاري .

إتجه البيزنطيون إذ ذاك إلى الانصاف بقبيلة قريش متورعين بحماية المسيحيين في الحجاز حيث كان يرأسهم شخص يدعى « أبو الأمير الراهب »^(١) . على أن

(1) Kammerer, op cit. 345

القرشيين أبوا على البيزنطيين تدخلهم في شئون قبائل الحجاز خشية ترجيح كفة قبيلة على أخرى . فانتدبت قريش أحد سادة البيت الأموي ، وأوسعهم تجارة ، وهو عثمان بن عفان ، لمفاوضة السلطات البيزنطية وحملها على الحد من نشاطها في الحجاز ، ومبيناً لها مغبة سياستها ، إذ عليه أن يذكر البيزنطيين بسيادة مكة على سائر القبائل الأخرى وما لها من أهمية كبرى في النشاط التجاري للامبراطورية البيزنطية ، وأن الأفضل هو كسب تأييدها السياسي ، لا شد أزر المسيحيين^(١) .

وذهب عثمان بن عفان إلى عمال الحدود البيزنطيين (في إقليم الثغور) المقيمين في بصرى ، وفوضهم على الأسس السالفة ، وأضاف إليها بيان الدور الذي يمكن أن يلعبه العرب في تعضيد البيزنطيين في حروبهم المستمرة إذ ذلك مع الفرس . فانتهمز البيزنطيون هذه السفارة العربية وعملوا على اجتذاب عرب الحجاز إليهم للقضاء على فلول الغساسنة ، فأغدقوا على عثمان بن عفان لقب « فيلارخ » وهو من أرفع الرتب البيزنطية ، ولكن يبدو أنهم راوغوا في تحقيق مطالبه الأساسية وهي الكف عن منازعة قريش سيادتها في الحجاز^(٢) .

عاد عثمان بن عفان إلى مكة وهو يدرك تماماً أهداف البيزنطيين في إيقاع الفرقة والشقاق والشحناء بين صفوف العرب ، فأبى أن ينفذ مطالب البيزنطيين بتحريض عرب الحجاز ضد الغساسنة ، حيث أدرك أيضاً بثاقب نظره ما عليه الإمبراطورية البيزنطية من ارتباك وما بدت عليه من علامات الأفول في تلك الرقعة من أراضيها المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي . وجاءت الأحداث تترى بما يزيل للبيزنطيين من نفوذ في الشام وفي شمال بلاد العرب ، ويحقق ما أدركه عثمان بن عفان ، إذ سرعان ما غزا الفرس بلاد الشام (٦١٣/٦١٤ م) ، وقوضوا أركان البيزنطيين هناك^(٣) . ثم إن هرقل لم يكذب ينعم باسترداد الشام

(1) Kammerer, op cit. 345

(2) Ibid , 345.

(3) Ibid, 343 346.

وإبعاد الشبح الفارسي عن أراضي دولته المطلقة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي حتى ظهر نور الاسلام وكتب للعرب الذين ذاقوا من البيزنطيين ألوان التعذيب والتشتيت العزة عليهم ، ثم دفعهم على حمل لواء الإسلام إلى الشام وإزالة نفوذ البيزنطيين نهائياً منه .

وتعتبر سفارة عثمان بن عفان دليلاً على مطالع نفوذ الأمويين السياسي في إقليم الشام قبل الهجرة بزمن قليل . ثم لم يلبث الأمويون أن حازوا قصب السبق في الميدان السياسي في ذلك الإقليم كذلك حين أخذ الرسول الكريم يدعو القبائل العربية الضاربة في شمال الحجاز وجنوب الشام إلى الدخول في دين الإسلام . إذ استعان الرسول في تلك البقاع بعالم من بني أمية وبغيرهم ممن عرف بالحظوة عند الأمويين والدخول في دائرة نفوذهم . فكانت سياسة الرسول تهدف إلى استخدام نفوذ الأمويين بين القبائل العربية في جنوب الشام لنشر الدين الاسلامي بينهم ، وإيقاد غيرهم من مشاهير العرب الدائرين في فلكهم على رأس السمرات التي بعثها إلى قبائل الشام .

جعل الرسول الكريم عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك^(١) ، تلك البلاد الوثيقة الاتصال بالحدود البيزنطية وبالقبائل العربية الضاربة على تخومها . وبعث عمرو بن العاص ، صاحب اليد الطولى على معاوية فيما بعد زمن التحكيم^(٢) ، إلى أرض عمان بالقرب من الشام ، إذ وجهه الرسول إلى تخوم الشام التي نزلت بها أقوام بلي وعذرة ، حيث تربطه صلة القرى بأولئك العرب هناك . فكانت أم العاص بن وائل امرأة من بلي ، مما حدى بالرسول إلى اختيار عمرو لاستنفار تلك القبائل لمهاجمة الشام اعتماداً على صلة القرى بينه وبين أخوال أبيه في أرض بلي^(٣) .

(١) المقرئ ، المرجع السابق ، ص ٣٢

(٢) كان والد عمرو ، وهو العاص بن وائل ، من أعز أصدقاء أبي سفيان أيضاً والدمعوية

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٠٤

وهكذا كانت سياسة الرسول في إطلاق يد هذا النفر من بني أمية وغيرهم من المواليين لهم سياسة صحيحة ، تستند إلى تأليف قلوبهم للإسلام والإفادة من مجهوداتهم في نشره . وتجلى ذلك حين خرج عمرو بن العاص إلى تخوم الشام^(١) . إذ عندما بلغ عين ماء في أرض جذام يقال لها السلاسل توقف حتى يسبر غور هذه البقعة ، وبعث إلى رسول الله يطلب منه مدداً . فوجه إليه الرسول أبا عبيدة من الجراح على رأس الأمداد ، ثم زود الرسول أبا عبيدة بتعليمات صريحة تجعل لعمرو مركز الصدارة على الجند جميعاً . ولما وصل أبو عبيدة إلى معسكر عمرو إنضوى تحت لواءه إمثالا لأمر الرسول ، إذ حين خاطب عمرو أبا عبيدة قائلاً : « إنما جئت مدداً لي ، قال أبو عبيدة ، يا عمرو ، إن رسول الله قال لي لا تختلقاً ، وأنت إن عصيتني أطعتك ، فقال عمرو فأنا أمير عليك ، فقال أبو عبيدة ، فدونك ذلك^(٢) .

وكان الرسول حازماً خبيراً في إتخاذ هذه السياسة وكسب ولاء بني أمية وأنصارهم في غزواته لمنطقة تخوم الشام ، إذ رأى بعد غزوة مؤته ضرورة نشر الإسلام بين عرب الشام وإخراجهم من حظيرة البيزنطيين . فقد واجهت حملة مؤته عند معان من أرض الشام قوات البيزنطيين التي انضم إليها حال وصولها أرض البلقاء المستعربة من لحم وخدام وبهراء وبلي ، في مائة ألف رجل ، عليهم قائد من بلي^(٣) . وهذا يدل على حصافة الرأي في انتداب عمرو بن العاص لكسب ود بلي ونشر الإسلام بينهم لما كان لهم من مركز الصدارة في تلك البقعة من تخوم الشام .

(١) كان خروج عمرو إلى تخوم الشام لمحو آثار غزوة مؤته ، ونشر الإسلام بين القبائل العربية في شمال بلاد العرب وإخراجهم من دائرة التبعية للبيزنطيين .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ؛

Muir, The Life of Mohammad, 397

(٣) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

ولما توفي الرسول كشف الأمويون القناع قليلا عن أطماعهم السياسية في إقليم الشام . إذ أبقى عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأبناؤه البقاء على عمالتهم في تبوك وفدك وغيرها ، ورفضوا طلب أبي بكر للدخول في إدارته لتصرف شؤون تلك النواحي المتاخمة للشام ، وأجابوا بقول يحمل الكثير من المعاني ، فسرتها الأيام فيما بعد حين قبضوا على أزمة الخلافة الإسلامية « نحن أبناء أبي أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا^(١) » .

على أن بنى أمية وجهوا نشاطهم نحو إقليم الشام ، واشتركوا في المغازي التي أرسلت إلى شتى أرجاءه دون القناعات بإدارة بلدة من البلاد المتاخمة له . إذ أدركوا أن الشام المسرح الذي يجدر بهم إظهار مواهبهم فيه ، وأن يكسبوا بحمل الدين الإسلامي إلى أهله أسمى الذكر ، ليعوضوا ما فاتهم من سبق في اعتناق الإسلام . فخارب أبناء سعيد بن العاص بن أمية في مغازي الشام وقتل منهم الكثير حتى قيل : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتا^(٢) » .

وهكذا خضب بنو أمية بدمائهم أرض الشام وغذوا به بذور سلطنتهم الذي أينع على عهد معاوية ، بعد أن استفاد بنفسه من أحداث الفتوحات زمن الخليفين أبي بكر وعمر . وتجلى إقبال الأمويين على الشام بعد انتهاء أبي بكر من حروب الردة واتجاهه إلى إعداد الجيوش لفتح هذا الإقليم . فكان نصيبهم هو الأوفر في المساهمة في العمليات الحربية من حيث قيادة الجيوش وعدد الجنود الذين وضعوا تحت تصرفهم .

جهز أبو بكر أربعة جيوش ، جعل عليها يزيد بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح . وضم جيش يزيد

(١) المقرئزي ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) المقرئزي ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

بن أبي سفيان أعظم المحاربين مراسوا وأعزهم نفراً وخرج أبو بكر بنفسه مع يزيد بن أبي سفيان يودعه ، وسار الخليفة ماشياً ويزيد راكباً ، إجلالاً لهذا القائد الذي رغب الخليفة في تكريمه لما له من شأن في هذه الحملة المتجهة إلى الشام ، وليجعل له مركز الصدارة فيها عوضاً عن خالد بن الوليد الذي ذهب إلى العراق . وسار جيش يزيد في المقدمة ، يحمل علمه معاوية بن أبي سفيان أخو القائد ومؤسس الدولة الأموية فيما بعد ^(١) .

واتجه كل جيش من الجيوش الإسلامية صوب منطقة معينة من إقليم الشام ، لوحظ فيها مدى صلة القربى أو دراية قادة الجيوش بقبائلها وأحوالها . فنزل أبو عبيدة الجابية ، وشرجيل بن حسنة الأردن في المنطقة القريبة من بصرى وعمرو بن العاص القرينات ، ويزيد بن أبي سفيان البلقاء . وكان اختيار القائد الأخير للبقاء على أساس معرفته الوطيدة بها . فكان لأبي سفيان بالبقاء قرية أو ضيعة تابعة له إسمها « بقبش » مما يبين جلياً مدى نشاط الأمويين وخبرتهم بالشام قبل ظهور الإسلام وإبان انتشار الفتوحات الإسلامية به ^(٢) .

ولم يقتصر نشاط الأمويين في هذه الفتوحات الإسلامية الأولى في إقليم الشام على يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية وخروجهما معاً على رأس جيش واحد . إذ بعث يزيد بأخيه معاوية إلى جيش أبي عبيدة بن الجراح لشد أزرة في زحفه على بلاد الشام ، مما يحمل على الاعتقاد بأن قادة الجيوش الإسلامية الأخرى في الشام إعتمدوا على خبرة أفراد البيت الأموي بتلك البلاد . وفضلاً عن ذلك سارع سائر أفراد البيت الأموي إلى المساهمة في حملات المسلمين على الشام ، واضطلعوا بمهمة بث روح الحماس والحمية في نفوس المقاتلين المسلمين . فاشترك

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩ ؛

المقرئبي ، المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ١٣٥ .

أبو سفيان نفسه في جيش ابنه يزيد المحارب في الشام ، وصاحبه بعض أفراد بيته من النساء .

وكان للنسوة من البيت الأموي نصيب ملحوظ في العمليات الحربية التي قامت بها جيوش المسلمين ، فضلاً عن تشجيع الجند على مواصلة القتال . إذ أمر أبو سفيان النساء اللاتي خرجن مع الجيوش وأجاسن خاف الصفوف بأن يقذفن بالحجارة كل من رجع إليهن من جند المسلمين . وكذلك اشترك نساء البيت الأموي اشتركا فعلياً في معركة اليرموك الحاسمة التي جلبت الشام إلى المسلمين ، إذا قاتلت جويرية ابنة أبي سفيان مع زوجها في هذه الواقعة ، إلى جانب غيرها من النساء ، اللاتي ظهر منهن أيضاً هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان . وتوج هذا النشاط الحربي الذي أبداه الأمويون في هذه المعركة الكبرى أعمال أبي سفيان نفسه ، الذي أصيبت عينه يومئذ مسطراً اسمه بذلك في سجل كفاح آل بيته في حروب الشام ^(١) .

وعرف الأمويون كيف ينعمون بثمار جهودهم في فتوحات الشام على عهد الخليفين أبي بكر وعمر . إذ استطاعوا أن يكسبوا ثقة هذين الخليفين وأن يحتفظوا بمركزهم الرفيع في إدارة شئون إقليم الشام وأن يوسعوا سلطانهم فيه . فبينما ساءت العلاقات بين الخليفة عمر والقائد خالد بن الوليد ، وعزل الأخير عن قيادة الجيوش الإسلامية ، وعلى حين حاسب الخليفة عمر عمرو بن العاص فاتح مصر حساباً شديداً ولم يدع له فرصة يدعم فيها نفوذه في مصر ، نجد أبناء البيت الأموي في إقليم الشام يسرون قدماً في مدارج السلطان وتدعيم قبضتهم على شئونه . إذ تجنب أبناء البيت الأموي في الشام التردى في المصير الذي لاقاه خالد وعمرو ، وزادت دعائمهم قوة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وتعتبر سياسة هذا

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦ ؛

كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

الخليفة تجاه أفراد البيت الأموي بالشام ، سواء جاء ذلك عفواً أو تحت إملاء ظروف خاصة ، ظاهرة تسترعى الانتباه إذا ما قورنت بسياسته إزاء غيرهم من القادة والولاة .

وتجلت هذه السياسة حين توفي يزيد بن أبي سفيان ، فقد عهد الخليفة عمر إلى معاوية بن أبي سفيان إدارة ما كان خاضعاً لأخيه يزيد من بلاد الشام . هذا إلى جانب توسيع الخليفة عمر سلطان معاوية في إقليم الشام حين نظم إدارة هذا الإقليم ، إذ عندما توجه عمر إلى إقليم الشام للمرة الأخيرة سنة ١٧ هـ ، ورتب الجيوش بها وقوى حصونها ، عزل شرحبيل بن حسنة وأقام مكانه معاوية . واتضح ميل عمر إلى تفضيل أبناء البيت الأموي حين سأله شرحبيل « أعن سخطة عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ فأجاب لا ، إنك لسما أحب ، ولكني أريد رجلاً أقوى من رجل »^(١) ، وبذلك كان معاوية يتولى الأردن ودمشق عند وفاة عمر .

وإذا كان الأمويون قد نعموا بميزات جعلت أبا بكر وعمر يفضلانهم على غيرهم في إدارة إقليم الشام ، فإن الأمويين ساروا وفق سياسة مرسومة تهدف إلى تجنب إثارة شكوك الخليفة عمر نحوهم ، وما ينجم عن ذلك من إقصائهم عن الشام محط آمالهم . إذ قدم معاوية من الشام مرة وهو والى عليها من قبل عمر ودخل على أمه هند بالحجاز لزيارتها ؛ فقالت له « يا بني ، .. قد استعملك هذا الرجل (أي عمر) ، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته » . ثم دخل على أبيه أبي سفيان ، فقال له « يا بني ، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين ... قد قلدوك جسماً من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم ، فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه »^(٢) . وإن هذا الاتفاق في المعنى رغم اختلاف اللفظ يوضح تماماً

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

آمال الأمويين في البقاء عمالاً على إقليم الشام ، فضلاً عن أن نصيحة أبي سفيان كشفت عما راودهم من طموح جهدوا على تحقيقه رويداً ، عامدين أولاً إلى كسب ود الخلفاء وعطفهم .

وتوالت الأحداث بما يكسب الأمويين نفوذاً وحظوة عند الخليفة عمر ، الذي أدرك بمقاب نظره أهليتهم عن غيرهم في تصرف شؤون الشام . إذ حدث أن وفد عمرو ومعاوية على الخليفة ليمتحدثا معه في شؤون ولايتيهما ، واعترض عمرو على بعض أقوال معاوية مما حمل الأخير على أن يهجم بذكر مثالب عمرو في إدارة مصر . على أن عمرو أدرك بدهائه قصد معاوية ، وعمل على أن يصرفه عن الخوض في أحوال مصر بأن لطمه على وجهه . فاستاء الخليفة وأمر معاوية أن يقتص لنفسه . ولكن كياسة معاوية تجلت حين أجاب « إن أبي أمرني ألا أفضي أمراً دونه » ، فأرسل عمر إلى أبي سفيان ، الذي تجلت كياسته كذلك في فض هذه المهاترة وما يحتمل أن تجلبه ورائها من أضرار بأن تنازل عما لحق بابنه من إهانة في هذا القول الحكيم « لهذا بعثت إلى ! أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له ^(٢) » .

ومن أمثلة نجاح معاوية في التخلص من المآزق والعمل على نيل رضى الخليفة عمر ليظل والياً على إقليم الشام ما حدث بينه وبين الخليفة حين قدم على ذلك الإقليم في إحدى زيارته المتكررة . إذ خرج معاوية في موكب حافل لاستقبال عمر ، لكن الخليفة لم يرقه ذلك وأعرض عنه ، فسار معاوية راجلاً إلى جوار الخليفة حتى قال له عبد الرحمن بن عوف ، أتعبت الرجل . حينئذ سأل الخليفة معاوية عما دعاه إلى الخروج في هذا الزهو والركب الحافل ، فأجاب معاوية « لأننا في بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتني عنه انتهيت » . وهكذا

(٢) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .

استطاع معاوية بلباقته التي افتقر إليها غيره من الولاة أن يفوز برضى الخليفة ،
إذ أجابه عمر قائلا : « لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأى أريب ، وإن كان
باطلاً فإنها خدعة أديب ، وما أسرك به ولا أنهاك عنه ^(١) » .

وهكذا دعم الأمويون نفوذهم في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم السياسي
في صدر الإسلام ، لاشتراكهم في الحملات التي بعثها الرسول إلى إقليم الشام ،
وكذلك في الجيوش التي فتحت هذا الإقليم . ثم سرعان ما بذوا غيرهم من قادة
المسلمين ، حتى مكنوا لأنفسهم في إقليم الشام . واسترعى علو شأنهم المقريزي
حيث يقول « فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا في
أعمال أبي بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بني هاشم ، فهذا وشبهه هو الذي
حد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وقتل أمراسهم ^(٢) » .

ولما توفي الخليفة عمر بن الخطاب خطا الأمويون خطواتهم الثانية نحو تثبيت
أقدامهم في إقليم الشام ، واعتباره الحصن الذي يحميهم من النوازل والخطوب .
وكلت هذه الخطوة بالنجاح لأن البيت الأموي في الحجاز استطاع أن يفوز
بالخلافة بعد عمر بن الخطاب . إذ جاء انتخاب عثمان بن عفان خليفة فرصة أتاحت
للأمويين في الشام أن يثبتوا دعائم سلطنتهم وهيلانهم ، معتمدين على أن أحد
أفراد البيت الأموي هو الخليفة في الحجاز .

ولم يستطع الأمويون أن يخفوا شعورهم بأن انتخاب عثمان خليفة أمر حقق
لهم ما كانوا يطمحون إليه من السيادة والرئاسة . إذ عبر عن ذلك أبو سفيان ،
والد معاوية مؤسس الخلافة الأموية ، حين وفد على عثمان غداة انتخابه خليفة
ومعه رهط من بني أمية . فقال أبو سفيان للمجلس الذي ضمهم من بني أمية ،
وكان إذ ذاك قد عمى « أفبيكم أحد من غيركم؟ ، فقال الحاضرون لا ، فقال عندئذ

(١) ابن عبد ربه ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٢) المقريزي ، المرجع السابع ، ص ٤١ .

« يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثته^(١) . »

وإذا كان أبو سفيان تطلع إلى خلافة عثمان على أنها بداية لوصول بني أمية إلى تولى شئون المسلمين ، فإن ابنه معاوية أدرك أهمية إقليم الشام والدور الذي يمكن أن يؤديه للاحتفاظ بالخلافة دائماً في بيت أمية ، وأنه المقر الذي يجب أن تنتقل إليه حاضرة هذه الخلافة . وتجلت هذه السياسة التي رسمها معاوية بشكل واضح حين أطلق له عثمان ولغيره من بني أمية العنان في إدارة الولايات الإسلامية . إذ دعم معاوية نفوذه وسلطانه في إقليم الشام وأصبح والياً عليه كله بعد سنتين من خلافة عثمان^(٢) . ولذا ما أن ثارت الولايات الإسلامية على عثمان لتحيظه لأقاربه وتفضيلهم على غيرهم في تصريف شئون المسلمين حتى انطلق معاوية للدفاع عن عثمان معتمداً على جاهه وسلطانه في إقليم الشام .

وأفصح معاوية عن نواياه في نقل حاضرة الخلافة إلى الشام وعن اعتزازه بهذا الإقليم حين وفد على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر الولاة من بني أمية وغيرهم للتشاور في هذه القلاقل والفتن التي انتشرت ضد عثمان . إذ حضر معاوية مع عثمان مجلساً ضم علياً بن أبي طالب وطلحة والزبير ، وفهم مدى سخط الناس على تفضيل عثمان لأبناء البيت الأموي ، وأن الموقف غداً بالحجاز خطيراً . فعندما انفرط عقد المجلس وخلي معاوية بعثمان أشار عليه قائلاً « يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا »^(٣) .

وهذه الفكرة التي دان بها معاوية رفض تنفيذها عثمان ، وأبي مفارقة

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

(٢) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠١ ؛

الحجاز . ولكن معاوية صمم علي متابعة خطته ، وهي الدفاع عن بقاء الخلافة في بيت بني أمية . إذ مر في طريق عودته إلى الشام بعد انتهاء مؤتمر الولاية الأمويين بقوم من المهاجرين في المدينة ، وخاطبهم قائلاً « قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغموراً في قومه ... حتى بعث الله رسوله ، فسبقتم إليه ... فسدتم بالسبق لا بغيره ... وسيدوم هذا الأمر ما استقمتم ، فإن تركتم شيخنا هذا (أي عثمان) يموت على فراشه ، وإلا خرج منكم ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم^(١) . » وكشف معاوية بذلك القناع تماما عن سياسة الأمويين في بقاء الخلافة بينهم ، وأن الاعتداء علي عثمان والالتجاء إلى القوة في تنفيذ ذلك يرجح كفة بني أمية بفضل موازنة أهل الشام لهم .

وكان معاوية حصيفاً بعيد النظر حين لوح لعثمان بترك الحجاز والانتقال إلى الشام والاعتماد على قوة ذلك الإقليم . إذ أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها . فقد هاجرت معظم القبائل الهامة من بلاد الحجاز وأقامت في المعسكرات التي تحولت إلى مدن زاخرة في الأقاليم المفتوحة ، وفقدت بلاد العرب بذلك مكاتبها باعتبارها محور ارتكاز الدولة الإسلامية . وعجل أهل المدينة أنفسهم بالقضاء على ما تبقى لحضرتهم من هيبة وسلطان ، وبينوا أن منابع القوة غدت مركزة في مدن خارج إقليم الحجاز حين وفد الثوار من سائر الأمصار لشد أزر الناقمين على عثمان بالمدينة . إذ تطورت أحداث الثوار وقتلهم عثمان إلى أن المسألة أضحت مسألة قوة ، وأن إزالتهم شخصية عثمان لن تجدى فتيلاً ، لأن القوة كامنة خارج إقليم الحجاز والفوز لمن يسيطر على أعنتها^(٢) .

وتجلت هذه الظاهرة بعد أن بويع علي بالخلافة ، إذ أقام مقر حكمه في الكوفة

(١) الطبري ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ١٠٠ .

(2) Wellhausen, The Arab Kingdom, 53, 54.

تاركا الحجاز ، وسيطر منها على الدولة الإسلامية عدا الشام التي تحصن بها معاوية
وناصب علياً العدا . ويعتبر النزاع بين علي ومعاوية نزاعاً بين العراق والشام ،
استطاع أن يصمد فيه معاوية ، رغم انتصارات علي بن أبي طالب الحربية ، بفضل
طاعة أهل الشام وولائهم له . فقد تلى رجحان كفة علي في معركة صفين حادثة
التحكيم التي جلبت الفرقة في صفوف جيش علي بن أبي طالب ، على حين جنى
معاوية بعد هذه المعركة ثمار جهوده في إقليم الشام وبقاء أهله على الولاء له . ثم لم
تلبث الأحداث أن هيأت الجو لمعاوية تماماً حين قتل علي بن أبي طالب . إذ آثر
الحسن التنازل لمعاوية ^(١) ، الذي أصبح بذلك خليفة المسلمين (٤١ هـ / ٦٦١ م) ،
وورث جهود أسلافه وأبائه من بني أمية في إقليم الشام . وقد تابع معاوية
جهوده في إعزاز دولة الإسلام ، حتى سجل له التاريخ إحلال المسلمين مسكان
البيزنطيين في سيادة البحر الأبيض المتوسط .

(١) آثر الحسن التنازل عن حقه في الخلافة حين رأى تقاعس جند العراق عن نصرته ،
وعقد صلحاً مع معاوية اعترف فيه بأن معاوية خليفة المسلمين طوال حياته . ولكن جاء هذا
التنازل نقطة تحول في تاريخ معاوية وسلالته من بعده .

الفصل الثاني

معاوية قاهر البيزنطيين

المرحلة الأولى في الجهاد الأموي

ضد البيزنطيين

استيلاء معاوية على منطقة الشام الساسانية :

كان الرعييل الأول من أولى الأمر في الدولة الإسلامية قادة من الطراز الأول في إدارة شؤون دولتهم ، وإيثار ما يضمن لها الاستقرار والأزدهار ، ويهيء لها سبل الطمأنينة والسؤدد ، على ما عداه من الأمور التي يزينها الهوى أو التي يعوزها رائد نفع أرض الإسلام . وحمل لواء هذه الطبقة الأولى من مؤسسي الدولة الإسلامية الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي سجل له التاريخ الفوز بقصب السبق في تنظيم البلاد التي استظلت على عهدة بلواء الإسلام . إذ وضع لإدارتها دستوراً سار خلفاؤه على هديه في النهوض بشؤون دولة الإسلام ، والعمل على رفاهيتها وتنظيم أحوالها ، حتى ساد السلام « دار الإسلام » على حد قول المصطلح الذي أطلقه الرحالة المسلمون الذين جاؤوا بقاع الدولة الإسلامية فيما بعد ، وأسهبوا في وصف ما زفلت فيه من أمن وهدوء وسعادة .

وكانت إحدى الخطوات التي اتخذها الخليفة عمر بن الخطاب في ميدان تنظيم الدولة الإسلامية وتدعيمها تنصيب معاوية بن أبي سفيان والياً على ما كان تابعاً لأخيه يزيد بن أبي سفيان من أرض الشام ، حين اختطفت المنية هذا القائد الأموي الأول من مسرح الأحداث في تلك البلاد . إذ جاءت خطوة

الخليفة عمر بن الخطاب فرصة أتاحت لمعاوية متابعة الجهود التي بذلها من قبل في الدفاع عن الدولة الإسلامية ، فرد غائلة البيزنطيين عنها وحصرهم في عقر أرضهم من « دار الحرب » على حد قول المصطلح الإسلامي ، الذي نعت الأمبراطورية البيزنطية بالعدوان والتحرش بأرض الإسلام .

تلقت معاوية أولى دروس الجهاد ضد البيزنطيين في مدرسة الفتوحات الإسلامية التي قامت زمن الخليفين أبي بكر وعمر . وقد خرج منها بفائدة اختص بها وحده ، وجعلته قادراً على متابعة الرسالة التي ادخرها له الزمن في إجهاد البيزنطيين بعد أن انفرد بحكم الشام وغدا المهيمن عليه . إذ اضطلع معاوية بمهمة فتح المدن الساحلية من بلاد الشام ، وأدرك من العمليات الحربية التي دارت رحاها بينه وبين البيزنطيين في تلك المدن ما عليه خصومه من بأس و صلف وعناد . فقد عجم عودهم وعرف حقيقة أمرهم وطبيعة معدنهم مما خفي على غيره من قادة المسلمين الذين غابت عنهم هذه الأمور — التي مسها معاوية — وسط أحداث انتصاراتهم الباهرة وسحقهم البيزنطيين في ساحة اليرموك وأرض أجنادين . وكان لطبيعة الميادين الحربية بأرض الشام أثرها في تفتق ذهن معاوية وتحديد خطته إزاء البيزنطيين ، إذ دارت رحى المعارك الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في الشام في جهات حددتها جغرافية هذا الاقليم ، ورتبت أحداث الوقائع حسب مسرحه الطبيعي . ذلك أن تضاريس الشام تمتاز بتتابع من أراضي منخفضة وأخرى مرتفعة ، تمتد موازية لبعضها البعض من الشمال إلى الجنوب مع ميل نحو الشرق . وكان لكل قسم منها مميزات ، ولكن اقتصرت هذه الأقسام على أربع مناطق متباينة ، الأولى على الساحل ، والثانية أرض جبلية بها الغابات ، والثالثة وديان الأردن ، والأخيرة المنطقة الملاصقة للصحراء^(١) .

(1) Hitti, History of Syria, 130.

وبدأ المسلمون فتوحاتهم في المنطقة الأخيرة المتصلة بالصحراء ، حيث ينتهي عندها الشريان التجاري القديم الذي سارت فيه القوافل التجارية من مكة والمدينة إلى دمشق ، عروس المنطقة الرابعة في الشام . وامتدت العمليات الحربية الإسلامية إلى البلاد الواقعة شرق الأردن والبحر الميت ، التي كانت أولى البقاع التي استولى عليها المسلمون من أرض الشام . ثم تلى ذلك سقوط دمشق ومحاولات المسلمين تدعيم ما سيطروا عليه من أراضي الشام . فأحسوا ضرورة الزحف إلى ما وراء دمشق والاستيلاء على المنطقة الشمالية بمدنها من أنطاكية وحمص وحلب ، وتم لهم النصر في تلك الجبهة كذلك ، وثبتوا أقدامهم في شطرها من إقليم الشام .

وهكذا انتصر المسلمون على طول الطريق القديم الذي ارتادته قوافلهم التجارية في رحلة الصيف ، تاركين المنطقة الساحلية التي فصلتها سلسلة جبال لبنان عن داخلية البلاد . وهذه المنطقة الساحلية كانت موضع اهتمام البيزنطيين ورعايتهم ، إذ أقاموا بمدنها المعاقل للدفاع عنها وخصصوا حاميات كبيرة لشد أزرها ، منها حاميات قيصرية وعسقلان وغزة ويافا ، فضلا عن الحاميات المرابطة في المدن الأخرى الهامة مثل عكا وصور . وترجع العناية بهذه المدن إلى أنها نقط قريبة من أماكن يمكن أن يجتاز عندها الحاجز الجبلي الذي يفصل الساحل عن داخلية البلاد . فكان اتصال الساحل بالمنطقة الخلفية يتم عبر عدة فتحات هامة ، الأولى عند خليج الإسكندرونة ، حيث تؤدي إلى العراق ، والثانية فتحة عند وادي نهر السكلب شمال طرابلس ، وأخيراً فتحة عند مرج بن عامر شرقي عكا^(١) . وأدرك المسلمون أثناء فتوحاتهم في إقليم الأردن خطورة بقاء المدن الساحلية ولاسيما صور وعكا في أيدي البيزنطيين^(٢) . إذ جاءت الأمداد البيزنطية من هذه

(1) Hitti, History of Syria, 130, 131.

(٢) أطلق اليونانيون على المنطقة المحيطة بصور مباشرة اسم (سوريا) ، ثم عمموا الاسم =

المنطقة الساحلية لدفع المسلمين ، وعرفت تقدم عمرو بن العاص . واستدعى ذلك تآزر القوات الإسلامية ، حيث طلب القائد العام للمسلمين بالشام ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، من يزيد بن أبي سفيان أن يسير من دمشق لمعاونة القوات الإسلامية بمنطقة الأردن . وقد لبى يزيد الدعوة ، إذ سار بجيوشه إلى سواحل الأردن وعلى مقدمتها أخوه معاوية^(١) الذي بدأ منذئذ يدرك حقيقة هذه المنطقة وأنها مفتاح الشام والخنق الذي يجب انتزاع سيطرة البيزنطيين عنه لضمان بقاء المسلمين بهذا الإقليم .

أظهر معاوية في فتح هذه المنطقة الساحلية عبقرية مبكرة ، وبذل فيها جهوداً ذات « بلاء حسن وأثر جميل »^(٢) ، على نحو ما شهد له بذلك قادة المسلمين بالشام . فاستهل أعماله الموفقة في هذه المنطقة بالاستيلاء على عرقه ، على حين استعصت سائر المدن الساحلية الأخرى على أخيه يزيد . إذ كانت هذه المدن فضلاً عن متانة حصونها ومنعتها متصلة بالبحر مباشرة تتلقى منه الأمداد البيزنطية والمؤن التي تضمن لها المقاومة والبقاء . فترك يزيد لأخيه معاوية مهمة إخضاع هذه المدن ، وعاد إلى دمشق^(٣) .

واتجه معاوية نحو مدينة من أهم المدن الساحلية بالشام وهي قيصارية . وكانت هذه المدينة قد استعصت على عمرو بن العاص نفسه ، ذلك القائد الماهر الذي

== فيما بعد حتى أصبح يشمل سائر الأراضي التي خضعت لهم . ولم يستخدم العرب ذلك الاسم للدلالة على الأراضي الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط كما فعل اليونان ، وإنما أطلق العرب اسم الشام على هذه المنطقة جميعها ، ابتداء من جبال طوروس التي بها ممرات قليقيا شمالاً إلى شبه جزيرة سيناء جنوباً ، والتي يحدها غرباً البحر وشرقاً صحراء بلاد العرب . وتنقسم هذه المنطقة جغرافياً إلى أربعة أقسام : الأولى المنطقة الساحلية تليها المنطة الجبلية ثم دويان الأردن وأخيراً المنطقة الملاصقة لصحراء بلاد العرب .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

فتح منطقة فلسطين . إذ بعد مغادرة عمرو بن العاص فلسطين متجهاً لفتح مصر ، سار معاوية إلى هذه المدينة وألقى عليها الحصار . وظل معاوية مثابراً في حصاره أمام مقاومة المدينة وعنادها ، إذ كانت مثل سائر المدن الأخرى تتلقى الأمداد وآلات الدفاع من البحر ، وصدت هجمات المسلمين المتوالية . وظل الحصار الاسلامي على قيصرية عدة سنوات حتى تمكن معاوية أخيراً من اقتحامها سنة ١٩هـ / ٦٤٠م بفضل خيانة يهودى بالمدينة يدعى يوسف . إذ أتى ذلك الرجل إلى المسلمين ليلا ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه بعد أن أخذ منهم أماناً لنفسه وأهله . ونجح معاوية بذلك في اقتحام المدينة ، وأخذ منها كثيراً من الأسرى والغنائم أرسلها إلى المدينة بالحجاز ليعلمن للسلطات المركزية بها نبأ هذا النصر المبين . واستقبل الخليفة عمر هذه الأنباء بالفرح العظيم وقدر لمعاوية هذه الجهود الطيبة والتفاني في تأدية واجبه^(١) .

— وكانت الأحداث تسير في الشام في ذلك الوقت بما يزيد في قوة معاوية ويجعله ينعم بثمار انتصاراته ، إذ كان انتقال عمرو بن العاص إلى ميدان مصر ، ثم وفاة يزيد أخى معاوية عاملاً مهد له الجو للانفراد بإدارة شئون الشام واستكمال فتوحاته^(٢) . فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في فتح ما بقي من المدن الساحلية ويصف له حال المنطقة الساحلية بالشام الخاضعة للمسلمين ، ويذكر أنها معرضة للخطر البيزنطى . فأمره الخليفة بالعناية بتحصين المدن الاسلامية على الساحل ، وترتيب الجند فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها زيادة في الحيطه من أى هجوم مفاجئ . ثم أمره بعد ذلك بغزو ما تبقى من مدن فلسطين^(٣) .

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٧ . Miur, The Caliphate, 124, 143.
(٢) تولى أبو عبيده بن الجراح إمرة الشام ، ولما توفى أثناء الوباء (الطاعون) الذى اجتاح الشام (١٨ هـ / ٦٣٩ م) عين الخليفة عمر بن الخطاب مكانة يزيد بن أبى سفيان ، ثم خلف معاوية أخاه يزيد .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٩ .

سار معاوية لفتح مدينة عسقلان ولقى جهداً شديداً في حصارها ، إذ يستدل من أوصاف الرحالة المسلمين المتأخرين لها أنها كانت شديدة المنعة قوية الحصون ، لها أسوار مزدوجة ، وأهلها يستطيعون مقاومة الحصار مهما طال لكثرة أبار المياه العذبة بها ، وأشجار الجوز التي تقيم أود السكان . وكانت هذه المدينة تدعى لأهميتها وعظمتها عروس الشام ، ويكثر بها الزيتون والكرم (١) . ولذا لقي معاوية تعباً وعناءً في حصار المدينة ولم يستطع الاستيلاء عليها إلا صلحاً . وما أن دخلها حتى أقام بها جنداً لحراستها والدفاع عنها (٢) . على أن الطريقة التي خضعت بها هذه المدينة زادت معاوية يقيناً بما عليه أعداؤه البيزنطيون من عناد ، ودأبهم على قض مضاجع المسلمين ، وأنهم لا يسلمون أية مدينة في سهولة ويسر .

وأتت سياسة معاوية في تحصين المدن الساحلية التي استولى عليها ثمارها حين جدد البيزنطيون إغاراتهم بشكل عنيف على سواحل الشام أواخر عهد الخليفة عمر وأوائل خلافة عثمان . إذ تمكنت المدن الإسلامية من دفع هذا الخطر المفاجئ ، ثم سار إليها معاوية حيث شد أزرها وأصلح ما خرب منها . ووضع معاوية في هذه المدن جنداً جديداً أغراه على الإقامة فيها بمنحه إقطاعات من الأرض يستثمرها ويتمتع بخيراتها .

وتابع الخليفة عثمان سياسة سلفه عمر بن الخطاب في السماح لمعاوية بفتح ما تبقى من مدن الشام الساحلية ، وزاد عثمان على ذلك بأن ترك الحرية التامة لمعاوية في تصريف شؤونه بإقليم الشام . فاتجه معاوية إلى مدينة طرابلس التي كانت ميناء دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية . وكانت هذه المدينة تمذ سائر مدن الشام في حصونها وبهاؤها ، ولها ميناء عظيم يسع عدداً كبيراً من السفن .

(1) Le Strange, Palestine under the Muslims, 401, 402.

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

وامتازت هذه المدينة كذلك بأن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، تصل أمواجه إلى أسوارها ، على حين يحيط بسورها البرى خندق عظيم ، ويعلو الجدار آلات الدفاع من العرادات . وزاد في منعة هذه المدينة وسهولة حصولها على الأمداد وجود أربع جزر صغيرة تقع إحداهما وراء الأخرى ^(١) في مياه البحر القريبة منها وتدخل في تبعيتها .

وجه معاوية إلى هذه المدينة سفيان بن مجيب الأزدي وأعد خطة محكمة للاستيلاء عليها ، وكانت تهدف إلى تضيق الحصار عليها براً وبحراً ومنع الأمداد من الوصول إليها من الأساطيل البيزنطية . فبنى القائد الأموي حصناً في مرج يقع على أميال من المدينة نسب إليه وسمى حصن سفيان ، وضيق الخناق على أهالي طرابلس . ولسكن يبدو أن الحصار البحري لم يكن على نسق الحصار البري وأن البحر كان مفتوحاً أمام الأهالي . إذ لما اشتد الحصار كتب سكان المدينة إلى إمبراطور الدولة البيزنطية يطلبون منه إرسال أمداد أو إيفاد سراكب يهربون عليها . ولما لم يكن ثمة مناص من التسليم بعث إليهم الإمبراطور البيزنطي سفناً هربوا عليها في جنح الليل ، وخلت حصون المدينة من المدافعين عنها ^(٢) .

وفي صباح اليوم التالي حين هاجم المسلمون حصون المدينة لم يلقوا مقاومة ، حيث هجرها الجند ومن كان قادراً على الدفاع ، فاستولى عليها سفيان وأخبر معاوية بذلك . فاهتم معاوية بإعادة تعمير هذه المدينة لما لها من أهمية في حياة الشام الاقتصادية ، ولا سيما لمنطقة دمشق خاصة . فأرسل إليها جماعة كبيرة من اليهود وكذلك حامية عظيمة للدفاع عنها . وكان يجدد أفراد هذه الحامية كل عام ليجعل القوة المدافعة عن المدينة دائماً من الجند الشديدي البأس والمراس ^(٣) . ويعتبر معاوية بذلك أول مدعم للفتوحات الإسلامية بالشام ، والمتمم للتنظيم

(1) Le Strange, OP Cit, 348

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

الإداري الذي سبق أن وضعه الخليفة عمر بن الخطاب لهذا الإقليم . إذ كانت الأجناد ، وهي الأقاليم الحربية التي أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب في بلاد الشام حين وفد إليها وعقد بها مؤتمر الجابية سنة ٦٣٩ م ، تفتقر إلى المنافذ الطبيعية لها على البحر . فجند الأردن كان مبتوراً لبقاء عكا وصور بأيدي البيزنطيين ، وجند دمشق مضيئاً عليه بسبب مقاومة مدينة طرابلس ، وكذلك جند فلسطين كان يعوزه الاستقرار بسبب بقاء عسقلان على المقاومة . وهكذا جاء معاوية واضطاع بمهمة الاستيلاء على هذه الثغور الهامة ، وحقق للمسلمين الاستقرار في ربوع الشام ..

- على أن معاوية أدرك الشيء الكثير عن البيزنطيين إبان العمليات الحربية التي اشتبك فيها معهم ، كما تفتحت مواهبه في تلك الفترة وهيأته لما ادخره له المستقبل من مشاريع كبرى في سبيل إعزاز الإسلام ورفع رايته . إذ عرف معاوية أن بقاء المسلمين في الشام لن يأخذ صبغة تامة ولن تستقر دعائمها طالما دأب البيزنطيون العناد ، وما تحدته به أنفسهم من الاعتداء على أرض الإسلام . فاتجه معاوية إلى التصدي للبيزنطيين وجعلهم يدركون حقيقة الفتح الإسلامي بالشام ، وأن العرب الجدد الذين حملوا لواء الإسلام يختلفون تماماً عما عرفوه عن عرب الغساسنة وغيرهم من بدو شمال بلاد العرب .

ولم يكن معاوية الشخصية التي ترتجل الأعمال وتقبل على ما تحدته به نفسه دون روية وإعداد ، إذ أدرك ضرورة الاهتمام أولاً بولايته بالشام وخلقها خلقاً جديداً حتى تصبح قادرة على أداء الرسالة التي أقيمت على عاتقه وكاهل رعاياه من هذا الإقليم . وأثبت معاوية في هذه المرحلة التمهيدية أنه حرى بأن يلقب «قيصر العرب ، وقاهر البيزنطيين» .

أداة الجهاد ضد البيزنطيين

عرف معاوية بعقريته الفذة أن الجهاد يتطلب حسن إعداد طاقات البلد الذي يدير شئونه ، وما يتصل بذلك من تأمين سلامته الداخلية بالقضاء على عناصر الاضطراب وإزالة كل ما يؤدي إلى القلق وعدم الاستقرار ، ثم انتقاء الأشخاص الذين يعرفون كيف ينفذون خطته وأهدافه . وكان معاوية حراً في تنفيذ هذه السياسة وإعداد الأداة الحربية لمناهضة البيزنطيين منذ أطلق الخليفة عثمان بن عفان يده في إقليم الشام يتصرف في إدارته كيفما شاء . ولذا استهدف معاوية في سياسته الداخلية تحويل إقليم الشام وأهله ، بثروته وقواته وما به من شخصيات ذات مواهب عالية ، إلى الدفاع عن أرض الاسلام وإعلاء كلمة المسلمين .

وضع معاوية نصب عينيه تحرق البيزنطيين ألماً لضياح ممتلكاتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأنهم لن يهدأوا إلا باستردادها وإخراج المسلمين منها مرة أخرى ، وألا طمأنينة للمسلمين ولا استقرار لهم إلا إذا اتحدت كلمتهم وتم إعدادهم لتأدية ما يعهد إليهم به من واجبات الجهاد . وأظهر معاوية في هذا الاتجاه من ضروب الخدق والكياسة ما مكفه من أن يخلق من العرب سادة الصحراء أمراء للبحار ، وأن يقودوا الأساطيل عبر عباب المياه بنفس المهاره والبراعة التي قادوا بها سفن الصحراء عبر الرمال والكثبان ، وحقق بذلك انقلاباً كفل للمسلمين الكلمة العليا على البيزنطيين . ثم دعم معاوية مجهوداته بلم شمل رعاياه في صعيد واحد ، جامعاً من نظامهم القبلي وتقاليدهم البدوية مادة مدربة قادرة على زلزلة صرح أعدائهم .

أقبل معاوية على تنظيم المادة التي أمامه بجهد وحماسة وتبهيئتها لمهمتها الجديدة . فوجد في الشام غالبية عظمى من السكان العرب اليمنيين ، الذين حلوا

أرض هذا الاقليم منذ أمد بعيد قبل الاسلام . وقام إلى جانبهم جماعات من عرب الشمال^(١) الذين وفدوا إلى الشام مع تيار الفتوحات الاسلامية . وكان هذان العنصران يحملان في نفوسهما ما فطرا عليه منذ أقدم العصور من إحن وبعضاء تولدت عندهما قبل ظهور الاسلام . وقد عرف أهل الجنوب باليمنيين ، وكان لهم قديماً قسط وافر من الحضارة والمدنية وكذلك السيادة على عرب الشمال الذين عرفوا بالمصريين . وقد جهد المصريون قبل الاسلام على التخلص من ربة عرب الجنوب ، ولكن لم يقيس لهم غير الزعامة الثقافية ، حيث أصبحت لغتهم العربية اللغة السائدة في أنحاء الجزيرة . وظلوا من الناحية السياسية يؤدون الجزية لعرب الجنوب ، واشتبكوا معهم في بعض الوقائع الحربية أججت نيران الحقد والبغضاء .

ولما ظهر الإسلام قضى على النزاع القبلي ، واستطاع الرسول أن يطهر قلوب العرب من الضغائن والأحقاد ، وتجلى ذلك بصورة واضحة في المدينة بصفة خاصة . ثم جاءت موجة الفتوحات الإسلامية وحملت كثيراً من المصريين معها إلى الشام ، واستقرت غالبيتهم في دمشق وفلسطين . ويظهر أن عوامل البغضاء كانت كاللظى في الرماد ، قابلة للاشتعال إذا ما تهيأت لها الفرص . غير أن عمر بن الخطاب لم يتح تلك الفرص أمام هذه الأحقاد لما ألقاه على عاتق العرب من أعمال الفتح الرائعة . ولكن ما أن جاء عهد الخليفة عثمان حتى وجدت البغضاء بين القبائل

(١) انقسم سكان بلاد العرب إلى قسمين رئيسيين ، هم عرب الشمال وغالبيتهم أقاموا في نجد والحجاز ، وكانت لغتهم هي العربية الفصحى ، والقسم الآخر عرب الجنوب وغالبيتهم سكنوا اليمن وعلى طول الساحل المجاور ، وكانت لغتهم السبئية أو الحميرية . وكانت السيادة دائماً لعرب الجنوب في النواحي السياسية على حين سادت لغة عرب الشمال سائر البلاد قبل الاسلام . وكانت العداوة منتشرة بين هذين القسمين ، ولم يضع حدا لها إلا ظهور الاسلام . على أن المطامع الشخصية فيما بعد أثارت العداوة القديمة ؛ وظهر التنافس بين عرب الجنوب وعرب الشمال في آخر أيام الدولة الأموية ، وكان من العوامل الهامة التي قضت على هذه الدولة .

العريية متنفساً لها ، وبدأت طلائعها جلية في إقليم الشام بين المضرين
واليميين^(١) .

وهكذا وجد معاوية تركة مثقلة لا بد من تصفيتها والاستفادة مما بها من
مميزات للقيام بمشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكانت مهمته غير سهلة ، إذ هو
من المضرين أو عرب الشمال ، على حين معظم سكان إقليم الشام القدامى من
اليميين أو عرب الجنوب . ولكن معاوية استطاع أن يذل هذه العقبة بتقربه
إلى القبائل اليمنية في الشام حتى استطاع أن يوجههم إلى حيث يريد . وخطى
خطواته الموفقة في تلك السبيل بضم قبيلة بني كلب ، التي كانت أهم وأقوى القبائل
اليمنية في الشام إذ ذاك ، إلى دائرة نفوذه .

وكانت هذه القبيلة وريثة مجد الغساسنة وأفرادها سادة إقليم الشام حتى
أصبح اسم بني كلب مرادفاً لعرب الشام . وكانت عظمتهم تستند إلى أسس
اقتصادية قوية ، إذ كانوا يملكون غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حوران
وواحة دومة الجندل وتبوك . وهيات لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية
التي تخترقها فضلاً عن الينابيع المائية الكثيرة بها^(٢) . وكان معاوية يدرك أهمية
هذه القبيلة منذ أيام الخليفة عثمان ، الذي تزوج امرأة من بينهم تدعى نائلة .

وأبدى معاوية مهارة وكياسة في إزالة التنازع التي كادت تندلع في إقليم
الشام بين قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية وبين المضرية من عرب الشمال .
إذ كان أولئك العرب اليميين بالشام ممن تأثروا بالنظم البيزنطية وتعودوا بذلك
الخضوع للنظام الذي يعتبر من أهم أركان الدول . ثم إنهم كانوا على وفاق مع
سكان الشام الأرامي الأصل ، وامتزجوا معهم في المدن الكبرى غير متخذين لهم
معسكرات خاصة يقيمون بها . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير بعد الفتح الإسلامي ،

(١) سيد أمير علوي ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(2) Lammens, Etudes sur Le règne du Calife Mo' Awia Ier . 286, 289.

إذ بينما أقام العرب الغزاة في العراق في معسكرات جديدة منفصلة عن السكان ، سار العرب النازحين حديثاً إلى الشام مع تيار الفتوحات على نهج أسلافهم القدامى وعاشوا داخل جدران المدن الشامية . ولذا كان من السهل القضاء على بوادر الشقاق القبلي بالشام ، إذ استطاع معاوية أن يجذب إليه عرب الجنوب القدامى ، الذين ألقوا طاعة الأمراء والحكام ، ولم يجدوا فارقاً في تحويل ولائهم إلى هذه الشخصية الإسلامية الجديدة^(١) .

وتوج معاوية جهوده في هذا الميدان بمحاكاة سلفه عثمان بن عفان ، إذ صاهر قبيلة بني كلب ليضمن له شيعة وأنصاراً ويحقق لنفسه استقراراً وأمناً . فتزوج بابنة أحد سادة قبيلة بني كلب وتدعى ميسون ، وكانت من بيت عريق يقيم بالقرب من تدمر . وفضلاً عن ذلك كانت غالبية منازل هذه القبيلة لا تبعد عن دمشق ، مقر معاوية ، سوى بضعة أميال . وكان والد ميسون ويدعى بحدل ممن نال مكانة عالية في الشام بعد الفتح الإسلامي ، إذ منحه المسلمون إقطاعاً من الأرض في دمشق ، مما يدل على الخدمات التي أداها للمسلمين في فتوحاتهم في الشام^(٢) .

وجنى معاوية ثمار جهوده في تنظيم قبائل الشام وضمها إلى صفوفه ، إذ غدا اليمينيون يكونون غالبية الجيش الشامي وعدة معاوية في حملاته ضد البيزنطيين ، ورددوا له دائماً قولهم أنهم رهن مشيئته وطوع إرادته . وساهم اليمينيون كذلك بشكل رائع في الحملات البحرية ، حيث فضل معاوية الاعتماد عليهم في الميدان البحري ، وتعبئة أساطيله منهم للقيام بالجهاد في هذه الجبهة التي تتطلب إخلاصاً تاماً . وأثبت اليمينيون أنهم جديرون بثقة معاوية حيث امتازت حملاتهم البحرية على البيزنطيين بالعنف والشدة^(٣) . ولم يتردد معاوية في إجزال العطاء للجنود

(1) Wellhausen, op cit, 131, 133 :

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب العربية ، ص ١٤٨ ، ١٤٩

(2) Lammens, op cit, 286.

(3) Lammens, op cit, 52, 53.

اليمنيين ، فكان الكلابيون منهم يأتون في المرتبة التالية للسفليانيين في العطاء ، ونال ألفان منهم شرف العطاء ، لكل فرد ألف درهم من الخيالة . ومنحهم الخليفة حق تنظيم شؤونهم المحلية دون تدخل من الحكومة المركزية^(١) .

وأكمل معاوية هذا العمل بمراقبة شيعته من بني أمية ، فعاملهم بحذر وتبصر وحكمة ، حتى لا يصبحوا موضع خطر عليه في يوم من الأيام . ونجح في هذه المهمة أيضاً لأنه أخفى عن نفسه مظاهر الطاغية في حكم أتباعه ، وإنما عاملهم كسيد من سادة القبائل القديمة ، يعقد اجتماعات لهم بعد صلاة الجمعة في المسجد ويباحثهم في شؤونهم ، كما عقد لهم أشباه هذه المجالس في القصر واستقبل وفودهم التي تأتي من سائر الأمصار ، ويصغى إلى شكائاتهم^(٢) .

واهتم معاوية بالنواحي الاقتصادية لإقليم الشام ، ليستطيع الانفاق منها على مشاريعه الحربية ضد البيزنطيين . وكان هذا الاهتمام موضع عنايته منذ أن انفرد يشئون الشام . إذ كتب إلى الخليفة عثمان بن عفان يطلب منه الحصول على أراضي وضيعات الشام التي يذهب ريعها إلى بيت المال في مكة نظراً للحملات الحربية الواسعة التي يشنها ضد البيزنطيين ، فضلاً عما يتطلبه من نفقات لاستقبال سفراء الدولة البيزنطية ، وتدير مصاريف البعثات التي يوفدها إلى القسطنطينية^(٣) . وأجاب الخليفة إلى طلبه^(٤) ، مما جعل معاوية يضع الحجر

(1) Kremer, Orient under the Caliphs, 319

(٢) كارل بركلان ، نفس المرجع ، ص ١٤٩ .

(3) Kremer, op cit, 125.

(٤) كانت الأرض التي طالب بها معاوية تابعة في الأصل للأنباط الذين دخلوا في الولاء للدولة البيزنطية . ولما هزم البيزنطيون هرب عدد من بطارقة الأنباط وهجروا مزارعهم ، على حين قتل كثير منهم أيضاً في حملات المسلمين على الشام . فصارت مزارعهم وقراهم تابعة للسلطات المركزية الإسلامية مباشرة ، « ولم تنزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال ، فيخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أن الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائها ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . وصف في كتابه هذه المزارع الصافية =

الأول في بناء اقتصاديات الشام والاستقلال بمرافقه الاقتصادية ليوجهها حسبما يشاء في النواحي الخيرية .

وانتقل معاوية من تنظيم الشام وأهله ومرافقه إلى إعداد الهيئة المباشرة التي تقوم بتنفيذ مشاريعه الخيرية ضد البيزنطيين . وكانت هذه الهيئة من شيعته الخالصين له وغدت ساعده الأيمن في أداء كل ما يريد . وكان اختيار معاوية لهذه الطبقة من الرجال اختياراً سليماً دل على صدق فراسته وحسن مواهبه . ذلك أن اشتغال معاوية بعد إسلامه مع الرسول الكريم جعله يدرس عن كثب الشخصيات التي كتب له التاريخ أن يتصل بها فيما بعد سواء في ميدان المحبة والصدقة أو العداوة والبغضاء . إذ كان كثير من الشخصيات التي ناهضت معاوية فيما بعد ، وكذلك التي استطاع أن يجذبها إلى جانبه ، من صحابة الرسول ومن التفت حوله واضطلعت بأداء مشاريعه .

وكان للبيئة التي نشأ فيها معاوية أيضاً أثر كبير في اختيار معاوية ، فهو ابن أبي سفيان زعيم مكة وأعظم شخصياتها حنكة وتجربة ، وأوسعها اتصالاً بالبيوتات الكبرى في مدن الحجاز ومع القبائل العربية بها كذلك ، إذ استلزمته أعماله التجارية توسيع دائرة اتصالاته ودراسته مع من يتعامل معهم ، ومعرفة كل واحد منهم معرفة دقيقة لا ايس فيها ولا غموض . فتلقن معاوية على يد هذا الرجل العظيم أصول الحكم وإدارته كما يفهمه أهل مكة ، ووفق وجهة النظر التي رآها أبوه ، من حيث تكوين الانصار والأشباع واصطناع الرجال والعمال .

وهكذا أخذ معاوية يقلب النظر في صفحات رجال الحجاز ومدنها لينتقى منهم من هو جدير بثقته ، وحرى بالنهوض بمشاريعه التي تعينه على تأمين دولة

= وسماها له ، وسأله أن يتطعمه إياها ليقوى بها على ما وصف له . فكتب إليه عثمان بذلك كتاباً ولم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر ، فأقرها على حالها :
أنظر ابن عساکر ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

الإسلام وتقليم أظافر أعدائه البيزنطيين . فأخذ من أبناء مدينة الطائف^(١) بعض رجالها الممتازين . وكان أبناء ثقيف أشهر أهالي هذه المدينة التي اعتبرها بحار قريش توأم مكة في البهاء والعظمة ، كما نظر إليها المسلمون على قدم المساواة مع مكة والمدينة بعد انتشار الإسلام في أرجاء بلاد العرب . وكان لقريش إتصال وثيق مع بني ثقيف قبل الإسلام ، وعرفوا فيهم الذكاء اللامح والنشاط الوافر ، فضلا عما كان لقريش من أملاك بالطائف جعلتهم أشد اتصالا ومعرفة بحقيقة سكانها والتميز بين طبقاتها . ونبغ من بني ثقيف على عهد معاوية شخصية المغيرة بن شعبه وزيد بن أبيه^(٢) ، وكانت لهما جهود موفقة في تأمين سلامة الدولة في الداخل ، وتهيئة الجو لمعاوية للتفرغ إلى مشاريعه الخارجية .

وظهر من شيعة معاوية في ميدان العمليات الحربية ضد البيزنطيين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وحبيب بن مسلمة ، وبصر بن أبي أرطاه ، والضحاك بن قيس ، وأبو الأعور السلمي ، وشرحبيل بن الصامت الكندي . وكان الأربعة الأول من أصل مكى ، أما أبو الأعور فمن القيسية أو عرب الشمال الذين يمت لهم معاوية بصلة القربى . وفضلا عن ذلك كان والد أبو الأعور من الشخصيات التي حاربت إلى جانب أبي سفيان في معركة أحد ومن المؤيدين لبني أمية ، مما جعل ابنه موضع عناية معاوية ورعايته^(٣) ، ولم تكن الحباوة وحدها هي الأساس الأهم والأوحد في انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم ، وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ، ولا سيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام^(٤) .

(١) تقع مدينة الطائف على ارتفاع كبير من الأرض يبلغ ستة آلاف قدم ، وكثرت فيها الأشجار الظليلة حتى وصفت بأنها قطعة من أرض الشام ؛ وكانت مصيف الطبقة الارستقراطية من أهل مكة . واشتهرت بالورود ذات العطر والتي استمد منها أهل مكة ما احتاجوا اليه من طيب . وكثرت بالطائف الكروم والتين والزيتون ، وكان نبيلها رائجا وبقيل عليه سكان مكة .

(2) Wellhausen, op cit, 113.

(3) Lammens, op cit, 42, 43.

(4) Ibid, 44.

وتبين هذه السياسة حرص معاوية علي اختيار ذوى التجارب الواسعة ،
أو ممن لهم مطامح يمكن استغلالهم عن طريقها لتدعيم نفوذه في الشام ، ثم متابعة
مشاريعه ضد البيزنطيين . وكان ممن يمثل هذه الظاهرة عبد الرحمن بن خالد
بن الوليد ، إذ هو ابن تلك الشخصية التي عزلها الخليفة عمر ، ورأى معاوية أن
يعيد لابن خالد بن الوليد شيئاً من النفوذ والسلطان . وأدى ذلك إلى ظهور طبقة
جديدة من الرجال « Homines novi » ساروا في ركاب معاوية وتفانوا في
نصرة قضيته وتحقيق أهدافه . ولذا أعدت هذه الطبقة الجديدة من الرجال تتكون
من أبناء الطبقة الوسطى من قریش ، الذين لا يخشى معاوية منهم بأساً
أوضراً^(١) ، إذ آثر معاوية الابتعاد عن أقاربه ذوى المطامع الواسعة ووضعهم
تحت مراقبته ، ولكن أغرقهم بالعطايا والمنح ليضمن ولائهم وهدوئهم .

وأتت سياسة معاوية فوزاً محققاً ، فكان أولئك الرجال الذين اعتمد عليهم
في الدفاع عن أرض الإسلام وحماتها ممن يلهون بشئون الشام ويعرفون أحواله
معرفة جيدة . إذ وفدوا جميعاً إلى الشام مع الجيوش الإسلامية الأولى وهم في ريعان
الشباب باستثناء شرحبيل . وبدأ كثير منهم حياته العامة الأولى تحت إمرة يزيد
ابن أبي سفيان ، الذي كان معاوية على مقدمة جيوشه . ثم انتقلوا إلى التبعية
لمعاوية بعد وفاة أخيه يزيد ، واحتفظ بهم معاوية دون أى تغيير حيث كانوا أداة
مدرّبة صالحة للنهوض بأعباء مشاريعه . وأثبت معاوية بذلك أنه خير سلالة
بني أمية وأجدرهم على تنفيذ سياستهم المرسومة في الاحتفاظ بالأعوان والأنصار
ومتابعة هذه السياسة على أحسن الوجوه^(٢) .

وتفانى أولئك القادة في الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين ،
فاشتهر حبيب بن مسلمة بحملاته المظفرة البرية في أرض الجزيرة وأرمينيا وقبادوقيا

(1) Lammen's, op cit, 43.

(2) Ibid. 44, 45.

بأسيما الصغرى، ، على حين اشتهر بصر بن أبي أرطاه في ميدان المعارك والغزوات البحرية في البحر الأبيض المتوسط . وتجلي صدق وإخلاص هؤلاء القادة حين نشبت الحرب الأهلية بين علي ومعاوية ، إذ وقفوا إلى جانب معاوية وآزره في نضاله . فحارب حبيب إلى جانب معاوية في معركة صفين ، وسار أبو الأعور لمساعدة عمرو بن العاص في استرداد مصر من عامل علي بن أبي طالب عليها ، على حين توجه بصر بن أبي أرطاه إلى بلاد الحجاز لإعادتها إلى التبعية لمعاوية ^(١) .

وبذلك تعاون أتباع معاوية على كسب النصر له في الحرب الأهلية بينه وبين علي ، على حين أتم بعض معاونيه الأخر ، وهم المغيرة بن شعبه وزياد بن أبيه ، تدعيم هذا النصر فيما بعد . إذ كانت الجبهة الشرقية من دولة معاوية تتطلب عناية خاصة من حيث نوع الولاة الذين يديرون شئونها ليقترح لحروبه ضد البيزنطيين على الجبهة الغربية . فكان علي أولئك الولاة تثبيت سلطان الأمويين بين أهل العراق الذين كانوا دائماً يرفعون راية العصيان ضدهم ، ويأنفون من الدخول في التبعية لأهل الشام . فعين معاوية المغيرة بن شعبه وهو أحد رجال الطائف من بني ثقيف المخلصين علي الكوفة ، وأدى هذا الولاى مهمته خير أداء ، إذ أخذ يفسد بدهائه البارع العلاقات بين الخوارج وبين الشيعة أتباع علي بن أبي طالب وشغلهم بذلك عن مناوأة معاوية ومعارضته ^(٢) .

وقام معاوية بعمل آخر رائع أكتسب به شخصية أخرى عظيمة من أبناء الطائف وهو زياد . وكان هذا الشخص ممن يحيط بأصله الغموض ، فاستقدمه إلى دمشق واعترف به إبناً غير شرعى لأبي سفيان ، ورفع له إلى مصاف إخوته . ومنذ ذلك الحين تفانى زياد في خدمة البيت الأموى وإعلاء شأنه . فولاه معاوية على البصرة ، واستطاع أن يخمّد الفتن والفتائل بها بعد أن كان لا يهدأ

(١) Lammens, op cit, 48, 49.

(٢) كارل بركلان ، نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

لها قرار . وعندما توفي المغيرة سنة ٦٧٠ م صار زياد والياً على البصرة والكوفة كذلك ، وتابع سياسته في إخماد الفتن بالعراق وقضى عليها تماماً ، إذ حل منظمات المقاتلين القبيلة القديمة العهد بهذه البلاد وأعاد تنظيمها على أسس جديدة . فقسم الجند بالعراق إلى أربعة أقسام ، جعل على رأس كل قسم منها رجلاً من الموالين للميت الأموي ومن يستطيع كبح جماح أولئك الجند^(١) .

وغدا زياد يحكم من البصرة نصف الامبراطورية الإسلامية وأمن جانبها وجعل الهدوء يسود أرجائها ، مما مكن معاوية من استئناف جهاده ضد البيزنطيين . فتابع شيعة معاوية الأغارات على أراضي الدولة البيزنطية ، وخطوا بجهادهم « كتاب مغازي معاوية » . وبلغ من تفانيهم أن أطلقت عليهم أسماء التكريم والفخر ، فلقب حبيب بن مسلمة « بحبيب الروم » لإغاراته الموقفة على أرض الروم ، أي البيزنطيين^(٢) ، على حين أخذ عبد الرحمن بن خالد يغير سنوياً على تخوم الدولة البيزنطية ويوقع بجندها الهزائم الفادحة . أما بصير بن أبي أرطاه فقاد أسطول معاوية الناشئ وسجل به تاريخ المسلمين البحري المبكر على صفحات البحر الأبيض المتوسط ، بما يرفع من شأنهم ويثبت جدارتهم وبسالتهم في العمليات الحربية في هذا الميدان الجديد .

وكانت آية تفاني أولئك القادة في جهادهم ضد البيزنطيين شخصية أمير البحر على عهد معاوية ، ويدعى عبد الله بن قيس الحارثي من بني فزارة . إذ قام هذا القائد بخمسين غزوة بحرية صيفاً وشتاءً دون وجل ولا خوف . فكان يذهب ليستطلع أماكن البيزنطيين ويدرس طرق مفاجاتهم ، وإنزال الهزائم بهم . وقد دفع حياته ثمناً جرأته في آخر الأمر ، مسجلاً بذلك أروع الآيات على تفاني عمال معاوية في الجهاد من أجل إعزاز الإسلام ضد البيزنطيين . ولقي عبد الله بن قيس حتفه حين خرج في أحد قوارب الاستطلاع لدراسة أحد موانئ البيزنطيين . وكان مختفياً في زى أحد التجار ، ونزل على المرفأ دون

(١) كارل بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(2) Encyc. of Islam (art Habib).

أن يتنبه إليه أحد . ولكن محض الصدفة كشفت أمره ، إذ حدث أن كان علي الميناء بعض الشحاذين ، وتقدمت منهم امرأة تستجدي منه صدقة ، فأعطها وأجزل لها العطاء مما أثار ريبها واستلقت نظرها . فهولت إلى حراس الميناء ، وقالت لهم إن عبد الله بن قيس بالميناء ، مما يدل على شدة بأسه وسطوته وأنه كان موضع حديث سكان الموانئ البيزنطية . فأسرع الجند إلى الميناء وهاجموا عبد الله على حين هرب الملاح المرافق له وجرى إلى المركب وأخبر أصحابه بما حدث . وكان سفيان بن عوف الأزدي خليفة عبد الله على المركب ، فجهد في مناوشة الجند ليثقلهم ويحملهم على إطلاق سراح عبد الله ، ولكن لم يستطع إنجاز ذلك العمل وعاد إلى قواعده بعد قتل عبد الله بن قيس . ويروى أن المرأة المستجدية سئلت بعد ذلك عن الطريقة التي عرفت بها شخصية القائد الإسلامي فقالت : إنه كان كالتاجر فلم أعرف عنه شيئاً في مبدأ الأمر ، ولكن حين سألته أعطاني كما يهب الملوك فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(١) .

وهكذا استطاع معاوية أن يجعل من شيعته جنداً مخلصين ورجالا صناديد ، لا يعرفون غير الشام ووطناً لهم ، يزودون عن حياضه بأنفسهم في غير تردد ولا وجل . وكان أحب لقب يصدق عليهم هو أنهم من أهل الشام ، فأطلق معاوية على بصر بن أبي أرطاه « سيد أهل الشام »^(٢) ، وغدوا ممن ينطبق عليهم لقبهم للدفاع عن الشام ضد البيزنطيين ، الغزاة الذين تفانوا في البلد المفتوح « Graecia capta ferum victorem capit »^(٣) .

وكان من حسن طالع الدولة الإسلامية أن يتم معاوية تدعيم مركزه بالشام وينتهي من استعداداته في وقت قد أفاقت فيه الدولة البيزنطية على عهد الأباطورين قنسطانز الثاني وابنه قنسطنطين الرابع ، وجهدت في استرداد أملاكها من المسلمين وإيقاف تيار فتوحاتهم

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

(3) Lammens, op cit, 56.

الصهوة البيزنطية على عهد قنسطانز الثاني وقنسطنطين الرابع :

في الفترة التي جهد فيها معاوية على تنظيم بلاد الشام وتعبئة مواردها للجهاد واصطناع الأشياع والعمال ، كانت الدولة البيزنطية تشهد فترة مماثلة حاولت السلطات فيها أن تلم شعنها وتضم صفوفها وتفيق من عثرتها التي أوقعتها فيها الفتوحات الإسلامية . وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستهدفون إعادة ما فقدوه من أملاك أخذها منهم المسلمون ، دون أن تحذتهم أنفسهم بصعوبة تحقيق هذه المشاريع ، ودون أن يدركوا ما عليه المسلمون من قوة وبأس وأنهم يختلفون تمام الاختلاف عن سائر القوى التي احتكوا بها قبل ظهور الإسلام .

وكانت الدولة البيزنطية بأباطرتها تستلهم وحى ماضيها في استطاعتها الفوز على المسلمين ، وأن في قدرتها أن تقال من عثرتها وتستعيد سالف هيبتها . فالتاريخ البيزنطي يمتلئ بسلسلة متصلة الحلقات من الهزائم القاصمة والفوضى المريرة وبأخرى زاخرة بالانتصارات الرائعة والاستقرار التام ، مما جعل أهالي الدولة البيزنطية يشعرون بوجود عامل دائم يهيئ لدولتهم عمراً طويلاً رغم ما يحيط بها من أعاصير وأنواء . وكان هذا العامل قدرة الدولة البيزنطية على أن ترفع إلى عرشها في فترات الأزمات والشدائد أباطرة أصحاب مواهب عالية ، يأخذون بيدها ، ويجنبونها العثرات والفناء ، ثم ينهضون بها إلى مستواها الرفيع مرة أخرى .

وتجلت هذه الحقيقة قبل ظهور الإسلام مباشرة ، إذ اكتسح الفرس الساسانيون أراضي الدولة البيزنطية وهددوا عاصمتها نفسها بالدمار . ولكن انبلجت هذه الكارثة عن ظهور شخصية الامبراطور هرقل على عرش الدولة البيزنطية (٦١٠م) ، واستطاع أن يقود سفينتها في حذق ومهارة ، وطرد الفرس وحول انتصاراتهم إلى هزائم فادحة ، واسترد مرة أخرى ممتلكاته من أيديهم .

ولكن ما كاد الامبراطور البيزنطى يعود إلى عاصمته حتى أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تكتسح أرض الشام ، وأنزلت بجيوشه من ألوان الهزائم ما جعله يودع سوريا نهائياً قائلاً « عليك يا سوريا السلام ، ونعم هذا البلد للعدو »^(١) .

وكان هذا الوداع البيزنطى وداعاً حقيقياً فى تلك المرة لا رجعة فيه ، رغم تشبث الامبراطور ودولته بالتملق بأى معقل يمكن أن يعرقل حركة التقدم الإسلامى ، ويساعده على طرد المساميين مرة أخرى ، ويعيد بذلك قصة الحروب الفارسية . وتجلى هذا الأمل فى دفاع البيزنطيين عن مدينة قيصرية التى حاصرها معاوية مدى طويلاً ، إذ تولى المقاومة فى هذه المدينة قنسطنطين ابن الامبراطور هرقل نفسه . ولم تسلم المدينة إلا حين اضطر قنسطنطين إلى الهرب والعودة إلى العاصمة لاضطراب الأحوال فيها فى أواخر حياة أبيه . فدب الوهن فى حامية المدينة وسلمت آخر الأمر لمعاوية وقواته^(٢) .

عاد قنسطنطين إلى العاصمة تاركاً وراءه إقليم الشام نهائياً فى قبضة معاوية ، الذى أخذ يعد له لمسا عسى أن تقوم به الدولة البيزنطية من محاولات لاسترداد هذا القطر الهام . وكان معاوية صادقاً فى فراسته وآرائه ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعمل جاهدة إذ ذاك على التخلص مما حل بها من اضطراب ، وتسلم أعنتها لشخصية جديرة بتصرف شئونها وتبعد عنها تيار الزحف الإسلامى . فمذرجع قنسطنطين إلى عاصمة بلاده ألقى الفوضى متفشية فى إدارتها ، بسبب تدخل مارتينا زوجة أبيه هرقل فى شئون الدولة . فكانت هذه المرأة الجميلة الشابة تعمل على إقصاء ذوى الخطر عليها من القادة ، وتمهد الجولابنها هرقلوناس ليقولى عرش الدولة . وساعد مارتينا على تنفيذ مآربها أن كثيراً من القادة البيزنطيين عادوا منهزمين من الميدان الشامى ، فاتهمتهم بالتقصير والعجز وأطاحت بالكبار منهم .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٤٣ .

(٢) سيد أمير على : موجز تاريخ العرب ، ص ٣٧ .

وتمكنت الامبراطورة أن تحصل من هرقل على وصية تنص على أن
تتولى هي ومعها ابنها هرقلوناس العرش ، بالاشتراك مع ابنه قنسطنطين الثالث .
وكانت تبغى من وراء ذلك التمكين لابنها الصغير وإعداده للحكم . غير أن
الشعب البيزنطى أبى أن يشترك فى حكمه امرأة ، وكان يبعض هذه الامبراطورة
الوصية بالذات ، وانقسم على نفسه فى هذا الصدد قسمين ، أحدهما يعادى الامبراطورة
وابنها ، ويطلب أن يفرد قنسطنطين الثالث بالحكم ، على حين نادى حزب
آخر بمناصرة مارتينا وابنها . ولكن تغيرت الأحداث فجأة فى هذه الظروف ،
إذ توفى قنسطنطين الثالث بعد أن حكم ثلاثة أشهر ونصف شهر . فشاع الاعتقاد
بين الناس أن مارتينا دست له السم ليخلوها الجو . وترتب على هذه الشائعات
أن نهض الجيش للدفاع عن حقوق قنسطنطين المتوفى ، وطالب بتنصيب ابنة
على العرش الامبراطورى مكان أبيه . وانتهى الأمر بتولية هذا الابن العرش
إلى جانب مارتينا وابنها ، وأطلق عليه الشعب اعتزازاً اسم قنسطانز . ولم تلبث
الحركة الشعبية أن تطورت وعزلت مارتينا وابنها هرقلوناس ، وعاقبهما الثوار
بقطع لسان الأم ، وجذع أنف الابن ، ونادوا بقنسطانز الثانى امبراطوراً بمفرده
سنة ٦٤٢ م ، وكان عمره إذ ذاك أحد عشر عاماً .^(١)

وباعتلاء قنسطانز العرش وحده تغلبت الدولة البيزنطية على أزمة حادة قبل
مضى السنة التى توفى فيها الامبراطور هرقل نفسه ، وتطلعت إلى حفيده ليعيد لها
مجدها السالف ضد المسلمين . وكان للوسط الذى نشأ فيه قنسطانز أثر كبير
فى السياسة التى اختطها لتصرف شؤون دولته والدفاع عنها . إذ جعلت منه
الدسائس والمؤامرات التى أحاطت به فى أولى أيام حياته رجلاً نشطاً يقظاً محباً
للاعتدال على نفسه ، وبدأت تظهر ما انطوت عليه نفسه من صفات حين أصبح
رشيداً قادراً على إدارة دفة الشؤون العامة . فرأى أولاً ضرورة تطهير الدولة

(1) Bury : A History of the Later Roman Empire, II 281 287.

مما علق بها من أدران الحوادث السابقة ، قبل الاتجاه نحو المسلمين الذين زلزلوا دعائم دولته .

- بدأ قنسطانز بالقضاء على عناصر القلق والاضطراب في دولته ، وكانت مستوطنة إذ ذاك في إقليم آسيا الصغرى ، إذ غدا مقر الثائرين على الأباطرة البيزنطيين ومركز تجمع المناوئين لسلطانهم . فكانت بعض القوات البيزنطية بآسيا الصغرى خارجة عن طاعة قنسطانز بسبب تحريض بعض الحاقدين على هذا الإمبراطور من رجال العهد الماضي . وتطور الأمر بأن شق الجند عصا الطاعة ، وتحول تمردهم إلى ثورة سافرة على الإمبراطور قنسطانز . ولسكن هذا الإمبراطور قابل الثوار ببأس وعزيمة قوية ، وبرهن على ما تمتع به من حزم وجدل حين حاصر مناطق القوات الثائرة سنة ٦٤٥ م ، وضيق عليها الخناق حتى سلمت ، ودخلت صاغرة في التبعية والطاعة مرة أخرى لسلطانه ونفوذته^(١) .

وأتمتع قنسطانز سياسته الداخلية بحل بعض المشاكل الخارجية ليتفرغ نهائياً للمسلمين . ولكن لم يستطع أن يفرغ منها تماماً ، واضطر إلى توزيع جهوده بينها وبين محاربة المسلمين ، حتى لقي حتفه أخيراً وهو منهوك القوى مشتت الأفكار . وكانت أولى هذه المشاكل جماعات السلاف التي كانت قد استقرت في بلاد البلقان منذ أيام الإمبراطور هرقل ، وأخذت تعمل على الانتشار في سائر أرجاء الدولة البيزنطية وممتلكاتها بأوروبا . وكانت هذه الجماعات قد استقرت من قبل في بلاد البلقان على أساس التبعية للدولة البيزنطية والتعهد لها بأداء ما يطلب منها من خدمات ، وهو ما يسمى بقاعدة « المعاهدين »^(٢) . ولكن لم تلبث هذه العناصر أن عملت على السيطرة على المدن الساحلية ببلاد اليونان ، ثم صنعت أساطيل

(1) Bury, op cit 287.

(٢) كلمة المعاهدين من معاهدة باللاتينية « foedus » إذ كانت الدولة البيزنطية تعقد معاهدات مع العناصر التي ترغب في النزول بممتلكاتها مقابل تعهدتها بتنفيذ ما تطلبه الدولة منها .

لها وأخذت تغير بها علي سائر الجزر اليونانية ببحر إيجه . ووصلت طلائعها حتى
الفسفور،^(١) وهددت العاصمة البيزنطية نفسها .

وخشى الامبراطور قنسطانز ترك هذه العناصر وشأنها ، وعول على إخضاعها
قبل أن يستفحل خطرها ، وما قد ينجم عن ذلك من اتفاق إغاراتهم مع هجمات
المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية . وكانت بعض العناصر السلافية قد حاولت
فعلا الوصول إلى آسيا الصغرى ، والانضمام إلى جانب القوات الإسلامية التي
كانت تستعد على أطراف هذه البلاد الجنوبية للقضاء على الدولة البيزنطية .
ونجح قنسطانز في القيام بحملة تأديبية ، أعادت السلاف بشبه جزيرة البلقان إلى
الولاء للدولة البيزنطية وتأدية ما كان مقرراً عليهم من التزامات ، كما حملهم على
التخلي عن الإغارة على المدن الساحلية ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى عقاباً لهم.^(٢)

وما أن فرغ قنسطانز من خطر السلاف حتى انعكس في مشكلة دينية مع
الابا في روما ، الذي كان يختلف مع بطريق القسطنطينية حول العقيدة الخاصة
بطبيعة المسيح . ومهما يكن من أصول الجدل الديني في هذه المشكلة ، فإن
الامبراطور كان صديقا لبطريق القسطنطينية ، وعول على إنهاء هذه المشكلة كيفما
كانت الوسيلة ليتجه إلى المسلمين ، الذين أخذت طلائع حملاتهم البرية والبحرية
تحت قيادة معاوية تهاجم أراضي دولته . فألقى الامبراطور القبض على الابا وسجنه ،
ثم نفاه أخيراً خارج إيطاليا^(٣) .

وظلت ذيول هذه المشكلة قائمة^(٤) بعد أن أحس قنسطانز أنه فرغ تماماً من
مشاكله الداخلية والخارجية الخاصة بامتلاكاته في أوروبا . ولكنه أقبل بعد ذلك

(1) Bury : op cit. 280

(2) I bid 292,

(3) I bid, 294, 295

(٤) انظر نتائج ذلك العمل في الفصل الخاص بشمال إفريقيا كذلك .

على محاربة المسلمين براً وبحراً ، وكله أمل أن يعيد قصة جده هرقل مع الفرس .
غير أنه غاب عن قنسطانز أن المسلمين من معدن آخر غير معدن الفرس ، وأن
معاوية بن أبي سفيان والى الشام قد أخذ تمام أهفته واستعداده لصد أي عدوان
بيزنطي . فخرج الامبراطور قنسطانز من اصطدامه مع معاوية بدرس جديد
جعل الدولة البيزنطية تتخلى عن مشاريعها وأحلامها القديمة في استرداد بلاد
الشام وغيرها من أملاكها التي استولى عليها المسلمون ، وتدرك أن الملابسات
والأوضاع الزمنية قد تغيرت ، وغدت السياسة والأمر الواقع يحتمان ضرورة المحافظة
على البقية الباقية من أملاك الدولة المعرضة لتيثار الزحف الإسلامي .

وجاءت هذه السياسة الجديدة بثمار طيبة للدولة البيزنطية وإن كان
الامبراطور قنسطانز قد دفع حياته ثمناً لها . إذ اتجه بعد فشله في استرداد الشام إلى
جزيرة صقلية ليتخذها مقراً له بعيداً عن هجمات المسلمين ، ومركزاً يتوسط
كلاً من إيطاليا وشمال إفريقيا البيزنطية ، ويدفع منه الزحف الإسلامي على ما تبقى
لدولته من أراضى . ولكن لقي الامبراطور حتفه حين وصل مدينة سيراكوز
بصقلية سنة ٦٦٨ م ، إذ آتت عوامل البغضاء التي بذورها في إيطاليا ثمارها
حين دخل مدينة سيراكوز ، حيث قتله شخص من خدمه يدعى أندرياس
(Andreas) ، وهو بالحمام . ثم نودي بشخص يدعى ميزيزيوس (Mizizios)
امبراطوراً ؛ اختاره الناس امبراطوراً بصقلية لوسامته وأناقته .^(١)

ولم تدم هذه المؤامرة طويلاً ، إذ جاء قنسطنطين بن قنسطانز إلى صقلية
سريعاً وقبض على القاتل والامبراطور المزعوم وأعدمهما ، وكذلك أنزل العقاب
بغيرها من عليمة القوم الذين ثبتت عليهم تهمة التحريض على اغتيال أبيه قنسطانز .
ثم عاد إلى القسطنطينية متعباً ، مرخياً لحيته حتى أطلق عليه الناس قسطنطين ذا

(1) Bury, op cit, 302, 303.

اللحية « Pogonatos » . وقبل أن يبدأ بتنفيذ سياسة أبيه الجديدة التي وصل إليها بعد فشله في محاربة معاوية ، واجه ثورة جنود الأناضول ، الذين ادعوا لأنفسهم حق الدفاع عن سائر أولاد قنسطانز الآخر ، وطالبوا بتنصيبهم إلى جانب قنسطنطين على العرش . ولكن قنسطنطين استطاع بدهائه أن يخمد هذه الثورة ، حيث تظاهر بقبول مطالب الجنود وأعادهم إلى أماكنهم ، ثم قبض على زعماء الثورة من القادة وجدع أنوفهم ، معلنا نفسه امبراطورا تحت إسم قنسطنطين الرابع .^(١) وبذلك حقق لامبراطوريته الاستقرار الداخلي وأعدّها لمقاومة حملات معاوية التي هدفت إلى الاستيلاء على عاصمته القسطنطينية .

وأتم قنسطنطين تأمين دولته قبل الهجوم الإسلامي عليها بإكمال سياسة أبيه إزاء عناصر السلاف وغيرها من العناصر الضاربة في شبه جزيرة البلقان ، إذ كانت هذه المنطقة دائماً موضع قلق واضطراب ، تتميز عناصرها الفرص المواتية وانشغال الدولة البيزنطية بحروبها مع المسلمين لتخرج على طاعة الحكام البيزنطيين رغبة في التمكن لنفسها في هذه الأرض اليونانية . فكان السلاف يكونون غالبية سكان شبه جزيرة البلقان باستثناء المدن الساحلية ولكنهم افتقروا إلى الترابط والتعاون ، إذ كانوا يقيمون حياة متنقلة لا هدف لها . غير أنه ظهر على عهد قنسطنطين عناصر أخرى جديدة على أطراف شبه جزيرة البلقان من الناحية الشمالية جهدت على توحيد هذه العناصر السلافية ، وتأسيس دولة لها البلقان . وكانت هذه العناصر الجديدة هي جماعات البلغار الذين ملأوا فيما بعد صفحات التاريخ البيزنطي بأحداث العداة والحروب المتكررة . على أن الامبراطور قنسطنطين الرابع أسرع إلى تأديب هذه العناصر الجديدة وأبعد شبحها عن أراضي دولته^(٢) ، وأنهى بذلك ما كان يضطرب به جوف بلاده من قلق

(1) Bury, op cit, 303, 308 309 .

(2) Ibid, 331 332.

وعدم استقرار ، ثم ولى جهوده شطر المسلمين .
ولذا ما أن وصلت حملات معاوية إلى أسوار القسطنطينية حتى كان
الأمبراطور البيزنطي قد كرس كل جهوده للدفاع عن عاصمته والاستماتة في المحافظة
عليها . واستطاعت الدولة البيزنطية أن تضمن لنفسها البقاء ، على نحو ما نجح
إليه معاوية من قبل في الدفاع عن إقليم الشام ، وإنزاله بالبيزنطيين من ألوان
الهزائم ما جعلهم يعترفون بدولة الإسلام الناشئة ومكانتها في حوض البحر
الأبيض المتوسط .

معاوية والبيزنطيون في شرق البحر الأبيض المتوسط

سياسة معاوية البحرية :

باستيلاء المسلمين على الشام ومصر فتحت صفحة جديدة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، دون سطورها الأولى معاوية بن أبي سفيان بمداد الجهاد ، وملاها بأخبار عظمة المسلمين ونشاطهم الرائع في ميدان العمليات البحرية . ويعتبر معاوية صاحب الفضل الأول في رسم سياسة المسلمين إزاء البحر الأبيض المتوسط منذ زمن مبكر ، وحلّ المشكلة البحرية التي اعترضتهم منذ فتوحاتهم الأولى في الحوض الشرقي من ذلك البحر . إذ أطل المسلمون على مياه البحر الأبيض المتوسط من شواطئ طويلة ، تمتد من طرسوس شمالاً إلى برقة جنوباً ، وتواجه في هذه المياه أعداء ألداء ، دأبوا على الأغارة على هذه الشواطئ الإسلامية وقض مضاجعهم بها .

أدرك معاوية بثاقب نظره المقومات الضرورية اللازمة لبقاء المسلمين في حوض هذا البحر ، والاحتفاظ بهيبتهم بين دوله . فالبحر الأبيض المتوسط يعتبر منذ أقدم التاريخ المحور الذي دارت عليه أحداث النزاع بين قوى العالم الكبرى من أجل السيطرة والسلطان . وكان بقاء الدولة الفائزة رهناً يسيطر عليها على مياه هذا البحر وما به من مراكز استراتيجية هامة . فتطلع معاوية إلى إبعاد محالب البيزنطيين التي كانت تتحفز لتتشب مرة أخرى في شواطئ الشام . وعمد إلى الاستيلاء على الجزر القريبة من مقر ولايته ، والتي كانت قواعد للأساطيل البيزنطية ، تخرج منها لتسديد ضرباتها حينما تشاء إلى أرض المسلمين .

وضع معاوية خطة سليمة لتحقيق أهدافه البحرية ، ثم تطورت مع الزمن حتى ترك خلفائه سياسة مرسومة واضحة المعالم والأهداف . ولم تكن خطته من وحي الارتجال ، أو من محض الصدف وتقدير المقادير ، وإنما كانت ثمرة تفكير صحيح وثيد بدأت طلائعه منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب . وتعتبر فترة ولاية معاوية على الشام الحجر الأساسي في صرح العمليات البحرية الأموية فيما بعد ، وفتحة الجند البحري الإسلامي عند الإطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية لهذا البرنامج البحري الذي رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في غزو جزيرة قبرص ، مبيناً له شدة خطورة هذا المعقل البيزنطي على سلامة مدن الشام . إذ جاء في خطابه : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ، وختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر طالباً السماح له بغزو هذه الجزيرة .^(١)

ولم يكن الخليفة عمر بالشخص الذي يندفع في آراءه ، ولا سيما في مهام الأمور التي تتعلق بسلامة جند الإسلام والمسلمين . وكان عمر بن الخطاب على صواب في استشارة قادة الدولة الإسلامية على عهده في هذا الموضوع الجديد الذي أثاره معاوية . ووقع اختياره على استطلاع رأي عمر بن العاص والى مصر ، لما لهذه الولاية من شواطئ على نفس البحر الأبيض مثل بلاد الشام ، ولأنها كذلك معرضة للاغارات البحرية التي شنها البيزنطيون على سواحل المسلمين . وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً رائعاً لطبيعة البحر وركوب مياهه ، وما يلاقيه المرء في ذلك من صعاب ، فكتب إلى الخليفة : « إني رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أراغ العقول ... هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق »^(٢) .

(١) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

ولذا لم يكن عجيباً أن يؤثر عمر بن الخطاب التريث في إجابة طلب معاوية ، ولا سيما أنه رأى ألا توجد حاجة ملحة تتطلب دخول المسلمين في ميدان المغامرات البحرية ضمناً منه بسلامة المسلمين ، إذ قال لمعاوية في رده « تالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم »^(١) . ولكن معاوية لم يكن بالوالى الذى يغمض عينيه تماماً عن أى خطر يلوح في الأفق مهدداً ولايته وأرض الإسلام . فكتب إلى عمر بن الخطاب مرة أخرى يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع القوية ، إذ كانت الخطة التى اتبعت فى الفتوحات على عهد عمر هو أن المسلمين « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين ، فإن حدث فى شيء منها حدث من قبل العدو ، سربوا إليها الأمداد »^(٢) . فكان هذا الأسلوب المتمع يتطلب العناية بحالة المدن الساحلية لتصبح مهيأة لإقامة الجند الإسلامى ، وتمكنه من الدفاع عنها . ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل بما يراه كفيلاً لسلامتها من « مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على منازرها واتخاذ المواقيد لها »^(٣) .

واستغل معاوية هذا التصريح واتخذ خطوة أساسية يبنى عليها فيما بعد مشاريعه البحرية . فآثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات الحاربة ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها الجنود بجرأ إلى أى مكان يشاء . ووضع لهذه المدن نظاماً عرف بالرباط ، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءاً سرتبظاً أشد الارتباط بالجهاد أو الحرب المقدسة . إذ اجتذب

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين ، دائماً على إعزاز الإسلام ونصرتة .
ويبدو أن معاوية استعار هذا النظام من البيزنطيين ، وأدخل عليه عدة
تغيرات جعلته صالحاً لتنفيذ مشاريعه . إذ عرف البيزنطيون نظام الأديرة المسلحة
وهي الأماكن التي انقطع فيها الرهبان للعبادة واجتمعوا فيها سوياً لخدمة مطالبهم
مبتعدين عن الحياة وزخرفها الباطل . ولكن لا توجد شواهد قاطعة على اشتراك
أشباه أولئك الرهبان المقيمين في الأديرة المسلحة في العمليات الحربية التي قامت
بها الدولة البيزنطية^(١) . على أن الرباط غدا دائماً مجمع المتحمسين والغلاة المتدينين
الذين وقفوا حياتهم للزود عن حياض الإسلام ، حيث وفد إليه باستمرار المغامرون
المسامون لشدة أزر إخوانهم من الجند النظامي .

وتدرج معاوية في تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه في كل أعماله التي
اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع . فأعد الرباط لتكون حصوناً
يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لاغارات الأساطيل البيزنطية ،
ولتكون ملجأً يحتمي بها الأهالي في المناطق التي يدهمها العدو . وقد خصص
حاميات الرباط لإنذار الأهالي في المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا
ملاح خطر السفن البيزنطية في المياه الإقليمية . فكان الحصن في الرباط يضم
حجرات للجند ومساكن لهم ، ومخازن للأسلحة والمؤن ، وبرج المراقبة . ثم
لم يلبث الرباط أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن
الاجارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان ،
إذ خطا منذئذ خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية وتشجيع الناس على النزوح
إلى المناطق الساحلية لينمي عندهم ملكة ركوب البحار . وساعد معاوية على تحقيق
خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب في الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من

(1) Encyc. of Islam (art Ribat)

الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها. فترتب على ذلك ازدياد العمران بالسواحل
وانشغال الناس عليها للتمتع بامتيازات الإقامة بها ، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض
لاعتداءات السفن البيزنطية . وذلك لأن معاويه أعاد جيوشاً دائماً في المدن
الساحلية للدفاع عنها إلى جانب القوات التي تخرج للغزو والإغارات ، ودأب
على أخذ أرض من يتخلف عن الغزو وإعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل
أثناء الخروج للإغارة .^(١)

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة في سلم السياسة
البحرية الدفاعية التي رسمها معاويه قبل أن يستطيع ركوب البحر في عهد عثمان
بن عفان . إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التي أخذ ينشئ
فيها أساطيله . وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالي بعلبك
وحمص وانطاكية سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م إلى صور وعكا وغيرها من المدن بسواحل
الأردن . كذلك أصلح معاويه حصون هاتين المدينتين^(٢) ، ولا سيما عكا التي
خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص . وبسط معاويه اهتمامه إلى سائر
المدن الساحلية ، فمنح الجند أراضي أيضاً في انطرسوس ومرقية وبلنياس ، واهتم
اهتماماً خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها^(٣) . وأخيراً جدد بعض
الحصون في المدن التي خربت معاقلها القديمة ، كما فعل في مدينة جبلة ، إذ بنى
لها حصناً آخر غير حصنها القديم الذي كان من قبل مقر رهبان بيزنطيين ، أقاموا
به للعبادة^(٤) . ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها ، فعمرت الثغور البحرية
لأن « الناس انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية »^(٥) على حد قول المؤرخين
المسلمين .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤٩ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

وَجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية السابقة حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان يتصرح ببيع له غزو قبرص . إذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحري على شرط ألا يكره أحداً على ركوب البحر ، وأن يعي أساطيله من المتطوعة فقط . ولم يلق معاوية عناءً في اجتذاب الجند الذي أخذه معه في حملاته البحرية ، إذ كانت المدن الساحلية عامرة بالمغامرين وغيرهم ممن ذاقوا ثمار الإقطاعات وامتيازاتها ، وتطلعوا إلى خوض غمار الميدان البحري تحت راية معاوية ، مخلصين اسمهم في طليعة الحملات الإسلامية البحرية لتقليم أظافر البيزنطيين .

وظهر في هذه الفترة المبكرة من نشاط معاوية البحري مدى الارتباط والتعاون بين الشام ومصر في ميدان العمليات البحرية . إذ كانت مصر في تلك الفترة من ولاية معاوية على الشام تحت إمرة عبد الله بن أبي سرح ، أخى الخليفة من الرضاع . واشترك معاوية وعبدالله في الإغارات البحرية على جزر البيزنطيين في البحر الأبيض المتوسط ، وفي صد إغارات أساطيلهم ، وكانت بمصر إذ ذاك دور صناعة السفن ، وتخرج منها الأساطيل الحربية إلى قواعد الشام البحرية ، حيث جرى النظام البحري إذ ذاك على أن تتجمع السفن الإسلامية بموانئ الشام للهجوم على أراضي البيزنطيين القريبة منهم .

وحرص معاوية دائماً على تحقيق التعاون البحري بين مصر والشام ، لأنهما كانتا من قبل أهم ولايات الامبراطورية البيزنطية في ميدان النشاط البحري كذلك ، سواء أيام السلم أو الحرب . فكان التقسيم الإداري للدولة البيزنطية قبل ظهور الإسلام يجمع بين الشام ومصر في العمليات البحرية ، ويقضى بتعبئة أساطيلهما معاً لإخضاع العناصر التي تشق عصا الطاعة على السلطات البيزنطية في أي بلد من البلاد التابعة لها في حوض البحر الأبيض المتوسط . وفضلاً عن ذلك ربطت العوامل الطبيعية بين مصر والشام في الشؤون البحرية وجعلت كل

منهما لا تستغنى عن الأخوى . فمصر فقيرة في أخشابها التي تصلح لبناء السفن ، على حين تسكثر بالشام النباتات التي تزود دور صناعة مصر بما تحتاجه من أجود الأخشاب . وكانت مصر دائماً تطمع في الحصول على هذه الأخشاب ، ودفعتها حرصها في بعض العصور القديمة إلى محاولة السيطرة على الشام . ولكن في ظل الإسلام انتظمت العلاقات بينهما على أساس التعاون لما فيه نصرة أرض الإسلام ، ولا سيما أمام عدوهم المشترك من البيزنطيين .

وتجلى اهتمام معاوية ببقاء التعاون بين مصر والشام خلال الحروب الأهلية التي نشبت بينه وبين علي بن أبي طالب ، إذ صمم معاوية على إدخال مصر في دائرة نفوذه ليحمي ظهره بإقليم الشام ويشد أزره بمساعدة مصر . وظهر مدى حرصه على اكتساب مصر وانزاعها من يد أعدائه أنه عهد إلى عمرو بن العاص فاتح مصر الأول وداهية قادة المسلمين بالاستيلاء عليها مقابل الحصول على خراجها سبع سنين . وباستيلاء عمرو على مصر استطاع معاوية أن يستفيد من مصر والشام في نشاطه البحري ، حيث نظم العلاقات بينهما بما يدعم سياسته البحرية في البحر الأبيض المتوسط^(١) .

واتسعت سياسة معاوية البحرية وأخذت مظهرأجديداً بعد سنة ٤٩٩هـ/٦٦٩م . ففي هذه السنة شن البيزنطيون غارة على سواحل الشام ، وكانت من العنف والشدة بحيث جعلت معاوية يفكر في إنشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها إلى جانب دور الصناعة بمصر . وهدف من وراء ذلك إلى إيجاد أساطيل دائمة بموانئ الشام على استعداد لدفع أى هجوم بيزنطى مفاجئ ، وليخفف العبء عن

(١) كشفت أوراق البردى التي وجدت بمصر والتي يرجع تاريخها إلى ولاية قره بن شريك ، والوالى الأموى على مصر سنة ٩٠ هـ ، عن حرص الأمويين على المحافظة هذا التعاون البحري بين مصر والشام ، الذى وضع أسسه الخليفة معاوية . فكان قسم كبير من بحارة الأساطيل الإسلامية يجمع من مصر لتجارب إلى جانب أهل الشام . ولكن كان جند مصر يعودون بعد انتهاء الحملات البحرية إلى وطنهم . أنظر : Bell, Der Islam, III, 96; Papyrus 1435

أساطيل مصر . فأمر معاوية سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م أى فى نفس السنة التى حدثت فيها الإغارة البيزنطية على الشام^(١) بجمع الصناع والتجارين وإرسالهم إلى عكا ، التى وقع اختياره عليها لينشى بها أول دار لصناعة السفن بالشام . وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التى اشتهرت بصفة خاصة بصلاحياتها للمجاديف^(٢) .

وبذلك استطاع معاوية بجده ومشاربته أن يحقق ما جاش بنفسه من آمال فى إنشاء قوة بحرية إسلامية ، وأن يتغلب على عقبات وصعاب كانت كفيلة بأن تدعه يطلق مشاريعه البحرية إلى الأبد . وكان من حسن طالع دولة الإسلام أن يتعهد معاوية شئونها فى الميدان البحرى ، ويوقف أساطيله على صد عدوان البيزنطيين ، إذ بينما استولى المسلمون نهائياً على دولة الفرس الساسانيين وضموها إلى رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، ظلت الآمال تداعب البيزنطيين فى معاودة الكرة على المسلمين وإخراجهم من الشام ومصر . ولكن بفضل حملات معاوية البحرية أفاق البيزنطيون إلى رشدهم ، وأدركوا أنهم أمام قوة منظمة ، تسير قدما وباضطراد من نصر إلى نصر ، وتعمل جاهدة وبنجاح على انتزاع السيادة منهم على البحر الأبيض المتوسط .

فتح قبرص :

استهل معاوية باكورة نشاطه البحرى بمحاولة الاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت محور مكاتباته مع الخليفتين عمر وعثمان ، يطلب منهما الإذن له بتقليم أظافر البيزنطيين فى هذا المعقل القريب من أرض الإسلام . وكانت استعدادات معاوية البحرية لغزو هذه الجزيرة تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها .

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(2) Semple, op cit, 270, 271

إذ كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل في شرق البحر الأبيض المتوسط . وحرصت القوى المتنافسة فيه على إبقائها في دائرة نفوذها . فمنذ بزغت شمس الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التي تعتبر حجر الزاوية في قوة أية دولة تصل إلى مركز الزعامة في بلاد الشرق الأدنى . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتمس الثالث امبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، حيث حرصت الدول الكبرى التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي على السيطرة على قبرص^(١) .

وتستمد هذه الجزيرة أهميتها من موقعها الجغرافي الذي يوحى للناظر أنها أشبه بمدفع يدوي (مسدس) فوهته مصوبة إلى إقليم الشام^(٢) . وإلى جانب ذلك تحتل ركنا ممتازا في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، يجعل لها سهولة التحكم في مياه هذا الشطر الهام من البحر بما يُطل عليه من البلاد . إذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة ، وفي وقت قصير ، متجهاً إلى بيروت أو بورسعيد أو الإسكندرية^(٣) . غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالاً مباشراً مع إقليم الشام ، وارتبط مصيرها بأحوال القوى التي ظهرت في هذا الإقليم سواء في مشاريعها الحربية أو التجارية . إذ يقرب طرف جزيرة قبرص الشرق من خليج الإسكندرونة ، الذي يقع خلفه الممر الجملي الهام الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التي عبرتها قوافل التجار الحاملة بالمتجات الشرقية إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط . وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة ، وضرورة الاسراع بمهاجمتها بسبب إغارات البيزنطيين البحرية على الشام ، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين

(1) Hill, History of Cyprus I, 1

(2) Semple, op cit, 201.

(3) Hill : op cit, 1

في الطريق ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التي أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م على الأغراض الملحة التي حملت المسلمين على البدء بالإغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبته في هذه الحملة ليكسبها مظهر الجهاد الحق الرائع .

حشد معاوية أساطيله وقواته في ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند الإسلامي كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير القادة المسلمين مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها حيث اصطحب معاوية معه زوجته فاخته ، وأخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية . وكان الخليفة عثمان بن عفان هو الذي أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزمته في الإغارة على هذه الجزيرة ، وليعلم مدى قربها من الشام على نحو ما ذكره في مكاتباته ، إذ كتب إلى معاوية قائلاً : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذوناً لك ، وإلا فلا »^(١) . ولم يكن معاوية في حاجة إلى أن يقدم الدلائل على صدق مشاريعه البحرية ، إذ كانت حماسه لغزو قبرص تفوق في شدتها أي دليل . وأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله بعد انتهاء شتاء سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، ونزل بالساحل مسجلاً أول عبور حقه جند الإسلام لمياه البحر الأبيض المتوسط . وشاءت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزاً على صدق عزيمة المسلمين جميعاً رجالاً ونساءً ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، إذ حين رست السفن الإسلامية الشاطىء وأخذ الجند ينزلون منها ، تقدمت أم حرام لتركب دابتها ، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التي ألفت حنفها ، مخلقة ذكراها على أرض قبرص في أول غزوة بحرية إسلامية عرفها البحر الأبيض المتوسط .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

ودفنت أم حرام في أرض هذه الجزيرة ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة ^(١) » .

وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم وعتادهم إلى الشاطئ أرسلوا إلى أهالي قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعاً في جزيرتهم ، وإنما ليمتفقوا معهم على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم . غير أن سكان قبرص أبوا الدخول في مفاوضات مع المسلمين واعتصموا بأسوار مدنهم . فتقدم المسلمون نحو العاصمة قسطنطينا 'Constantina' التي كانت غاصة بالسكان ، وبها جميع ثروات الجزيرة وذخائرها . وبعد حصار قصير اقتحم المسلمون هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيراً من الأسرى . واضطر حاكم المدينة ، أو أركانها ، إلى عقد صلح مع المسلمين ^(٢) ، دلت شروطه على العوامل الحقيقية الكامنة وراء الحملة الإسلامية ، وأهداف معاوية في المبادرة بالهجوم على قبرص .

صالح أهالي قبرص معاوية والمسلمين على أن يدفعوا لهم جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك للدولة البيزنطية ، وتعهدوا بالأيساعدوا البيزنطيين في إغاراتهم على أرض الشام ، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين ، كما قبلوا أن يزودوا المسلمين بأنباء أية حملة يزعم البيزنطيون القيام بها ضد الدولة الإسلامية . وبذلك كان على أهالي قبرص التزام الحياد التام في النزاع الإسلامي البيزنطي ، حيث لم يطلب منهم المسلمون تقديم أية مساعدة لهم في إغاراتهم على البيزنطيين ، « فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصرهم أهل قبرص ، ولم ينتصروا عليهم » ^(٣) .

وعاد معاوية إلى الشام مظفراً ، مدوناً أول سطر في سجل النشاط البحري

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ؛ البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

الإسلامي ، وحقق فوزاً في ميدان جديد ، أعلامه من روح المسلمين المعنوية ، وأزال ما اتصف به العرب من تهيب لركوب المياه ، وأظهر أنهم في سبيل عزة الإسلام وأرضه يذلون سائر العقبات . وكذلك برهن معاوية بانتصاره على أهالي قبرص أن سياسته البحرية قامت على أسس وطيدة لا بد أن تؤتي أكلها ، حيث كان خضوع قبرص لمطالب معاوية بداية طريق جديد سلكه المسلمون مظفرين .

و بعد عودة معاوية إلى الشام لم يركن إلى الدعة ، مطمئناً إلى الصلح الذي عقده مع أهالي قبرص ، وإنما أخذ يراقبهم ليرى مدى تنفيذهم لالتزاماتهم إزاء المسلمين . وكان معاوية صادقاً في حذره وفي تتبعه لحركات سكان قبرص ، إذ حدث في سنة ٥٣٢ / ٦٥٣ م أن أخل أهالي قبرص بشروط الصلح ، وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن في إغاراتهم على أراضي المسلمين . فصمم معاوية على الاستيلاء على قبرص وإدخالها في التبعية للدولة الإسلامية ، ليحرم البيزنطيين نهائياً من استغلال الجزيرة وأهلها . وجهز حملة بحرية كبرى في السنة التالية ، في عام ٥٣٣ / ٦٥٤ م ، وكانت مكونة من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجنود . وتمكن بهذه الحملة الكبيرة من فتح الجزيرة عنوة ، رغم مقاومة أهلها ، وأخذ منهم كثيراً من الأسرى ، ونجح في تلقين السلطات بها درساً قاسياً لإخلالهم بشروط الصلح^(١) .

وعول معاوية على تدعيم نفوذ المسلمين بالجزيرة في هذه المرة ، إذ فضلاً عن إلزام أهلها بأداء المطالب المالية وغيرها من الالتزامات ، التي كانوا متعهدين بأدائها طبقاً لشروط الصلح السابق ، بعث معاوية إلى قبرص اثني عشر ألف رجل من الجنود النظامي . وأجرت لهم الدولة الإسلامية الرواتب ، ليكونوا جيشاً مقيماً

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

بالجزيرة يصد عنها عدوان البيزنطيين ، ويقضى على أية إغارة يحتمل أن تمر بهذه الجزيرة . وأتبع معاوية ذلك بنقل جماعة من أهل بعلبك إلى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها بمنحهم الرواتب ، ليشد من أزر الحامية الإسلامية ، ويقلل من تطلع السكان الأصليين بالجزيرة إلى العودة إلى مساعدة البيزنطيين وشيد معاوية لهذه الجالية الإسلامية مدينة جديدة في الجزيرة ، ومسجداً يؤدي فيه المسلمون شعائرهم^(١) . وهذه الظاهرة الأخيرة تنهض دليلاً على حرص معاوية على إبقاء جزيرة قبرص خاضعة للمسلمين ، إذ كان تأسيس المسلمين للمدن في الجهات الجديدة التي ينزلون بها ، فضلاً عن بناء مسجد لهم ، من العلامات الدالة على عزيمتهم الراسخ على الاستقرار بالمسكان الذي نزحوا إليه .

ويعزى تشدد معاوية في معاملة أهالي قبرص بعد هذه الحملة الثانية إلى رغبته في وضع حد نهائي لتقلب أهوائهم وتكرار مساعداتهم للبيزنطيين . إذ كان موقف أهل قبرص من الدولة الإسلامية مثار جدل وتشعب في الآراء بين قادة المسلمين حين نقضوا شروط الصلح السابق ، وغدوا موضع شك من حيث إخلاصهم ، حتى قال أحد المسلمين في مناقشاته : « ما وفي لنا أهل قبرص قط »^(٢) ، وأشار آخر بإنزال أشد العقوبة بهم مستشهداً ببعض السوابق على عهد الرسول ، قائلاً « إنه من نقض عهداً فلا ذمة له »^(٣) .

وآثر معاوية أن يوفق بين الآراء السابقة باحتلال جزيرة قبرص وتجديد مافي الصلح السابق من مميزات للدولة الإسلامية ، دون أن يشتط في معاملة أهالي قبرص أنفسهم ، ولتجنب بذلك ما قد يثار في نفوسهم من حقد نحو المسلمين . إذ أدرك أن أولى الأمر في هذه الجزيرة المسئولون وحدهم عن مؤازرة

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

البيزنطيين ، وتشجيع أهاليهم على مناوأة المسلمين . وكان قادة المسلمين يبررون الاستيلاء على الجزيرة بحجة إنقاذ أهاليها من نير البيزنطيين قائلين « أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم »^(١) .

ولذا جاء احتمال معاوية لجزيرة قبرص حلالاً لمشكلة اهتم بها المسلمون . وأضاف بهذه الجزيرة رقعة جديدة إلى أرض الإسلام ، كما استطاع بذلك أن يقلم أظافر البيزنطيين ، وجعلهم يدركون ما عليه بحرية المسلمين الناشئة من فتوة وقوة . وغدا إقليم الشام في مأمن من الأخطار المتكررة التي تهدته من جزيرة قبرص ، وصار المسلمون لا يخشون أى هجوم مفاجئ من البيزنطيين .

الإغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية :

كانت الإغارة على قبرص بداية نشاط بحري إسلامي أتم بطابع الإغارات سنوياً ، صيفاً وشتاءً ، على الجزر البيزنطية ، التي يخشى المسلمون خطرها ، أو التي قد ينبعث منها ضرر يحيط بأرض الإسلام . وأثبت المسلمون في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحري فهماً جيداً لطبيعة الجزر البيزنطية في البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة ، ولشغل حركات البيزنطيين البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . فقد انتشرت هذه الجزر في الشطر الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وقسمته إلى بحار داخلية صغيرة ، تتصل ببعضها البعض عن طريق مضائق وفتحات صغيرة تتحكم في مداخلها أطراف الجزر . وغدت هذه المضائق أشبه بعنق الزجاجة ، تكفل للسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من بحار

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ١٦٣ .

داخلية ، وما يظل على هذه البحار من أرض وبلاد^(١) . ولذا سارت الإغارات الإسلامية على هذه الجزر وفق خطوات منظمة مرسومة ، تهدف أولاً إلى تأمين سلامة البلاد الإسلامية من الجزر القريبة مباشرة من أراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التي تتحكم في أكبر عدد من المضائق البحرية لسد الطريق في وجه الأساطيل البيزنطية . وأظهر أمراء البحار المسلمون في سبيل تنفيذ هذه الأهداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلى مصاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

استرعى نظر المسلمين أثناء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى أرواد^(٢) بالقرب من ساحل الشام بين مدينة جبلة وطرابلس . ولم يكن معاوية الشخص الذي يتهاون في ترك أي معقل بيزنطي يهدد سلامة بلاده ، أو يكون شوكة في جانب دولته . فكانت هذه الجزيرة تتمتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور ، رغم ما بدت عليه من ضآلة الشأن في تلك الفترة الأولى من ظهور المسلمين في مياه البحر الأبيض المتوسط . فقد لاحظ استرابون^(٣) ، الجغرافي القديم ، أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القريبة منهم ، من أمثال قايقية ، والتي اتخذت لنفسها الطريق القويم في الاشتغال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادية . فكان أهالي جزيرة أرواد يستغلون ما حبتهم به الطبيعة من مركز جغرافي ممتاز في ميدان التجارة ، وأبدوا جشعا في تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق القرصنة الخفيف . وهذه الأمور وصمتهم بالغدر وأبعدتهم عن أن يكونوا أهلا للثقة .

(1) Semple, op cit, 71.

(٢) تختلف هذه الجزيرة عن جزيرة أرواد التي تقع بالقرب من القسطنطينية ، والتي تعرف باسم كزيبكوس (Cyzicus) في المراجع الأوربية .

(٣) استرابون جغرافي يوناني ، زار مصر سنة ٢٥ ق . م وقام بزيارات عديدة لبلاد الشرق . ومرف بدقة الملاحظة ، والاعتماد على السلطات الرسمية في البلاد لجمع المعلومات .

وعقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها .
وأعد حملة لمهاجمتها سنة ٢٨ هـ ، أى فى العام التالى لعودته من جزيرة قبرص بعد
إغارته الأولى عليها . واستطاع المسلمون أن ينزلوا بأرض الجزيرة ، ولكن رفض
الأهالى الإذعان لهم والتسليم ، واعتصموا بقلعة الجزيرة رغم وساطة أحد الأساقفة
ويدعى ثومارينخوس (Thomarichos) ، إذ آثر أن يقوم بدور الوسيط بين
المسلمين وأهالى أرواد ، ويبصر سكان هذه الجزيرة بمغبة الإصرار والعناد .
وجاءت الأحداث بما تؤيد وجهة نظر ثومارينخوس ، إذ عاد المسلمون إلى دمشق
مصممين على تأديب أهالى هذه الجزيرة فى العام التالى^(١) . وكانت هذه الحملة
الإسلامية الأولى قليلة العدد ، واستهدفت أولاً عقد معاهدة مع أهالى الجزيرة
لتأمين الشام من شرهم ، وضمان عدم مساعدتهم لأعدائهم . ولكن اضطرت
الحملة أمام مقاومة الأهالى إلى الرجوع إلى مقرها ، لتعود مره أخرى باستعداد
أوفى وأتم .

وفى العام التالى هاجم المسلمون جزيرة أرواد بقوة كبيرة ، وأحرقوا العاصمة
وقلعتها ، وألزموا جميع أهالىها باخلاء الجزيرة تماماً جزاءً على عنادهم الذى تجلى
فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة^(٢) . ولم يكن فى هذا التصرف الذى اتخذته
المسلمون شيئ من التعسف ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان
هذه الجزيرة ، ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم . فكان أهالى
أرواد يتجنبون دائماً الهزائم القاصمة ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام
بالمياه ، حتى يزول الخطر الحقيق بهم . ولذا قضى المسلمون نهائياً على هذه الجزيرة
ومنعتها ، وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهالىها من عدوان ، ولا سيما بعد أن كشفوا
القناع عن نواياهم فى وضوح وجلاء .

(1) Bury, op cit II, 289

(2) Bury, op cit, II, 289.

وهكذا لم يقيم المسلمون بجهودهم البحرية عفواً ، أو ارتجلوا خططهم في الإغارة على الجزر البيزنطية حبا في تخريبها فقط وتدميرها . فقد سار المسلمون في أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف إلى تأمين دار الإسلام وحماية أى ركن به معرض لخطر بيزنطى قد يأتى من أى مقبل بحرى . وكانت آية ذلك استعداد معاوية لمهاجمة جزيرة صقلية ، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ، ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة للقوات البيزنطية المعدة لشن هجوم على مصر ، وشل حركة التعاون البحرى بين المصريين وأهل الشام . فاتخذ الحاكم البيزنطى السابق لمدينة قيصرية ، التى قاومت معاوية مدى طويل ، مقره فى جزيرة صقلية ، وعول على أن يستعد بها ومعه غيره من البيزنطيين لاعادة الكرة على المسلمين من هذا المقبل البعيد عن حملاتهم البحرية المباشرة . وفضلا عن ذلك كان بمياه صقلية كثير من السفن والأساطيل البيزنطية ، التى ارتدت عن سواحل مصر والشام بعد سقوطهما فى أيدي المسلمين .

وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين ، تشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق مسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال إفريقيا^(١) . واستمدت جزيرة صقلية بفضل هذا الموقع كل معونة من الولايات البيزنطية الأخرى البعيدة عن متناول المسلمين فى هذه الفترة المبكرة من فتوحاتهم ، وغدت المعقل الذى يمكنه الصمود تماماً أمام الزحف الإسلامى إذا ما تجدد مرة أخرى . ولكن فى هذه الفترة الأولى ، أحست مصر خطر التجمعات البيزنطية بصقلية ، وتكاثفت مع بحرية الشام على عرقلة هذه الاستعدادات البيزنطية القائمة فيها .

(1) Semple, op cit, 72.

وقامت من الشام حملة إسلامية سنة ٦٥٢ م ، اتجهت إلى صقلية تعاونها القوات البحرية المصرية . ونزلت الحملة بالشاطئ ومعهما المجانيق والعرادات ، وأعملت التدمير في الحصون الساحلية . ثم اشتبكت القوات الإسلامية مع البيزنطيين في معركة دامت طول النهار ، وحملتهم على الانسحاب إلى داخل الجزيرة . واتبع المسلمون انتصارهم بالاغارة ليلاً على القرى والمدن القريبة من الساحل ، ثم عادوا مظفرين إلى الشام ^(١) ، بعد أن برهنوا للبيزنطيين أن يد البحرية الإسلامية الناشئة قادرة على أن تبطش بهم في أى مكان ، وأنها تقف لهم بالمرصاد . وتروى المراجع العربية أن معاوية بن حديج الكندى قاده هذه الأغارة الأولى على جزيرة صقلية ، ثم توالى عليها الاغارات بعد ذلك من شواطئ الشام ومصر أيضاً . واشتهر من أمراء البحار المسلمين الذين أغاروا على صقلية عبد الله بن قيس الدزقي ، الذى أخذ من هذه الجزيرة كثيراً من أصنامها الذهبية والفضية ^(٢) .

وسار أسطول معاوية بعد ذلك من نصر إلى نصر ، جاهداً على توسيع رقعة الإسلام بالاستيلاء على ما يستطيع السيطرة عليه من جزر البيزنطيين . فاتجه الأسطول الإسلامى شطر رودس ، أهم جزر بحر إيجه ، وأعلاها مكانة في الدولة البيزنطية ، من حيث نشاطها البحرى ، وحرارة صناعة السفن بها . فهذه الجزيرة أول حلقة في سلسلة أرخبيل بحر إيجه من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً من الساحل لآسيا الصغرى ^(٣) . وأهلها هذا الموقع لأن تكون خطراً جاسماً على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى ، وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية .

(1) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 62.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(3) Encyc. of Islam (art Rhodes)

بعث معاوية حملة لفتح رودس سنة ٦٥٤/٥٣٣ م تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدي^(١) ، واستطاع هذا القائد الأموي أن يستولى على الجزيرة عنوة ، وكانت « غيطة في البحر . . . من أخصب الجزائر ، وهي نحو ستين ميلا ، فيها الزيتون والسكر والثمار والمياه العذبة »^(٢) وجعلتها هذه المميزات مكاناً صالحاً لإقامة المسلمين به وتأسيس رباطهم به يدافعون منه عن الشام . فأمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة ، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها . وبلغ من اهتمامه بحماية رودس أنه كان يحدد أفرادها دائماً ، ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدى طويلا ليبقى على بأس الحامية وقوتها . وآثر معاوية أن يحيط المسلمين في رودس بالجوالاسلامي الديني ، ويعلى راية الاسلام بين سائر أهاليها ، فأرسل إليها فقيها يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن^(٣) .

وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجه وسد منافذه الرئيسية في وجه السفن البيزنطية ، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين . وعمل على تحقيق ذلك بالاستيلاء على جزيرة إقريطش (كريت) ، إذ تسيطر هذه الجزيرة تماماً على بحر إيجه ، الذي يشبه طرفه الجنوبي فوهة قربة تمتد جزيرة إقريطش عبرها ، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلا ، وتقسم الجزيرة هذه الفتحة إلى مدخاين تتحكم في كل منهما^(٤) . وأرسل معاوية جناده ، الذي استولى على رودس ، لفتح هذه الجزيرة الهامة ، ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلسل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام . على أن جنادة لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها ، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها^(٥) .

(1) Lammens, La Syrie, 65.

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(4) Semple, op cit, 74.

(٥) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

وهكذا وجه معاوية أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط ، وأوقفهم على أهمية جزره . فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها ، وطرق باب غيرها ممهدا الطريق لمن يأتي بعده من الخلفاء الأمويين ، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط ، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل في تاريخها وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها . ولكن تراث معاوية في تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحري على البيزنطيين .

ذات الصواري : ٥٣٤ / ٦٥٥ م

كانت سلسلة الانتصارات البحرية الأولى ، ثم الإغارات البحرية الموفقة التي شنتها الأساطيل الإسلامية على الجزر البيزنطية بالبحر الأبيض المتوسط حافزاً شجع معاوية على توسيع خططه البحرية ، والقيام بمشاريع حربية على نطاق كبير . وسارت هذه الأهداف الجديدة التي عمل معاوية على تحقيقها في نطاق الفكرة العامة التي كرس نفسه لها منذ ولايته للشام ، وهي تأمين أرض الإسلام وإزالة أي شبح بيزنطي يحتمل أن يهدد هذا الأمن . وكانت أولى الخطط الجديدة التي رسمها هي محاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، ورأس المقاومة لحركات الفتح والتوسع الإسلامي .

وتعتبر القسطنطينية المحرك الذي أدار شئون الدفاع البحري عن الجزر البيزنطية وغيرها من البلاد . وأدرك المسلمون ألا استقرار لفتوحاتهم إلا بإدخال هذه العاصمة في قائمة فتوحاتهم ، كما تم لهم من قبل الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس . ووقف المسلمون على أهمية القسطنطينية من حملاتهم البحرية على جزر بحر إيجه ، حيث صادفهم التوفيق مرة والفشل مرة أخرى . ولكن الفشل لم يكن ليفت في عضد أولى الأمر في الدولة الإسلامية ، وإنما زادهم تبصرة بحقيقة

موقفهم ، وتلافى ما يدهمهم من نقص . فكانت القسطنطينية الرأس المدبر للتنظيم
البحري للدولة البيزنطية وجزرها في البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، ولا سيما
السواحل الواقعة حول بحر إيجه الغني بجزره الممتدة إلى مياه القسطنطينية المحلية .
وانقسمت الإدارة البيزنطية البحرية إلى قسمين لكل منهما اختصاصاته ،
ومظاهر تعاونه كذلك مع بعضهما البعض ، بما يكفل صد أي عدوان يقع على
أراضي الدولة البيزنطية . فكان هناك نوعان من الأساطيل التابعة للإدارة البحرية
البيزنطية ، الأولى أساطيل تابعة للأقاليم والمقاطعات التي تنظمها الدولة البيزنطية
والثانية أساطيل خاصة بالعاصمة نفسها . وكانت الأولى موزعة بحيث تقاوم قدر
طاقتها أية إغارة مفاجئة على أرض المقاطعات التابعة لها أو عرقلة أية حملة كبرى
معادية قاصدة العاصمة حتى تأتي النجدة من أسطول القسطنطينية نفسها .
وكانت جزر بحر إيجه وساحل آسيا الصغرى الغربي العمود الفقري في نظام أساطيل
الولايات . إذ اشتملت جزر بحر إيجه على قواعد كبرى لأسطول الولايات ، على
حين اختص ساحل آسيا الصغرى الغربي بشطر قائم بذاته من الأسطول العام
للولايات^(١) . وهذه الأساطيل هي التي شدت أزر البيزنطيين في مقاومة حملات
الفتح الإسلامي الأولى في شمال الشام ، والتي عرقلت بعض مجهودات معاوية
في إغاراته البحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكان التعاون بين الأسطولين البيزنطيين إبان إغارات معاوية البحرية غير
وثيق ، لفساد الأحوال في العاصمة البيزنطية ، وامتلائها بالمؤامرات والدسائس
ولكن ما كاد الامبراطور قنسطانز الثاني ينفرد بالعرش ويبلغ سن الرشيد ،
حتى عمد إلى مقاومة نشاط معاوية البحري ، إذ أن تقدم المسلمين المضطرب في جزر
بحر إيجه ، واستيلائهم على قبرص وردوس مرزق شمل النظام البحري البيزنطي ،
على حين كادت الإغارات الإسلامية البحرية أن تشد الخناق على العاصمة نفسها

(1) Bnry, op cit II, 341 - 343

وتفصلها نهائياً عما تبقى لها من أملاك في البحر الأبيض المتوسط . ومن ثم أقبل
قنسطانز على بث روح الحياة والنشاط في أسطول العاصمة لشد أزر أساطيل
الولايات ، واستعداداً لمناهضة حركات معاوية المقبلة .

وصدقت مخاوف الامبراطور قنسطانز من احتمال اتساع دائرة النشاط البحري
الإسلامي ، إذ ترامت إليه في سنة ٦٥٥م أنباء استعدادات بحرية هائلة ، وأخرى
برية يعدها معاوية ليضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، ويزيل عنادها
في مقاومة المسلمين . فجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر المقبل على عاصمته
قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية
قبل إبحارها من قواعدها . وفي الفترة التي أسرع فيها قنسطانز بإعداد سفنه
الحربية ، نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقة الاستعدادات الإسلامية
ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وكان معاوية قد حشد معداته الحربية في مدينة
طرابلس استعداداً لقيام الحملة البحرية ، على حين عبأ القوات البرية بدمشق
للسير عبر آسيا الصغرى . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس أسرعوا
إلى سجن المدينة ، وكان به عدد كبير من الأسرى البيزنطيين ، وفتحوا أبوابه
وأطلقوا سراحهم . ثم تابعا عملهم بدفع الأسرى إلى مهاجمة دار الحاكم الإسلامي
بالمدينة وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التي بذل معاوية في جمعها
كثيراً من الجهود والعناء ، وهربوا جميعاً إلى القسطنطينية ^(١) .

وإذا كان وكلاء الدولة البيزنطية قد نجحوا في تنفيذ خططهم داخل أرض
الإسلام ، فإن معاوية أعد من آلات الحرب ما فاق العتاد الذي دمر ، وأتم
سائر استعداداته بسرعة . وتمخضت الحادثة السالفة عن إلهاب الحماسة بين المسلمين
وحفزتهم على أخذ الحذر من عدوهم العنيد . وسار معاوية على رأس قواته البرية
سنة ٦٥٥م إلى مدينة قيصرية في قبادوقيا بآسيا الصغرى ، على حين وصلت سفن

(1) Bury, op cit II, 290; Finlay, History of Greece I, 377.

حرية من مصر إلى سواحل الشام وانضمت إلى أساطيلها الزاحفة صوب القسطنطينية . على أن الأسطول الإسلامي ألقى مرساه بالقرب من ساحل ليكيا (عند فوينكس Phoenix)^(١) ، حيث بلغه هناك نبأ اقتراب أسطول بيزنطي على رأسه الامبراطور نفسه يهدف ضد تقدمهم .

ودلت استعدادات الأسطول البيزنطي على أن قنسطانز صمم على وضع حد لاتساع الفتوحات الإسلامية وكسر شوكتهم نهائياً ، على حين دلت الجهود التي بذلها معاوية في إعداد أساطيله على صدق عزيمة المسلمين في الجهاد والزود عن أرض الإسلام ، وإظهار التعاون الوثيق بين قوات مصر والشام البحرية في هذه المرحلة المبكرة من دخولهما في حظيرة الإسلام . فقد خرج على رأس أساطيل مصر واليهما نفسه عبد الله بن أبي سرح ، الذي خلد له التاريخ اشتراكه في معركة من أعظم المعارك البحرية الفاصلة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، وصد أكبر خطر بيزنطي كاد يدم المسلمين وأرضهم . ذلك أن قنسطانز « خرج في جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام »^(٢) فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة مزودة بالآلات الحرب ، راع منظرها المسلمين ، ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع البيزنطيين في معارك بحرية . ووصف أحد المشتركين في الحملة البحرية الإسلامية شعوره حين تقابلت الأساطيل الإسلامية مع سفن البيزنطيين قائلاً : « فالتقينا في البحر ، فنظرنا إلى مرآكب ما رأينا مثلها قط »^(٣) .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان في البحر ، فقضى المسلمون والبيزنطيون ليلتهما انتظاراً لما يسفر عنه الصباح ، وأخذوا يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات المسلمون ليلتهم يصلون ويدعون الله ، على

(1) Bury, op cit II, 290.

(٢) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

حين قضى البيزنطيون ليلتهم يضر بون بالنواقيس^(١) . وفي صبيحة اليوم التالي دارت المعركة ، واشترك فيها الامبراطور قنسطانز نفسه ، إذ أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال المسلمين ، ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة .

وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام ، فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح في الحروب البرية فقط ، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعاً . وتحقق ما رآه قنسطانز ، إذ اضطر المسلمون إلى استبدال الأقواس والرماح بالحجارة وقذف العدو بها . فأيقن قنسطانز أيضاً أن الفوز حليف أساطيله . ولكن لما رأى المسلمون نقاد ذخيرتهم من الحجارة كذلك وأن العدو ما زال بعيداً عن متناولهم ، وأنه يراوغ ويماطل لأنهم قوامهم ، ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض ، وقذفوا خطاطيف في البحر ، جذبوا بها سفن البيزنطيين إليهم . ثم اتخذوا من ظهور السفن جميعاً ميادين للقتال . وحين وصلت أنباء هذه الخطة الجديدة إلى الامبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته ، وأن الهزيمة لا شك محيطة بجنده^(٢) .

وتحقق استنتاج قنسطانز ، إذ وثب المسلمون على البيزنطيين بالسيوف والخناجر ، وأعملوا فيهم التقتيل . واشتد الصراع وكثر القتلى . حتى وصف شاهد عيان هذه الحالة قائلاً « رجعت الدماء إلى الساحل تضر بها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاباً^(٣) . » وأبدى الفريقان المتحاربان من صفوف التفانى في الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته المراجع الإسلامية والبيزنطية . فكان لشجاعة المسلمين أثر عظيم في إحراز النصر ، على حين استمات البيزنطيون في الدفاع عن أنفسهم . وتجلى ذلك حين عمد الامبراطور قنسطانز إلى نشر الفوضى في صفوف

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ، ١٦٠ ؛ Kremer, op cit, 357

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

المسلمين ، بعد أن صارت يدهم هي العليا في المعركة ، وأن كفتهم أخذت ترجح على البيزنطيين . إذ قذف جنده خطافاً علق بسفينة أمير البحر الإسلامي عبد الله ابن أبي سرح ، وأخذوا يجذبون المركب الإسلامي إليهم . واستهدف البيزنطيون من ذلك الإطاحة بالرأس المدبرة لعمليات قتال المسلمين . وكاد البيزنطيون ينجحون في أسر مركب القيادة الإسلامية لولا شجاعة أحد الجنود المسلمين ويدعى علقمة . إذ رمى هذا الجندي نفسه على السلاسل التي جذبت المركب الإسلامي ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم ما تعرض له من ضربات العدو . وكل عمل علقمة بالنجاح ، إذ قطع السلسلة وأنقذ السفينة الإسلامية من الوقوع في الأسر . ونال هذا الجندي ثناء زوجة أمير البحر التي تسمى بثينة ، إذ كانت على ظهر السفينة أثناء القتال ، واستطاع أن يظفر بزواجها فيما بعد ، حين توفي زوجها^(١) . وأظهر البيزنطيون أيضاً تفانياً في الدفاع عن سفينة الامبراطور حين هاجمها المسلمون . إذ عمل المسلمون القتل في جندها ، وكادوا يظفرون برأس الامبراطور نفسه ، لولا أنه تنكر باستبدال زيه مع ملابس ابن أحد ضاربي الطبول على السفينة ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر اتجه به إلى صقلية^(٢) . وبفرار الامبراطور قضى المسلمون على هذه الأرمادا البيزنطية ، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس . ولا يعرف ما قام به معاوية في آسيا الصغرى في تلك الفترة التي دارت فيها المعركة البحرية ، ولكن يبدو أنه هدف إلى قطع الاتصال بين جند البيزنطيين في آسيا الصغرى وأساطيلهم البحرية ، إذ كانت الدولة البيزنطية تعتمد في ذلك الوقت اعتماداً كلياً في تعبئة قواتها والحصول على النجدة من فيالق جيشها ورعاياها بآسيا الصغرى .

وتعتبر هذه الواقعة البحرية من المعارك الحاسمة القلائل التي غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ تقف وقعة ذات الصواري على قدم المساواة

(1) Kremer, op cit II, 358.

(2) Bury, op cit II, 290, 291.

مع معركة أكتيوم (سنة ٣١ ق. م) ^(١) في التاريخ البحري القديم لهذا البحر ،
ومعركة النيل (أو أبي قير البحرية سنة ١٧٩٨ م) ^(٢) في العصر الحديث .
فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية حتى آل
إلى الامبراطورية البيزنطية ، وكما أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التي
نراها في عصرنا الحاضر للبحر الأبيض المتوسط ، فإن معركة ذات الصواري
قضت على اتصاف البحر الأبيض المتوسط بأنه « بحر الروم » وجعلته حرياً أن
يدعى « بحر المسلمين » ^(٣) . فقد انطلقت فيه السفن الإسلامية في حرية تذهب
حيثما تريد ، رافعة علم الإسلام .

وتجلت أولى النتائج الهامة التي ترتبت على هذه المعركة الفاصلة عندما تخلى
الامبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة عن فكرة طرد المسلمين من
البلاد التي استولوا عليها في شرق البحر الأبيض المتوسط ، واستعادة ما كان لهم
من سالف النفوذ والسلطان هناك . إذ أدرك أولئك الأباطرة أن هذه الفكرة
ضرب من الأحلام التي فات أوانها ، وأن قدم المسلمين رسخت نهائياً على شاطئ

(١) أكتيوم اسم قديم لإحدى الرؤوس الأرضية الممتدة من شمال اليونان في البحر .
واشتهرت هذه البقعة لأنه دار بالقرب من مياهها رحى معركة بحرية هامة سنة ٣١ قبل الميلاد
بين أساطيل البطالمة حكام مصر ، والقائد الرومان أوكتافيوس . وكانت أهمية هذه
المعركة ترجع إلى أنها جلبت النصر للرومان ، وقضت على البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس
الرومان على سيادة البحر الأبيض المتوسط . إذ تلا هذه المعركة سقوط مصر في أيدي الرومان
وأصبح البحر الأبيض المتوسط تابعاً كله لهم . وآلت سيادة هذا البحر إلى الإمبراطورية البيزنطية
عندما ورثت ما تبقى للدولة الرومانية من بلاد على هذا البحر .

(٢) معركة النيل حدثت سنة ١٧٩٨ م ، عندما فاجأ نلسون أمير البحر البريطاني
أسطول نابليون في مياه أبي قير البحرية وحطمه . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في مصائر الشرق
والبحر الأبيض المتوسط ، إذا آذنت بفشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب النفوذ البريطاني
في البحر الأبيض المتوسط .

(٣) أصبحت الأساطيل الإسلامية تبدأ بالهجوم ، وتدفع أمامها سفن البيزنطيين ، ومهدت
الطريق لعظمة المسلمين البحرية فيما بعد على بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد أشاد ابن خلدون
بنشاط الأمويين البحري وما أفادته الدولة الإسلامية فيما بعد من جهادهم وإغاراتهم على أعدائهم ،
حتى أن « أساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من
بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه ساما وحرباء ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » .

«البحر الأبيض المتوسط الشرقي . فنجحوا إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وادخار جهودهم وقوتهم إلى وقت قد يحتاجون فيه للدفاع عن دولتهم وحمايتها من التردى نهائياً في أيدي المسلمين .

ويضيف إلى أهمية هذا التغيير الجديد الذي طرأ على سياسة الدولة البيزنطية تجاه المسلمين بعد معركة « ذات الصواري » أن الدولة الإسلامية نفسها دخلت بعد هذا الانتصار مباشرة في دور من القلق والنزاع بسبب مقتل عثمان . ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى نشوب حرب أهلية بين علي ومعاوية ، وانقسام العالم الإسلامي نتيجة هذا الصراع إلى قسمين متناضلين . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع البيزنطيون أن يوقعوا فيها أشد الأضرار بالمسلمين لو أنهم لم يتخلوا تماماً عن فكرة استعادة أملاكهم في البحر الأبيض المتوسط من أيدي المسلمين . وقد كانت التخوم الإسلامية خلواً من الرباط المدافع عنها لأن معاوية سحب معظم قواته منها لتشد أزره في حربه مع علي بن أبي طالب .

وهكذا لم يتعرض معاوية بعد هذا النصر المبين في وقعة « ذات الصواري » لخطر البيزنطيين . إذ رأت الدولة البيزنطية أن الأجدى بها هو تصفية علاقاتها مع العناصر الضاربة على حدودها الشمالية ، والاكتفاء بتأمين أراضيها في الجهة الجنوبية من آسيا الصغرى لدرء ما قد يقوم به المسلمون من نشاط حربي جديد . فاتجه الامبراطور قنسطانز إلى تأديب عناصر السلاف بالبلقان ، وكانت قد جددت نشاطها ضد البيزنطيين وأراضيهم أثناء انشغالهم بالحروب مع المسلمين . ثم ذهب الامبراطور بعد أن فرغ من هذه المشكلة السلافية إلى صقلية ليقوى جبهة دولته الغربية ضد أي زحف إسلامي قد يبدأ من مصر .

على أن معاوية لم يكتف بدوره بهذا النصر ، ولم يقنع بأنه غداً أول شخص فتح للمسلمين صفحة رائعة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط . إذ اتجه إلى حدود الشام الشمالية ، وعمد إلى تحصينها ليقبها من أخطار البيزنطيين . وأصبحت الخطة

التي رسمها لهذه المنطقة من الشام النموذج الذي احتذاه العباسيون فيما بعد لدفع الخطر البيزنطي عن تخومهم المجاورة لآسيا الصغرى .

مناطق التخوم (العواصم والثغور) :

ارتبط بنشاط معاوية البحري ، وتحصين المدن الساحلية بالشام ، القيام بمجهودات أخرى لحماية أطراف الشام الشمالية من إغارات البيزنطيين . وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى للشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلت إلى أنطاكية وحلب ، اللتين دخلتا في حظيرة المسلمين ، وتبعتهما مدينة قنسرين التي قاومت المسلمين الفاتحين بعض الوقت . وكان أبو عبيدة بن الجراح القائد العام للجيوش الإسلامية بالشام هو الذي يدير عمليات فتح هذه المدن ، ولا سيما أن البيزنطيين كانوا يؤلبون القبائل العربية الضارية في أطراف هذه المدن ، ويمدونها بالمساعدات الحربية^(١) . ولكن ما أن انهزم البيزنطيون وعادوا إلى آسيا الصغرى ، حتى دخلت المنطقة الشمالية من الشام في حظيرة المسلمين . وقد وضع لها نظام جديد يتفق مع متاخمتها لحدود آسيا الصغرى البيزنطية . إذ وقف المسلمون عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس ، على حين تحصن البيزنطيون خلف هذه السلسلة الجبلية في آسيا الصغرى .

أدى هذا الموقف إلى تخوف المسلمين والبيزنطيين من بعضهما البعض ، ودفعهما إلى تحويل المنطقة التي تفصل بين ممتلكاتهما إلى خراب موحش لا يشجع أحداً على ارتياده . فنقل كل منهما سكان تخومهما إلى داخل البلاد ، وترك حصونهما مقفرة ، ومنازلها خالية من العمران^(٢) . وكان البيزنطيون أشد اهتماماً من المسلمين بتخريب منطقتهم الواقعة شمال حلب وأنطاكية ، ليوقفوا

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

(٢) Kremer, op cit , 847 ؛

Htti , History of Syria. , 447.

حركة الزحف الإسلامي فيما وراءها . فنقل هرقل كثيراً من سكان أنطاكية معه حين ودع سوريا عائداً إلى عاصمته ، كما خرب معظم الحصون البيزنطية التي كانت فيما بين الأسكندرونة وطرسوس . فلم يجد المسلمون في إغاراتهم على هذه المنطقة أى أثر للبيزنطيين أو لمقاومتهم^(١) . وأدى ذلك في مبدأ الأمر إلى إثارة مخاوف المسلمين ، فجهدوا على معرفة أحوال البيزنطيين ، وما يخفونه من أهداف وأعمال . فاشتراط أبو عبيدة على أهالي بعض هذه الجهات الشامية القريبة من الحدود البيزنطية أن يبذلوا جهودهم لمعرفة أخبار البيزنطيين ، وتزويد المسلمين بها مقابل تركهم أحراراً في شئونهم الخاصة .

ويعزى اهتمام المسلمين بتقصي أحوال البيزنطيين وحركاتهم إلى ما لاقوه من متاعب وكوارث في بعض حملاتهم الأولى ، التي قاموا بها عبر هذه الجهات الجبلية التي تفصل شمال الشام عن آسيا الصغرى . إذ كان على المسلمين اجتياز بعض الدروب الجبلية في جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين؛ وأهمها ممران مشهوران الأول يعرف بالأبواب القيليقية التي تتحكم فيها مدينة طرسوس ، والثاني يسمى درب الحدث ويقع إلى الشمال الشرقي من الممر السابق . ولقى المسلمون متاعب جمة في اجتياز هذه الممرات ، إذ دأب البيزنطيون على الاختفاء لهم في كائن أعدها لهم في هذه الجهات الخربة ، ثم ينقضون عليهم عند عودتهم وينزلون ضربات شديدة بمؤخرة جيوشهم التي قد تخطىء في طريق عودتها . ولذا كان الممر الثاني من المناطق التي حاق بالمسلمين فيها كثير من الهزائم، حتى سموه درب الحدث تطيراً من أحدائه السيئة^(٢) .

ولم يلبث المسلمون أن عملوا على تلافى هذه الأخطار بترك حاميات عند

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) Le Strange , The Lands of the Eastern Caliphate, 128

الثغرات الجبلية التي ينفذون منها لمهاجمة البيزنطيين ، ثم تطور الأمر إلى اهتمامهم بتحصين المدن التي تتحكم في هذه الممرات . وكان أمام المسلمين سلسلة طويلة من الحصون المخربة التي دمرها البيزنطيون أثناء تقهرهم ، على حين ظلت بعض معاقل أخرى خاضعة لهم ، وانتشرت هذه السلسلة من الحصون في المنطقة التي عرفت فيما بعد على عهد الخليفة الرشيد باسم العواصم ، وامتدت من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات^(١) . وتمتعت جميعها بمراكز استراتيجية هامة في المنطقة الجبلية على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، إذ سيطرت على مفارق الطرق الحربية المارة بها ، أو مداخل الممرات الجبلية الطبيعية^(٢) الواقعة في دائرتها .

ورأى معاوية ، بعد أن انفرد بإقليم الشام ، ضرورة العناية بهذه المعاقل والتخلي عن سياسة تخزينها وترك منطقتها فلاة موحشة . فاهتم أولاً بمدينة أنطاكية التي كانت معرضة دائماً للاغارات البيزنطية المفاجئة ، واتبع في تعميمها السياسة التي سار عليها إزاء المدن الساحلية بالشام ، إذ أغرى الناس على الإقامة بأنطاكية بأن منحهم إقطاعات من الأرض ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم ، ثم نقل إلى المدينة جماعة من أهل بعلبك وحمص لنشر العمران فيها^(٣) . وأخذ معاوية يوالى تدريجياً تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس أثناء إغاراته على أراضي البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود الشام تتأخم مباشرة جبال طوروس ، الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى . ففي سنة ٦٤٥/هـ م عندما قام بغزوة على

(١) يطلق اسم العواصم والثغور عامة على الحصون التي أقامها هارون الرشيد في نفس المنطقة التي حصنها الأمويون ، لمواجهة البيزنطيين في جنوب آسيا الصغرى . فقد فصل الرشيد أرض قنسرين والتي تضم حلب ومينج وأنطاكية غرباً إلى الساحل وجعلها إقليماً جديداً يشمل سائر الحصون . واهتم كذلك بسائر الحصون الأخرى ، وكان ذلك سنة ١٧١ هـ .

(٢) Cheira , Arabes et Byzantins , 109 .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٥٤ .

عمورية بآسيا الصغرى ، شاهد الحصون ما بين أنطاكية وطرسوس وخلوها من السكان ، فأقام بها جنداً إسلامياً لتأمين ظهره أولاً ، ثم بدأ تعميرها بعد عودته ، و عمد إلى الاستفادة منها في الدفاع عن الشام^(١) .

وعرفت سلسلة الحصون في الجهات الإسلامية الملاصقة للدروب والثغرات التي ينفذ منها البيزنطيون من جبال طوروس مهاجمة شمال الشام باسم « الثغور » على حين أطلق اسم « العواصم » على سلسلة الحصون الخلفية لمنطقة الثغور . ولم تلبث منطقة العواصم والثغور أن اتسعت باتساع سلطان معاوية ، عندما ضم إليه الخليفة عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بالدفاع عنها أيضاً ضد البيزنطيين . إذ كان إقليم الجزيرة وشمال الشام وحدة تتمم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونها ، وتعرضها كذلك لإغارات البيزنطيين . واتبع معاوية في تلك الجهات نفس الطريقة التي سار عليها في الشام . فأقام القبائل العربية الضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطى ، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية ، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامى للدولة^(٢) .

وتابع معاوية أعماله في تلك السبيل باستكمال سيطرته على المعامل الأخرى الهامة الواقعة في منطقة التخوم الإسلامية البيزنطية . فاستولى قائده حبيب بن مسلمة الفهرى على مدينة سميساط^(٣) ، ومنها سار إلى ملطية وفتحها . ووضع معاوية في هذه المدينة الأخيرة رباطاً قوياً ، ونقل إليها جماعة من خيرة رجال الشام والجزيرة ، وأصبحت قاعدة للاغارات الإسلامية على أرض البيزنطيين^(٤) . ثم جدد معاوية الحصون الأخرى التي خربها البيزنطيون ، فبنى مدينة مرعش ،

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٨٦ .

(٣) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٤) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

وأعاد ترميم حصن الحدث الذي يسيطر على الممر المعروف بهذا الاسم ، والذي
لقى المسلمون عنده من قبل الكثير من الهزائم ، بسبب إغارات البيزنطيين
المفاجئة . وأتم معاوية نشاطه بالإستيلاء على حصن زبطرة البيزنطى وإعادة
تحصينه (١) .

وكان قادة جيوش المسلمين يحرصون في غزواتهم على الاهتمام بمناطق
التخوم الإسلامية على نحو ما فعل معاوية . فجهدوا في تعمیرها وتشجيع الناس على
الجيء إليها ، إذ أقاموا في بعض جهات بالقرب منها طلباً للراحة بعد عودتهم
من إحدى الإغارات ، وللترفيه عن جندهم ، حتى ظهرت في الأماكن التي عسكر
فيها جند المسلمين مدن جديدة هامة . ومن القادة الذين كان لهم فضل الاهتمام
بهذه الجهات مالك بن عبد الله الخثعمي ، إذ أقام بعد عودته من إحدى الإغارات
على أرض البيزنطيين في مكان يدعى « رهوة » على بعد خمسة عشر ميلاً من درب
الحدث . وقضى بهذا المكان ثلاثة أيام وزرع فيها الغنائم التي حصل عليها على
الجند ، فعمر سوق هذه البقعة بحركة البيع والشراء ، وعرفت من بعده باسم
رهوة مالك (٢) .

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية
إلى قسمين ، إقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن إقليم الشام ، وللإغارة على
أرض البيزنطيين بآسيا الصغرى ، وإقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن
شمال العراق ، وللحملات التي تقوم منه على أرض الدولة البيزنطية . وشجعت
سلسلة الحصون على قيام إغارات دائمة منظمة أعدها معاوية لتخريب أراضي
البيزنطيين . وعرف النظام الذي سار عليه معاوية « بالصوائف والشواتى » ، حيث
كانت الأغارات الإسلامية تقوم صيفاً وشتاء ، وتتوغل في بلاد البيزنطيين ،

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

وتعود إلى قواعدها مرة أخرى بعد أن تنتهي من مهمتها . وقد استهدف معاوية كذلك من هذا النظام في تلك الفترة المبكرة إيجاد ميدان يتدرب فيه الجند الإسلامي على أساليب القتال وإعدادهم للقيام بمشاريع الفتوحات الكبرى فيما بعد ^(١) .

وقاد معاوية بنفسه كثيراً من هذه الصوائف ، وهدف من وراءها إلى استطلاع أحوال المناطق التي يمر بها بنفسه . وكانت أشهر الحملات الاستطلاعية تلك التي قام بها في عام ٢٥ هـ / ٦٤٥ م حيث أغار على عمورية ، واقترب من البسفور الذي تطل عليه القسطنطينية . وهكذا لم تخل إغارات المسلمين على بقاع آسيا الصغرى من فائدة ، إذ استطاعوا دراسة الطرق التي توجد في هذه البلاد ، ولا سيما الطريق المؤدى إلى القسطنطينية ، حلم معاوية ومطمح أنظاره . واهتم معاوية ببعض حصون إسلامية أخرى أعد فيها جانباً من الصوائف تولاها بنفسه . فخرج في سنة ٣١ هـ / ٦٥٢ م من ناحية المصيصة وأغار على البيزنطيين ، كما ذهب إلى ملطية بعد أن استولى عليها حبيب بن مسلمة واتخذها قاعدة لإحدى إغاراته . سالكاً الطريق الهام الذي تتحكم فيه والمؤدى إلى أرض البيزنطيين ^(٢) .

وأدرك معاوية من تجاربه في ميدان الصوائف والشواتى ضرورة انتقاء قادة ممتازين يتولون إدارة عملياتها الحربية ، إذ تتطلب هذه الإغارات مهارة وحذقاً وسرعة بديهة من القادة ، وإلا تعرضت الحملة كلية للفناء ، لما عرف عن البيزنطيين من الدهاء والبراعة في إقامة السكائن بالممرات التي يجتازها المسلمون ، ومفاجأتهم بالعدوان حين تتاح لهم الفرص . فكان معاوية يستدعى الأشخاص الأكفاء المشهود لهم بالمهارة ويجرى لهم نوعاً من الاختبار الشخصي يقف منه على مدى مواهبهم وتجاربهم ، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الحملة المعدة وفق أهميتها وخطورتها ^(٣) . وكان يرسم للقائد الذي يقع عليه الاختيار الخطة التي يتبعها في

(١) Hitti , op cit , 443.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٩٣ .

(٣) العقد الفريد ، ص ١٥٦ .

إغاراته سواء من حيث تخريب الحصون أو تدميرها . إذ أمر أحد القادة الذي أوفده في إغارة على أرض البيزنطيين ، ويدعى يزيد بن الحر العنسي ، سنة ٦٤٨/٥٢٧ م بتخريب ما يلاقيه من حصون العدو وإقامة الحراس على المنافذ التي يمر منها إلى ما بعد عودته من غزوته^(١) .

وأضحى ميدان الصوائف والشواتي مجالاً يمدى فيه قادة المسلمين مواهبهم ويتدربون فيه على أساليب القتال . وعلاصت كثير من القادة المسلمين لما أبدوه من شجاعة في هذه الإغارات حتى أغدقت عليهم ألقاب التكريم اعترافاً بجهودهم ونشاطهم ، فأطلق على مالك بن عبد الله الخثعمي وهو رجل من أهل فلسطين اسم « مالك الصوائف »^(٢) لعلو كعبه في الميدان الحربي بآسيا الصغرى . وأثبت معاوية بذلك أن لديه شيعة وأنصاراً قادرين على تنفيذ مشاريعه في حماية أرض الإسلام .

وتجلى انتظام الصوائف والشواتي على أراضي الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى بعد أن غدا معاوية خليفة المسلمين ، وانتهى من مشاكلة الداخلية . إذ تسجل الحوليات الإسلامية نشاط جند معاوية في الأغارة على آسيا الصغرى التي تذكرها المراجع العربية بإسم « بلاد الروم » ، والتي أطلق عليها البيزنطيون أيضاً اسماً أشبه بالاسم العربي « Romania » . وظهر في هذه الجبهة خلال تلك المرحلة من خلافة معاوية القائد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . إذ أغار على آسيا الصغرى سنة ٦٦٣ م ، وأخذ كثيراً من الأسرى وخرّب بعض الحصون البيزنطية . وفي السنة التالية (٦٦٤ م) ، أعاد الإغارة على آسيا الصغرى ، وأمضى فصل الشتاء بها . وتمتاز هذه الإغارة الثانية بانضمام جماعة من السلاف التي عبرت الدردنيل إلى جيش عبد الرحمن ، حيث فضلت إعلان تبعيتها للخليفة

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

المسلم عن الدخول في طاعة امبراطور البيزنطيين . وهذه الحركات التي قام بها السلاف ، وتعضيدهم للمسلمين في إغاراتهم على آسيا الصغرى تفسر مدى اهتمام أباطرة الدولة البيزنطية بانتهاء حركات السلاف وإخمادها ببلاد البلقان ، وإعادتهم للتبعية لهم ، ومنع أى اتصال يقوم بينهم وبين المسلمين .

وعاد عبد الرحمن من هذه الإغارة ومعه خمسة آلاف من السلاف أسكنهم معاوية في شمال الشام^(١) . وقد توفي هذا القائد المسلم حالما دخل حمص ، بعد أن خلف اسمه في سجل المجاهدين عن حياض الدولة الإسلامية وإعلاء راية المسلمين ضد البيزنطيين ، كما نال أبوه من قبل النصر المظفر ضد البيزنطيين في ميدان فتوح الشام .

وتكاد تكون السنوات التي تلت إغارات عبد الرحمن على آسيا الصغرى حتى وفاة الخليفة معاوية سلسلة متصلة من الصوائف والشواتي اضطلع بها القادة المسلمون . وقد قضى بعضهم الشتاء بآسيا الصغرى متحملاً بردها القارس^(٢) في سبيل تحقيق أهداف الدولة الإسلامية^(٣) . وكانت أحداث هذه الإغارات تجري وفق نظم مقررة تكفل للجند الإسلامي الأمن والسلامة . فروى أحد المجاهدين المسلمين على عهد معاوية أن أهل الشام كانوا يتخذون استعدادات وافية عندما يقومون بالصوائف والشواتي . فإذا نزلوا بأرض البيزنطيين ، قسموا أنفسهم أجناداً للحراسة والدفاع والإغارة ، وكفلوا وسائل الاتصال بين الأجناد بعضها

(١) Bury, op cit II, 307.

(٢) أظهر المسلمون شجاعة نادرة في تحمل التضحيات التي تنزل بهم في ميدان الصوائف . فمن ذلك أن سيديا من كبار شخصيات الكوفة يدعى عبد العزيز بن زرارة خرج مع يزيد ابن معاوية في إحدى الصوائف . وقد لقي هذا الرجل حتفه في الإغارة الإسلامية ، وكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك الخبر . فبعث معاوية إلى زرارة وقال له « أتاني اليوم نبي سيدي شباب العرب ؟ فقال زراره : يا أمير المؤمنين ، هو ابني أو ابنك ؟ قال : بل ابنك ، قال للموت ما تلد الوالدة » انظر العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

بعضاً ، كما أعدوا أما كن للخيل محصنة لدرء الاغارات المفاجئة التي قد يشنها العدو^(١) .

وترك لنا أحد المؤرخين المسلمين المتأخرين وصفا لنظام الصوائف والشواتي على أرض الدولة البيزنطية . فذكر أن المسلمين قاموا بإغارات في فصل الربيع والصيف تسمى بالصوائف ، وأخرى في الشتاء تسمى بالشواتي . وكان غزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سمت وقويت من رعيها في كلاً الربيع وصراعيه ، ويستمر الغزو ثلاثين يوماً ، أي إلى منتصف الشهر التالي . وفي هذه الاغارات تجد الخيول عذاء وفيراً في مراعي البيزنطيين التي تمر بها . ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ، ويريحون خيولهم من منتصف يونيو إلى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف ، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا في حالات الضرورة القصوى ، دون أن يمعنوا في التوغل داخل أراضي البيزنطيين ، فلم تستغرق الشواتي أكثر من عشرين يوماً . وكانت تلك الشواتي تقع عادة في الفترة ما بين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس^(٢) . وبذلك ترك معاوية لخلفائه نظاماً ساروا عليه في تضيق الخناق على الدولة البيزنطية ، وإشاعة الاضطراب والفوضى في آسيا الصغرى ، أهم أركان حياتها الاقتصادية .

المردة أو الجرافحة :

اصطدم معاوية حين اتجه إلى تحصين العواصم والثغور بشمال الشام المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية بجماعة خارجة عن طاعة الدولة الإسلامية ، وعرقلت تقدم مشاريعه فترة من الزمن . والتقى معاوية بهذه الجماعة في جبل اللكام (Amanus)

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢١ ، ١٢٨ .

(٢) قدامة بن جعفر ، الحراج ، ٢٥٩ .

حيث أقامت به لا تعرف طاعة أحد منذ دخل المسلمون الشام . وكان سكان جبل اللكام العصاة ، تابعين قبل الفتح الإسلامي لبطريق أنطاكية وواليتها^(١) . ولما فتح أبو عبيدة بن الجراح مدينة أنطاكية اعتصم أولئك السكان بجبل اللكام دون أن يتنبه لخطورتهم المسلمون ، وأخذوا يقيمون حياة شبه مستقلة في صياصي الجبال ، ولهم مدينة أشبه بالحاضرة تسمى الجرجومة^(٢) . وهم ينسبون أحياناً إلى هذه المدينة ويدعون بالجراجمة ، على حين أطلق عليهم المسلمون اسم المردة ، لما لمسوه فيهم من العصيان ، والخروج دائماً على طاعتهم^(٣) .

وكان أولئك المردة من قبل عصاة لكل سلطة حاكمة في الشام ، وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام الدولة الرومانية الكبرى واستيلائها على الشام ، إذ وصف الرومان موطن المردة الجبلي بأنه مقر أعداء شديدي البأس ، « Mons hostium plenus sempiternorum »^(٤) ، كما نعتوا سكان اللكام بالعداوة الدائمة « Hostis perpetius » . وظل المردة على حياة العصيان حتى جاء الفتح الإسلامي للشام . وتنبه المسلمون لخطر الجراجمة بعد أن نقض أهل أنطاكية عهد الصلح الذي أعطاه لهم أبو عبيدة ، ولكن المسلمين فتحوا المدينة مرة ثانية وتولى شئونها حبيب بن مسلمة الفهري أحد شيعة معاوية وأشهر قادته في الميدان الشمالي المواجه لأرض البيزنطيين . فأثر الجراجمة الهدوء مؤقتاً وتجنبوا الاصدام مع حبيب بن مسلمة ، إذ صالحوه « على أن يكونوا أعواناً للمسلمين ، وعيوناً ومسالح في جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيرهم »^(٥) . وبذلك أعفى الجراجمة من

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

(٣) Hitti, History of Syria, 448.

(٤) Lammens, op cit, 19.

(٥) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

دفع الجزية واحتفظوا باستقلالهم الذاتي ، ولكنهم لم يخلصوا تماماً لشروط الصالح مع المسلمين واتهموا القرص للعصيان ، ومؤازرة من يغدق عليهم أجزل العطاء . واستطاعت الدولة البيزنطية أن تجتذب تلك الجماعة المتاخمة لحدودها بإغداق المنح المالية عليها ووجهتهم لعرقلة حركات المسلمين . ومن ثم غدا الجراجمة وكلاء للدولة للبيزنطية ينفذون سياستها ضد مشاريع معاوية . فكانوا يستغلون وقوع مساكنهم قرب درب أنطاكية المسمى درب بغراس ، طريق إغارات المسلمين على أراضي البيزنطيين ، ويوقعون بجيوش المسلمين الفوضى عند عبورهم لهذا المر . ولم تفلح محاولات المسلمين لإخضاعهم نهائياً « فكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالئوهم^(١) » . وسرعان ما أصبح الجراجمة نواة التف حولها كل الخارجين على السلطات الاسلامية في الشام بما قوى بأسهم . واعتاد الجراجمة السير وفي أيديهم قطع طويلة من الحديد جعلت البيزنطيين يطلقون عليهم اسم « أصحاب القضبان الحديدية » .

وتفانى المردة في خدمة أغراض الدولة البيزنطية حتى أصبحوا يكونون على حد قول المراجع البيزنطية ، التي أشادت بأعمالهم ضد المسلمين « ستارا حديدا »^(٢) فصل الشام عن أراضي البيزنطيين بأسيا الصغرى وعرقل الهجوم الإسلامي عليها . واستهدف المردة باغاراتهم العديدة من جبل اللسكام إيقاع الاضطراب بين المسلمين ، وذلك بتشجيع الدولة البيزنطية التي أمدتهم بالمساعدات الحربية في الاغارات الكبرى . وظهرتعاون المردة مع البيزنطيين في عرقلة جهود المسلمين سنة ٦٦٦ م ، حين ترامت إلى السلطات البيزنطية أنباء الحملة التي أخذ معاوية يعبدها براً وبحراً للهجوم على القسطنطينية . وكانت طبيعة جبل اللسكام تساعد المردة على تنفيذ مآربهم دون أن يبالغ ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

(٢) في الأصل « جدارا نحاسياً » ؛ Bury, op cit, 317 .

بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان وإفادة أنفسهم من موقعها الجغرافي وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد في حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة في هذه السلسلة الجبلية . ولذا هدف البيزنطيون إلى القضاء على مجهودات معاوية بالشام واستعداده لحصار القسطنطينية بمحاولة الاستيلاء على هذه السلسلة الجبلية الممتدة بالشام ، وشل حركة التعاون بين أساطيل المسلمين في القواعد البحرية ، وبين الجنود البرية في الداخل .

وزاد أعمال الجراجمة خطورة أن إقليم الشام كان مقسما منذ زيارة عمر بن الخطاب للشام ، وعقد مؤتمر الجابية (٦٣٩ م) إلى أربعة أجناد ، جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، ولكل منها منافذ على الساحل . ولذا كانت خطة البيزنطيين في تشجيع الجراجمة تهدف إلى إيقاع الاضطراب في صفوف هذه الأجناد الإسلامية ، والتي كانت من قبل الأقسام الإدارية الأربعة في الشام أيام سيطرتهم على هذا الإقليم . وقد أرسل البيزنطيون خيالتهم إلى جبل اللكام واشتركوا مع المردة في الهجوم على إقليم الشام ، وقد تمكنوا من احتلال المناطق الاستراتيجية الهامة على امتداد جبال لبنان ، وفصلوا المنطقة الساحلية عن البلاد الداخلية . ثم قام الأسطول البيزنطى في تلك الفترة بحملات على القواعد الإسلامية البحرية بالشام للسيطرة على ما بها من معدات ، دون أن تستطيع النجديات الإسلامية الوصول إلى الساحل من المناطق الداخلية^(١) .

ولسكن نجاح المردة لم يدم طويلا ، إذ اقتصر أعمالهم على الإغارات فقط ، ثم العودة إلى موطنهم واخلاء الأماكن التي يحتلونها . فاضطر الجند البيزنطى

(1) Lammens, op cit, 91, 20 ; Hitti, op cit, 449.

النظامى إلى القهقهر مع أولئك المرتزقة ، ولا سيما بعد أن حقق الأسطول البيزنطى أهدافه . غير أن هذه الإغارات المتكررة التى قام بها المردة لم تفت فى عضد معاوية ، وإنما عدل سياسته بحيث يشل حركات أولئك المغامرين الأفاقين . فجلب جماعات شديدة البأس والسطوة من داخل الدولة الإسلامية ووضعهم بالقرب من مساكن المردة فى الجهات الشامية المعرضة أيضاً لخطرهم ، واستطاع معاوية بذلك مراقبة حركات الجراجمة ، والتصدى لهم فى بداية نشاطهم ، وقد انتقى جماعة « الزط »^(١) بالبصرة ، للاضطلاع بمهمة الوقوف فى وجه الجراجمة ، ونقل بعضاً منهم سنة ٤٩ هـ أو ٥٠ هـ / ٦٦٩ م إلى أنطاكية وغيرها من الثغور الإسلامية القريبة منها ، ولكن غالبيتهم استقرت بأنطاكية : حيث غدا لهم حى بها عرف « بمحلة الزط »^(٢) .

وكانت جهود معاوية ضد الجراجمة آخر خطواته فى تحصين العواصم والثغور . ولكن لم يستطع أن يحل نهائياً مشكلة المردة أو الجراجمة ، إذ تابعا إغاراتهم على إقليم الشام حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . فقد نجح هذا الخليفة بوسائله الدبلوماسية فى عقد اتفاق مع الدولة البيزنطية يقضى بإبعاد هذه الجماعة من موطنهم إلى داخل أراضى الدولة البيزنطية ، وحقق بذلك لدولته الهدوء والسلام ، وقضى على شوكة أرقتها مدى طويلا .

الاستيلاء على أرمينيا :

توج معاوية بن أبى سفيان مجهوداته فى الدفاع عن أرض الإسلام ضد هجمات البيزنطيين بالاستيلاء على إقليم أرمينيا ، الذى تمتع منذ أقدم العصور

(١) الزط قوم أصل موطنهم غير معروف ، ويحتمل أنهم من هنود آسيا واستقروا على سواحل الخليج الفارسى فيما بعد . وعرفوا بالشراسة وحبهم للمغامرات ، مما جعل معاوية يختارهم للدفاع عن الحدود الإسلامية ضد البيزنطيين والجراجمة .

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

بموقع ممتاز ، جعله مطمح القوى المتصارعة على السيادة في الشرق . وقد اجتذبت أحداث الصراع الإسلامي البيزنطي زمن الخلفاء الراشدين نظر معاوية إلى إقليم أرمينيا حيث تطلع إلى إدخاله في رقعة أرض الإسلام . إذ جاء ذكر أرمينيا في حوليات المسلمين منذ السنة الثانية لخلافة عثمان بن عفان (٢٤ هـ / ٦٤٥ م) عندما شن البيزنطيون غارة كبرى على أرض الشام من معانهم بآسيا الصغرى ^(١) . ولكن معاوية وإلى الشام إذ ذاك رد هذه الإغارة على أعقابها ودحر المغيرين البيزنطيين . وجاءت هذه الإغارة بداية اتجاه جديد في خطط المسلمين الحربية ، إذ يعم المسلمون وجوههم شطر أرمينيا وأدركوا ضرورة الاستيلاء عليها والاتصال بزملاتهم الذين يتابعون زحفهم في أرض الجزيرة بالعراق ، وإحكام حلقة الحصار على الأراضي البيزنطية بآسيا الصغرى ، ووضع حد لإغارات البيزنطيين المتكررة على الشام .

وكان اتجاه معاوية في هذه الفترة المبكرة من ولايته نحو إقليم أرمينيا من أعظم الدلائل على يقظته ، ودرايته بخير الوسائل لحماية دار الإسلام . فأرمينيا تتحكم بفضل موقعها في مفرق الطرق المؤدية إلى أراضي المسلمين في إقليم الجزيرة بالعراق وبلاد الشام والجهات التي احتلها المسلمون في جنوب آسيا الصغرى . وإلى جانب ذلك امتازت أرمينيا بأنها إقليم فريد في جغرافيته ، حيث يعتبر وحدة طبيعية قائمة بذاتها وسط ما يحيط بها من بلاد . ويقصد بإقليم أرمينيا المنطقة الجبلية الوسطى العالية في غرب آسيا ، أي تلك البقعة الجبلية الواسعة التي تحدها آسيا الصغرى من الغرب ، وهضبة أزربيجان والشاطىء الجنوبي لبحر قزوين من الجنوب الشرقي والشرق ، وساحل البحر الأسود والقوقاز من الشمال والشمال الشرقي ، والركن الشمالي الغربي من أرض الجزيرة من الجنوب . وتبلغ مساحة هذا الإقليم ١١٥٤٠٠ ميل مربع تقريبا ، وتضم مواطن أنهار كثيرة

(1) muir, the Calphate, 303.

تتجه إلى جهات شتى ، وتزود بعضها أرض الإسلام بمنابع دجلة والفرات (١) .
وكانت أحوال أرمينيا بعد الفتح الإسلامي للشام تشجع معاوية بن أبي سفيان
على غزوها . فكانت إذ ذاك تن من آثار النزاع الذي نشب في أرضها بين
قوتى العالم الكبيرتين الفرس والبيزنطيين ، وحرص كل منهما على السيطرة عليها
لما لها من موقع استراتيجى هام فى العمليات الحربية بينهما . وانقسمت أرمينيا
قبيل الفتح الإسلامى نتيجة هذا الصراع إلى قسمين ، آل القسم الأكبر والذي
يضم الجهات الشرقية من أرمينيا إلى دولة الفرس ، على حين استولى البيزنطيون
على القسم الأصغر الذى يضم الأراضى الغربية . ونهج كل من الفرس والبيزنطيين
فى حكم قسميهما سياسة مهدت الطريق لاستيلاء المسلمين على أرمينيا بأسرها .
إذ اعتمد الفرس فى إدارة منطقتهم بأرمينيا على ولاية محليين دون أن يدركوا
مدى ما يحمله هذا الحكم الذاتى من أضرار لهم . إذ كان الولاة الأرمن يتطلعون
إلى البيزنطيين لاختلافهم مع الفرس فى الدين ، ودأبوا على قرض مضامع الفرس
وبذر بذور القلق فى منطقتهم بتحريض البيزنطيين ، حتى بدا أن السيادة
البيزنطية تشمل سائر أرمينيا .

على أن البيزنطيين لم يستطيعوا الإفادة مما حدث فى أرمينيا الفارسية
(Persarmenia) ، إذ كان الاختلاف المذهبى المنتشر فى بلاد الامبراطورية
البيزنطية ، ومحاولة السلطات البيزنطية فرض مذهب واحد على جميع رعاياها ،
من العوامل الهامة التى أدت بدورها إلى انتشار الفوضى فى الشطر البيزنطى من
أرمينيا كذلك . وتجلت هذه الظاهرة سنة ٤٥١ م حين رفض الأرمن اعتناق
المذهب الذى تم الاتفاق عليه فى مجمع خلقدونيا ، إذ اعتبر البيزنطيون الأرمن
خارجين على طاعتهم ، وبدأوا ضدّهم سلسلة من الاضطهادات جعلت الأرمن
على استعداد للارتقاء فى أحضان أية قوة تأتى لإيقادهم (٢) .

(1) Encyc of Islam (art Armenia.)

(2) Encyc. of Islam (art Armenia.)

وجاء خلاص أرمينيا من حالة الفوضى التي تفشت فيها على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي أدرك أهمية موقعها وسهولة الاستيلاء عليها . وبدأ معاوية سلسلة الحملات المنظمة للاستيلاء على أرمينيا بعد أن ضم إليه عثمان بن عفان إقليم الجزيرة بالعراق لتوحيد العمليات الحربية ضد البيزنطيين . وعهد معاوية بإدارة دفعة العمليات الحربية في أرمينيا إلى حبيب بن مسلمة ، الشخصية التي عرفت بحسن جهادها ضد البيزنطيين ، وقيامها بإغارات مبكرة على أرمينيا إبان الفتوح الإسلامية الأولى في شمال العراق والشام ، إذ سبق لحبيب بن مسلمة أن أغار على أرمينيا سنة ٢١ هـ ، مما جعله أصلح شخصية لفتح هذا الإقليم .

سار حبيب بن مسلمة لفتح أرمينيا من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م . وكان هدف القائد الإسلامي الاستيلاء على عاصمة أرمينيا البيزنطية ، وهي مدينة ثمودوثيوبوليس (Theodosiopolis) ، التي تدعى « قاليقلا » في المراجع العربية . واستهل حبيب انتصاراته بالاستيلاء على هذه العاصمة بعد حصار يسير ، وفرّ من بها من القوات البيزنطية إلى آسيا الصغرى . وبقى حبيب في هذه المدينة شهراً يدعم لنفسه فيها ولقواته ، حتى بلغه أن قائد الفيلق البيزنطي في إقليم « الأرمينياق » بآسيا الصغرى ، الذي يضم المنطقة المتاخمة لأرمينيا ، جمع جيشاً كبيراً لخراج المسلمين من هذه البلاد ، وضم إليه بعض العناصر من الخزر^(١) وغيرهم من سكان البلاد القريبة منه^(٢) .

وبعث حبيب بن مسلمة إلى معاوية يصف له حالة الفتح ويطلب منه أمداً لتثبيت فتوحات المسلمين بأرمينيا . فأرسل معاوية إليه الأمداد سريعاً ، ثم التقى

(١) الخزر قوم استقروا في منطقة القوقاز تقريباً ، ولكن كان نفوذهم يتسع وينكش حسب التطورات السياسية . وقد عرف عن الخزر تحالفهم مع البيزنطيين قبل ظهور الإسلام . وقد ظلت الدولة البيزنطية تستعين بهم كذلك أثناء حروبها ضد الأمويين .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ : (art Armenia) Encyc. of Islam

المسلمون والبيزنطيون على شاطئ الفرات الأعلى ، حيث أنزل مسلمة بأعداءه هزيمة ساحقة ، وكتب للمسلمين الاستقرار في هذا الإقليم الهام . وأتبع مسلمة انتصاره بوضع حامية قوية في مدينة قاليقلا ، وأغراها على البقاء فيها بمنح أفرادها إقطاعات من الأرض يستغلونها لأنفسهم وينعمون بخراجها^(١) .

تابع حبيب زحفه بعد انتصاره في الشطر البيزنطي من أرمينيا إلى الجنوب الشرقي للاستيلاء على أرمينيا الفارسية كذلك . وكان يلقي في طريق زحفه ترحيباً من الحكام المحليين حيث قدموا له فروض الطاعة والولاء . وأخيراً بلغ عاصمة أرمينيا الفارسية ، وهي مدينة دوين (Dwin) أودبيل في المراجع العربية . واضطر حبيب أن يحاصر هذه المدينة التي تحصن بها أهلها ، فنصب المجانيق وأمطروهم بها حتى ألجأهم إلى طلب الصلح . وكشف عقد الصلح الذي أبرمه مع أهالي هذه المدينة بجلاء عن أهداف المسلمين في فتح أرمينيا ، وأنها كانت ترمى إلى تأمين بلاد الإسلام ، إذ شرط حبيب على سكان ديبيل ، إلى جانب تأدية الجزية المطلوبة منهم ، ضرورة « مناصحة المسلمين . . . ومعاونتهم على أعدائهم »^(٢) .

وأخذ حبيب يوالى انتصاراته بعد استيلائه على عاصمة أرمينيا الفارسية ، حتى التقى بقوات المسلمين في أرض الجزيرة بالعراق ، والتي كان يقودها غياض بن غنم . فاشترك القائدان في فتح شمشاط ، وهي منطقة تدعى أرمينيا الرابعة ، أي أنها كانت قسم من الأقسام الإدارية التي انقسمت إليها أرمينيا . وكان بعض سادة نواحي أرمينيا المتاخمة لأرض الجزيرة بالعراق قد أخذوا عهداً أمان من غياض بن غنم ، فأقرها لهم حبيب ، ثم تابع فتوحاته بعد ذلك منفرداً عن غياض^(٣) .

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٥ ؛ Encyc. of Islam (art Armenia)

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٨ ؛ Encyc. of Islam (Art Armenia)

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .

أتم حبيب فتوح أرمينيا بوصوله مدينة تفليس ، إذ منح أهلها عهد صلح
وأمنهم على أنفسهم وبيعهم وصوا معهم ، مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية
ودفع الجزية . ولم يترك حبيب أرمينيا إلا عام ٦٥٥ م بعد أن صد جيشاً بيزنطياً
أخرجاء تحت قيادة ماوريانوس « Maurianos » ، وختم بهزيمة هذا الجيش
آخر المحاولات البيزنطية لاسترداد أرمينيا (١) .

عاد حبيب بن مسleme بعد ذلك إلى إقليم الشام ، مخلداً اسمه في سجل
حواليات الكفاح الإسلامي ضد البيزنطيين . وقد اكتسبته انتصاراته على البيزنطيين
شهرة فائقة جعلت معاوية يعهد إليه بإدارة إقليم الثغور المتاخم للحدود البيزنطية .
فاتخذ حبيب من مدينة حمص مقراً لإغاراته السنوية على أرض البيزنطيين بآسيا
الصفرى ، ولإبعاد شبحهم عن إقليم أرمينيا (٢) .

وارتبط مصير أرمينيا منذئذ بتاريخ الدولة الإسلامية ، وتأثرت بما سادها
أحياناً من فترات الاضطراب . وتجلى ذلك بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وانغماس
المسلمين في الحروب الأهلية التي نشبت بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .
إذ اضطرت معاوية إلى سحب قواته المرابطة في أرمينيا ليقوى جبهته في الصراع
مع علي بن أبي طالب . وكان حبيب بن مسleme نفسه ، القائد الإسلامي المظفر
في الميدان البيزنطي بأرمينيا ، قائد جيش معاوية الذي اتجه أول الأمر إلى نجدة
الخليفة عثمان بمكة حين حاصره الثوار ، ثم قفل راجعاً بعد أن علم بمقتل الخليفة
عثمان واضطراب الأحوال في الحجاز .

وجاء خلوع أرمينيا من القوات الإسلامية فرصة موالية للبيزنطيين لاسترداد
هذا الإقليم ذى الموقع الحربى الممتاز . فعادت جيوش الإمبراطورية البيزنطية

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢٠٩ ، ١٢٠ (Encyc of Islam (Art Armenia)

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ٢١٢ .

إلى مقرها القديم بأرمينيا ، مصطحبة معها سياسة البيزنطيين التقليدية في العداء المذهبي . عنى أن المسلمين لم يفضوا الطرف عن أرمينيا ، ولم يتركوها لقمة سائغة للبيزنطيين ، إذ بعد أن حالف النصر معاوية ، وأصبح خليفة المسلمين سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م وجه همه لاستعادة أرمينيا . وكانت الأحوال التي تفشت في أرمينيا إبان سيادة البيزنطيين الثانية لها عاملا ساعدا معاوية على الفوز من أسهل طريق وأيسره .

عانت أرمينيا في تلك الفترة من التبعية البيزنطية سوء الإدارة وانتشار روح التذمر والتمرد بين الجيوش البيزنطية بها . وأدى هذا الفساد إلى إدراك معاوية سهولة فتح أرمينيا ثانية ، إذ ثار قائد الجيوش البيزنطية بأرمينيا ويدعى إذ ذاك ساپور (Sapor) في سنة ٦٦٨ م على الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع^(١) . وبعث هذا الثائر بمندوب من قبله إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب منه المساعدة ويعده مقابل ذلك بتهديد الطريق للمسلمين للاستيلاء على آسيا الصغرى وإبعاد الجيوش البيزنطية عنها ، ولا سيما المرابطة منها على تخوم الشام الشمالية^(٢) .

وعمد الامبراطور البيزنطي إلى عرقلة مجهودات هذا الثائر ، فأرسل بدوره إلى الخليفة معاوية يحذره من مد يد المساعدة إلى ثوار أرمينيا . واسكن تصادف أن التقى المبعوثان الأول الذي أرسله الثائر ساپور ، والآخر الذي بعثه الامبراطور في بلاط معاوية ، وتشاحنا وخرجا دون أن يظفر أحدهما بما قصد إلى تحقيقه . وأدرك معاوية من ذلك أن الوقت قد حان لاسترداد أرمينيا . فأرسل إلى أهالي أرمينيا يدعوهم إلى الاعتراف بسلطانه والدخول في التبعية للمسلمين ودفع الجزية مقابل حمايتهم وطرد البيزنطيين . وحقق معاوية أغراضه واستردت جيوشه

(1) Finlay, A History of Greece I, 380.

(٢) ابن العربي ، تاريخ مختصر الدول ، ١٨٧ ، ١٨٨ ؛

Cheira, op cit, 117, 118.

أرمينيا وطاردت فلول البيزنطيين المقطعة الأوصال^(١).

وضع معاوية بعد ذلك سياسة لحكم أرمينيا كفلت للمسلمين البقاء فيها طوال العصر الأموي ، إذ عهد بإدارة شؤونها المحلية إلى أقوى الأسرات الحاكمة بها ، والتي اشتهر منها الماميلونيين « Mamilonians » ، والباجاتونيين (Bagratunians) . ونصب على أرمينيا بأسرها والى مسلم يرقب أحوالها ويدير شؤونها عن طريق الحكام المحليين^(٢) . وحققت هذه السياسة الإسلامية وما اتسمت به من ترك الأهالي يحكمون أنفسهم حكماً ذاتياً مستنيراً ، هدوء الأوضاع واستقرارها بأرمينيا طوال العصر الأموي . وهكذا نعم الخلفاء الأمويون من بعد معاوية بما وضعه عميدهم من أسس الاستقرار في هذا الركن الهام من الأراضي الإسلامية المتاخمة للدولة البيزنطية .

(1) Bury, op cit II, 357 ; Muir , The Caliphate 297 ;

العربي
ابن العربي ، نفس المرجع ، ١٧٧ :

(2) Laurent, L' Armenie, 92, 93 ; Encyc. of Islam (art Armenia.)

الفصل الثالث

دمشق والقسطنطينية

أسس نمو المدن وازدهارها

أوضاع المدن :

المدن عصب الدول ، وميزان ما ينالها من ازدهار ومحلال ، ورمز ما يتفجر فيها من ينابيع الحضارة والمدنية ، ومن ثم حرصت كل مدينة كبرى على العمل بما يهيئ للدولة التي تضمها سبل الرفاهية والعظمة ، والوصول إلى مركز الصدارة بين الأمم المجاورة لها سواء الدانية منها أو القاصية . وقد تفاوتت المدن الكبرى في تأدية هذه الرسالة ، فمنها ما ارتقى سريعاً في سلم الزعامة العالمية ، ثم هوت في لمح البصر كشهاب ما كاد يضيئ حتى خبي . ومنها ما جعلت أحداث دولها تحتل المكان الأول بين أخبار العالم المعروف لها ، وسطرت لها صفحات خالدة في سجل التاريخ .

ويعزى ما أصابته المدن الكبرى من نجاح أو فشل ، وعلو بعضها فوق بعض درجات إلى عوامل شتى ، أهمها مدى ما حبتته الطبيعة المدينة من مميزات جغرافية ، واستطاعة مؤسسو هذه المدن الكبرى استغلال هذه المميزات وتنميتها بما يحقق لها السيادة والازدهار . وكانت هذه العوامل التي تتحكم في مصائر المدن ونشأتها موضع التقدير والاهتمام من أولى الأمر في البلاد ، ودونوها في تقارير تداولها الخلف عن السلف لسير على هديها والعمل وفق إرشادها . وظلت هذه القواعد العامة متبعة منذ أقدم الأزمان حتى نهاية العصور الوسطى ، حيث تغيرت

أوضاع المدن وفن تأسيسها لما طرأ على العالم في العصور الحديثة من انقلاب في أساليب المدنية ومظاهرها .

وتناول ابن خلدون في مقدمته هذه القواعد التي أرسى عليها التدايمي وأهل العصور الوسطى صرح مدنيهم ، وبين مدى أهمية مراعاة هذه القواعد حتى تحقق المدن الغرض المنشود منها . فذكر « أن المدن قرار يتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، فتؤثر الدعوة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار^(١) » . ولما كان الهدوء والاستقرار أهم ما تحرص عليه الدول ، فقد دأب أولو الأمر فيها على العناية بالمدن التي هي عماد هذا الاستقرار وعوده الفقري ، وحرصوا عند تأسيسها ولا سيما الكبرى منها على أن تتوافر لها ثلاثة أمور هي : « دفع المضار ... وجلب المنافع وتسهيل المرافق »^(٢) .

وكان دفع المضار عن المدن يتحقق بأن « يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار ، وأن يكون وضع (المدن) في ممتنع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة ، فتصعب منالها على العدو ، ويتضاعف مناعتها وحصنها^(٣) » .

وأما جلب المنافع والمرافق للمدينة فقد تطلب عدة أمور منها الماء ، « بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون ... فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء ، وهي ضرورة^(٤) » . وكذلك المزارع ، « فإن الزروع هي الأقوات ، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

وأقرب في تحصيله»^(١). وأخيراً لا بد للمدن من المراعى الجيدة ، « إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ، ولا بد لها من المرعى ، فإذا كان ذلك قريباً طبيياً كان ذلك أرفق بمجالهم»^(٢) .

ودلال ابن خلدون على صدق هذه العوامل الثلاث الأساسية بسرد أسماء بعض مدن عمر شطر منها طويلاً وازدهرت ونمت مع الزمن ، على حين ذكر مدناً أخرى غفل مؤسسوها عن « حسن الاختيار الطبيعي » ، « ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف ... ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية»^(٣) .

وهكذا حفل التاريخ بقوائم عديدة لمدن كبرى ظهرت على مسرح بلاد الشرق ، بعضها تحقق لها الكثير من القواعد التي ذكرها ابن خلدون ، والبعض الآخر لم يحظ من أسباب البقاء إلا بالقدر الضئيل ، ومن ثم ظلت بعض هذه المدن تؤدي رسالتها في ميدان الحضارة العالمية حتى حان حينها وآن أفولها ، على حين اندثرت المدن الأخرى التي قامت على أسس غلب عليها طابع التصنيع والبعث عن « حسن الاختيار الطبيعي » . ولكن بد مدن الشرق جميعاً مدينتان توافرت لهما أسباب الزعامة على سائر مدن الشرق الأخرى ، وخلد التاريخ اسميهما على مرّ العصور والأزمان ، مصححاً بآبيناان أهميتهما في بناء صرح الحضارة العالمية . الأولى هي مدينة دمشق التي دار في فلكها كثير من أحداث التاريخ منذ أقدم عصوره حتى الوقت الحاضر ، والثانية مدينة القسطنطينية التي شاركت دمشق في الخلود والبقاء حتى العصر الحديث .

وقد أخذت هاتان المدينتان تشيدان صرحيهما ، كل جاهدة على الاستفادة مما حبتهما الطبيعة من مميزات جلييلة ، حتى شاء كره العصور أن يتصل تاريخهما معاً

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

ويرتبط في ركبهما أهم الأحداث العالمية . وجاء هذا الاتصال في العصور الوسطى حين ظهر الدين الإسلامي وأخذ يحتضن بلاد الشرق ويضفي عليها نوره وهداه . ففي تلك الحقبة الزاهرة من تاريخ الشرق نالت كثير من المدن شرف السبق في اعتناق الدين الإسلامي على حين تأخرت أخرى في هذا المضمار . ومن ثم نشب بين الفريقين صراع اتصف بسمات جديدة تختلف اختلافاً كلياً عن أي صراع آخر عرفه الشرق من قبل ، إذ جهد الفريق الأول على تأدية رسالته العالمية بأن يحمل الفريق الآخر على اعتناق الإسلام والسير في ركاب حضارته وهديه . واتخذت دمشق لواء الفريق الأول شعاراً لها ، على حين رفعت القسطنطينية راية عصيان الفريق الآخر .

على أن سبى دمشق في الإسلام جعلها تحتل مركز الزعامة العالمية في العصور الوسطى على عهد الأمويين ، وأرسلت جيوشها الواحدة تلو الأخرى تلتهم ما نشاء من الأراضي التابعة للقسطنطينية وتدق أسوار هذه المدينة العاتية نفسها ، حتى جعلت أنظار المسلمين تتجه إليها ، وتتطلع إلى أهمية ضمها إلى حظيرة الإسلام . وظلت رسالة الأمويين قائمة عند أولى الأمر من قادة الدولة الإسلامية حتى فتح الأتراك العثمانيون القسطنطينية ، وهياؤوا لها مكاناً جليلاً في التاريخ الإسلامي إلى جوار قرينتها دمشق .

دمشق — قبلة سفن الصحراء :

قامت عظمة دمشق على عهد الأمويين على أسس من الماضي التليد وفوق دعائم ثابتة الأركان . فهي ذات تاريخ قديم يبدأ منذ بزغ فجر الحضارات في بلاد الشرق ، ومنذ أدرك أهالي تلك البلاد أهمية اتصال بعضهما ببعض الآخر ، واختيار نقط تصلح للتلاقق وتبادل المصالح . وقد رشحت الطبيعة مدينة دمشق لتسكون من الينابيع الأولى التي تغذي أرض الشرق بالحضارة ، وأن تصبح

خير بقعة يتعارف فيها أهلها . إذ هي هبة أعظم طريق تجارى قديم ربط الشرق بالغرب ، وهبة نهر بردى أيضاً الذى خلق منها جنة فيحاء وفردوساً هادئاً يجرد فيها التاجر والمسافر الراحة والاستقرار بعد عناء السفر ومتاعب الطريق .

وهكذا اختصت الطبيعة مدينة دمشق بموقع رائع خالد لا يضمحل مع الزمن ، ورفعتها إلى مصاف عدد قليل من المدن الأخرى العالمية التى شاركتها فى القدم وطول البقاء . فقد أصبحت دمشق بفضل موقعها الممتاز مركزاً تتلاقى فيه متاجر الأمم المجاورة لها ، وسوقاً لتبادل السلع التى ترد إليه من شتى الآفاق . فكانت المتاجر إذ ذاك تنقل من شاطئ الشام المطل على البحر الأبيض المتوسط ، ثم تسير بها القوافل عبر سهول الشام الخصبة المعروفة بالبقاع (Coele Syria) قاصدة مدينة دمشق ، حيث تنقل منها مرة أخرى إلى نهر الفرات . ثم تعود منتجات العراق وما يضاف إليها من واردات اليمن وفارس عن هذا الطريق إلى البحر الأبيض المتوسط مارة بمدينة دمشق كذلك^(١) . وكان هذا الشريان التجارى أهم طريق يصل بين بلاد الشرق الأقصى الغنية بالمتاجر وغيرها من المنتجات التى احتاج إليها العالم القديم وبين أسواق ومراكز استهلاكها فى البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى . واختص هذا الطريق التجارى بالأهمية فى حلقة التبادل التجارى بين الشرق والغرب لأنه كان ذا شعبتين : الأولى ، وقد سبق ذكرها ، وتسير من مياه الخليج الفارسى ثم مع الفرات ومنه إلى دمشق وأخيراً إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ وشعبة أخرى توصل السير من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر ، حيث يبدأ عند اليمن طريق قوافل آخر يجتاز بلاد العرب إلى جنوب الشام حيث مدينة بصرى مفتاح الطريق إلى دمشق^(٢) . ويعزى السبب فى اتجاه هذا الطريق التجارى ذى الشعبتين الكبيرتين

(١) Kremer : Orient under the Caliphs, 133, 134.

(٢) ابراهيم العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، ص ١ ، ٢ .

نحو مدينة دمشق إلى تحكها في نقطة اتصال رئيسية بين منطقتين متباينتين
لها أهميتهما في ميدان التجارة والاقتصاد . فإلى الشرق من دمشق توجد بادية
الشام التي تخترقها الطرق التجارية الآتية من شمال بلاد العرب أو من العراق ،
وإلى الغرب منها السهل الخصب الزاهر الذي أطلق عليه القدامى اسم البقاع
لوقوعه بين سلسلتى جبال لبنان . واكتسب هذا الوادى شهرة كبرى في عالم
التجارة لأنه سهل مهمة اجتياز هذه السلسلة الجبلية والوصول إلى شاطئ البحر
الأبيض المتوسط^(١) .

وكان تحكم دمشق في هذا الطريق التجارى عاملاً جعلها مطمح أنظار القوى
التي ظهرت بجوارها . فحرصت كل دولة تبغى لنفسها السيطرة التجارية إدخال
دمشق في دائرة نفوذها . على أن هذا التنافس أفاد دمشق نفسها حيث أتاح لها
سبيل الظهور على مسرح الأحداث العالمية . وارتبطت أولى خطوات دمشق في
سلم الزعامة السياسية ببلاد العرب ، وهي المهمد الذي سوف يحتضن الإسلام في
مبدأ أمره فيما بعد . إذ فيما بين سنة ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق . م خرجت من بلاد
العرب هجرة بشرية تعرف بهجرة الآراميين استقرت في بلاد الشام وأسست
لنفسها دولاً بها ، وكانت دمشق حاضرة إحدى هذه الدول الآرامية الناشئة ،
ويشمل سلطانها الأراضى الممتدة من الفرات إلى اليرموك^(٢) .

وأخذت دولة دمشق منذ تلك الحقبة تخضع لما يطرأ على الدول السياسية
من علو وارتفاع ، ثم تدهور وانحلال . ولكن المدينة نفسها لم تندثر أو تفقد أهميتها
رغم زوال سيادتها على ما جاورها من بلاد . وكان السبب في تدهور دولة دمشق
السياسى هو إغارات البدو المقيمين في الصحراء المجاورة لها على القوافل التجارية
القاصدة عاصمتها . وبلغ من كثرة أولئك المغيرين أنهم اتخذوا لأنفسهم كهوفاً

(1) Kremer : op cit, 134, 136.

(2) Hitti, History of Syria (London 1951) 165.

يقيمون بها ، وكان أحدها يقع بالقرب من دمشق نفسها ، ويضم أربعة آلاف رجل . وظلت هذه الإغارات الشوكية التي تضايق دمشق لأنها آمنت بصفة خاصة طريق القوافل الهام الآتي من بلاد العرب السعيدة (اليمن) إلى إقليم الشام ، والذي يحمل إليها الخير العميم^(١) .

واستهدف البدو من إغاراتهم مشاركة دمشق في ثرائها ، على حين استقر بعضهم في المدينة نفسها حيث جذبهم إليها حدائقها وحقولها الفضة . ومن ثم كان تاريخ دمشق الاقتصادي لا يمكن فصله عن نهر بردى وما أفاضه عليها من خصب وبهاء . فهذه المدينة بدت في نظر جيرانها من البدو ، وغيرهم من التجار والمسافرين الدرة الزاهية وسط عقد يحيط بها من حدائق زمردية اللون ، وكان الفضل في هذا إلى نهر بردى وحده الذي يسقي المدينة وبساتينها ، واستطاع بذلك أن يقطعها من المنطقة المجاورة لها ويجعلها وحدة قائمة بذاتها . فدمشق محاطة من ثلاث جهات بتلال عالية على حين تحف بها الصحراء من الجهة الرابعة ، وتقف وسط هذا المحيط كجزيرة قائمة بنفسها ، لا يربطها بالخارج إلا سفن الصحراء ، التي تهرع إلى المدينة بعد عبورها الصحراء حاملة المتاجر والمسافرين ، حيث تقضى هناك فترة للراحة ومتابعة الرحيل^(٢) .

ويعتبر نهر بردى من الأنهار التي لا ينضب ماؤها ، فهو ينبع من جبال لبنان الداخلية ، حيث تغذي الثلوج جداوله العليا بالمياه ، ثم ينساب الجرى الرئيسي من الشمال إلى سهل دمشق مغذيا حدائقه وأراضيه بالمياه . وكانت أراضي دمشق تحصل على مياهها من نهر بردى في سهولة ويسر^(٣) .

وهكذا تكاتف الموقع الجغرافي ونهر بردى على جعل دمشق غرة إقليم الشام ، وقبلة أنظار أية قوة تظهر في بلاد الشرق الأوسط والأدنى . ولكن

(1) Hitti, op cit, 308.

(2) Feddan, Syrai, 34 ; Hitti, op cit, 472.

(3) Ibid, 742.

أخذت دمشق منذ سنة ٨٥ ق . م تدخل في دور جديد من تاريخها السياسي ،
تجمعت فيه القواعد التي شيد عليها الأمويون فيما بعد صرح دولتهم . إذ دخلت
دمشق في التبعية لأحدى الهجرات البشرية التي خرجت من بلاد العرب ،
وتعرف بهجرة الأنباط^(١) . وإذا كانت دمشق منذ هجرة الآراميين مرتبطة
أشد الارتباط بما ينبع من جوف بلاد العرب من حركات فإن حكم الأنباط
لمدينة دمشق الحجر الأول في بناء صرح دمشق السياسي الذي شمخ وعلا عندما
اتخذها الأمويون مقراً لهم .

وكانت أولى دلائل هذا العهد الجديد هو أن الطابع العربي أخذ يسود
دمشق ، فانتشرت اللغة العربية في أنحاءها ، وأصبحت العبارات العربية تتردد
بين جناباتها ، على حين توالت عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية
البدوية واستقرت في المنطقة المحيطة بها . وكان هذا التيار الجديد يسير مع طريق
القوافل التجارية الآتية من بلاد اليمن ، ويدفعه الرغبة والشوق إلى التمتع بثراء
هذه المدينة الزاهرة .

وأدى استقرار هذه القبائل العربية في المنطقة المجاورة لدمشق إلى درء
أية محاولة تهدف إلى إضعاف الطابع العربي لهذه المدينة . وتجلي ذلك حين
استولى الرومان على دمشق من الأنباط طمعاً في السيطرة على الطريق التجاري
الذي يمر بها . فلم يستطع الرومان وضع مقر حكمهم في الشرق في هذه المدينة خوفاً
من بطش القبائل العربية المضاربة في ضواحيها ، وتركوا المدينة تنعم بحكم
ذاتي عربي . ولما اضطرت الرومان إلى توجيه عنايتهم بهذه المدينة حين نشب
الصراع بينهم وبين دولة الفرس ، فأنشأ بها الإمبراطور دقلديانوس داراً لصناعة
الأسلحة وتزويد الجيوش الرومانية بالعتاد^(٢) .

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

(2) Kremer, op cit, 139.

ولما خلفت الدولة البيزنطية أمها الأمبراطورية الرومانية الكبرى في بلاد الشرق زاد الاهتمام بدمشق ، ولا سيما أن الفرس الساسانيين جاهدوا على إكمال سيطرتهم التجارية في الشرق بالاستيلاء على هذه المدينة التجارية الهامة . وتجلى إدراك البيزنطيين لأهمية هذه المدينة في خط الدفاع البيزنطي ضد الفرس وغيرهم من القبائل العربية التي دأبت على مهاجمة القوات البيزنطية بها في أن الأمبراطور البيزنطي يوليان سماها « عين الأمبراطورية في سائر إقليم الشرق »^(١) . وعمدوا في تقوية هذه المدينة إزاء الأخطار المحيطة بها إلى انتهاج سياسة جعلت في النهاية من دمشق مدينة عربية لحما ودما .

وكانت سياسة البيزنطيين هي اتخاذ قبيلة الغساسنة العربية التي استقرت في منطقة دمشق والصحراء القريبة منها عميلا لها يحمي حدود امبراطوريتها المطلة على أراضي دولة الفرس ، ويدفع عنها إغارات البدو التي تبغى السلب والنهب . وأدت هذه السياسة إلى أن أصبح بلاط الغساسنة يعج بالشعراء والوفود من العرب ، وغدت دمشق قبلة العرب في الجاهلية ينعمون بخيراتها ويأخذون منها ما يحتاجونه من متاجر .

وجهد العرب الغساسنة في الدفاع عن دمشق ومنطقتها أيام الحروب الفارسية البيزنطية كأنما هي وطنهم ، وأكثر من الدفاع عن سائر الحدود البيزنطية . ودفع ذلك السلطات البيزنطية إلى التشكك في نوايا الغساسنة ، وأخذت تعمل على أضعافهم والقبض على رؤسائهم واقصائهم عن إقليم الشام . وكان لهذه السياسة البيزنطية أسوأ الآثار ، إذ سرعان ما غزا الفرس الشام أوائل عهد الأمبراطور البيزنطي هرقل ، واستولوا على دمشق منتهزين فرصة ضعف الغساسنة . ولم يتعرض الفرس بأي تخريب أو أذى لمدينة دمشق ، التي أمّلوا أن يبقوا عليها لتأدية رسالتها في ميدان التجارة والاقتصاد ، ومن ثم ظلت دمشق رغم الاحتلال

(1) Kremer, op cit, 139.

الفارسي محتفظة بطابعها العربي ونظام تخطيطها الحربي ، دون غيرها من المدن الشامية التي أعمل الفرس فيها التخريب (١).

ولكن الاستعمار الفارسي للشام لم يدم طويلاً ، إذا استطاع الامبراطور هرقل أن يعي ، قوات دولته ويحمل الفرس على إخلاء الشام دون أن يصطدم معهم في معارك حربية . إذ سار بجيوشه محرراً من القسطنطينية ، معلناً أن هدفه الزحف مباشرة من آسيا الصغرى إلى أراضي الدولة الفارسية نفسها . فاضطرت الجيوش الفارسية إلى إخلاء آسيا الصغرى والشام والتجمع في بلادها الرئيسية للدفاع عنها . وبذلك ظلت دمشق قائمة دون أن يطرأ عليها تغيير في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الفارسية البيزنطية ، والتي سبقت مباشرة حركة الفتوحات الإسلامية للشام .

على أن السيادة البيزنطية نفسها لدمشق على عهد الامبراطور هرقل امتلأت بأحداث هامة جعلت هذه المدينة بسكانها من العرب يتطلعون إلى إخوانهم في شبه الجزيرة العربية ، الذين أخذ الإسلام يضم صفوفهم ويعلى من شأنهم . ذلك أن الامبراطور هرقل أدرك جنوحاً عند أهل الشام في الانفصام عن جسم الدولة البيزنطية ، وأنهم اتخذوا من اختلافهم في المذهب الديني مع هذه الدولة تكتة للاستقلال . فعمد الامبراطور بعد طرد الفرس إلى نشر مذهب جديد يدعى بمذهب « التوحيد » ، يضم شمل ولايات الامبراطورية البيزنطية جميعاً في صعيد واحد ، ويقضى على عوامل التفرقة بينها . على أن عرب الشام الذين كانوا على الدين المسيحي كرهوا عودة الحكم البيزنطي ، وتشبثوا بمذهبهم القديم معلنين رفضهم في إباء لمذهب هرقل الجديد .

وكان من نتائج إصرار أهل الشام على عقيدتهم الدينية أن عين الامبراطور هرقل في مدينة دمشق حاكماً بيزنطياً أخذ يسوم أهلها العذاب ، ويعاملهم بمنتهى

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

القسوة . وكانت هذه الخطوة البيزنطية إيذاناً بنهاية عهد سيادة البيزنطيين على الشام ، إذ سرعان ما تمّ للإسلام كلمته في بلاد العرب ، وأخذ تيار الفتوحات الإسلامية يتجه صوب الشام لنشر هذا الدين الخفيف . ومن ثمّ بدأ للجيش الإسلامي أهمية الاتجاه صوب دمشق وضمّ عروس الشام إلى رقعة الإسلام .

دمشق الأصوية :

عندما بدأت جيوش المسلمين تغزو أرض الشام أخذ البيزنطيون يعملون جاهدين على عرقلة زحفها حتى تأتيمهم الأمداد من العاصمة البيزنطية . وجاءت النجيدات البيزنطية سريعاً وتجمعت في دمشق للدفاع عنها ، لأن استيلاء المسلمين عليها يحطم سائر خطوطهم الدفاعية الأخرى . على أن السلطات الإسلامية المركزية أدركت خطورة التجمعات البيزنطية في دمشق وعمدت إلى حشد قواتها مجتمعة للتغلب على هذا الخطر . وكانت أولى الخطوات الإسلامية هو إرسال الخليفة أبي بكر إلى خالد بن الوليد ، الذي كان يوالى الفتوحات في العراق ، يأمره بالذهاب إلى الشام على رأس قواته لمساعدة زملائه من القادة المسلمين المقيمين بهذا الإقليم . وبانضمام خالد بن الوليد إلى القوات الإسلامية بالشام أصبح يتولى عمليات الفتح أشهر قادة المسلمين وأكثرهم خبرة بأساليب القتال . فبادروا جميعاً بعد استيلائهم على أجنادين (٣٠ يوليو ٦٣٤م) ، وتأمين خطوط مواصلاتهم مع بعضهم البعض ، بالزحف على دمشق لقطع سبل الاتصال بين الجيوش البيزنطية في سائر مدن الشام والنجيدات التي تأتي إليهم من آسيا الصغرى . واستهل المسلمون نشاطهم في ميدان دمشق بأن شتتوا شمل البيزنطيين في مرج الصفر (٢٥ فبراير سنة ٦٣٥ م) ، وهو سهل يبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من دمشق نفسها . وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام الجيوش الإسلامية للزحف مباشرة على هذه المدينة العتيقة (١) .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ، ١٢٤ ، ١٢٥ ؛ Hitti, op cit, 412, 414

استولى المسلمون على المنطقة المحيطة بمدينة دمشق ، الغنية ببساتينها وحقولها ،
وهي المعروفة باسم « الغوطة » ، وتابعوا سيرهم حتى وقفوا أمام أسوار المدينة التي
تحصنت بها الحاميات البيزنطية . ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين خطط سائر
القادة المسلمين ، الذين كان من بينهم أحد أبناء البيت الأموي . فوزع أولئك
القادة قواتهم على الأبواب الرئيسية لهذه المدينة لتضييق الخناق والحصار عليها ،
وحملها على التسليم . فعسكر خالد بن الوليد على « الباب الشرقي » ، ونزل القائد
الأموي يزيد بن أبي سفيان على « الباب الصغير » ، واختص عمرو بن العاص
« بباب توما » ، على حين نزل شرحبيل على « باب الفرايس »^(١) .

وكانت هذه الأبواب والأسوار الممتدة حول المدينة محصنة تحصيناً قوياً ،
حيث تجنبت عوامل التخريب والهدم رغم ما تعرضت له فيما سلف من هجمات
الفرس أو البيزنطيين . ولذا مكث المسلمون في حصار دمشق ستة أشهر ، جاهدين
على دراسة تحصيناتها وأسوارها ليفيدوا أنفسهم منها ، ويزهقون حامياتها
وأهلها المدافعين عنها . وكانت دمشق كما وجدها المسلمون في حصارهم ، عبارة عن
مدينة مستطيلة الشكل ممتور شطر منها في الركن الشمالي الغربي ، وكان في هذا
المكان قلعة حصينة تداعت منذ زمن بعيد وظل مكانها شاغراً . أما الأسوار
فبلغ ارتفاعها عشرين قدماً وسمكها حوالي خمسة عشر قدماً ، وبنيت من حجارة
متينة . وكانت بعض هذه الأسوار مشيدة على أسس مباني قديمة ترجع إلى
ما قبل العصر الأموي^(٢) .

وتوج أسوار المدينة أبراج بارزة مربعة الشكل ذات أسقف مخروطية الشكل ،
ويبعد كل برج عن الآخر بمسافة قدرها خمسين قدماً . وكانت هذه الأبراج معدة
بما يكفل للمدافعين ، ولاسيما الرماة وسائل الطمانينة ، وكافة ما يحتاجون إليه من

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ، ١٢٧ .

(2) Kremer, op cit, 141.

ذخيرة وعدد . أما الأبواب الكبرى التي يمكن دخول المدينة منها فكانت منظمة بما يحقق الدفاع عن المدينة . فكان كل باب يشمل ثلاث فتحات ، أحداها كبيرة واسعة وهي الوسطى ، وفتحتان صغيرتان على جانبي هذه الفتحة الوسطى . واقتصرت الفتحتان الجانبيتان على حركة مرور الناس ، إحداها للخروج والأخرى للدخول ، أما البوابة الوسطى فكانت تستخدمها الجنود أو قوافل الجمال وغيرها من دواب الحمل . وزاد في منعة هذه الأسوار وأبوابها خندق عميق يحيط بها ويزود بالماء من نهر بردى ، حتى لا يستطيع المهاجمون الاقتراب منها^(١) . ولذا لم يكن عجيباً أن تقضى القوات الإسلامية مدة ستة أشهر في حصار دمشق . ولكن امتازت هذه القوات بالمثابرة في الحصار وبأن روحها المعنوية ظلت عالية . وكان جيش يزيد بن أبي سفيان خير نموذج لهذه الصفات التي تجلت في الجند الإسلامي ، إذ عبر أحد جنده ويدعى عبد الرحمن بن صهيل عن روح زملائه المعنوية في أبيات من الشعر، تكشف كذلك عن قرب سقوط دمشق في أيدي المسلمين^(٢) .

وتشير بعض المراجع إلى أن جيش يزيد استطاع أن يدخل دمشق عنوة من « الباب الصغير^(٣) » ، ولكن حدث في تلك الاثناء أن السلطات البيزنطية في دمشق فاوضت خالد بن الوليد على تسليم المدينة بعد أن أدركت إصرار المسلمين على الاستيلاء عليها . وتم تسليم دمشق في سبتمبر سنة ٦٣٥ م بعد أن غادرتها الحامية البيزنطية ، ثم دخلتها سائر الجيوش الإسلامية . ومنح خالد بن الوليد أهلها عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم ، وصدق على هذا العهد سائر القادة

(1) Kremer, op cit, 141.

(٢) قال ذلك الشاعر :

أبلغ أبا سفيان عنا بأننا على خير حال كان جيش يكونها
وأنا على نابي دمشق نرتمي وقد حان من بابي دمشق حينها

أنظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ص ١٧ .

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

المسلمين ، بما فيهم يزيد بن أبي سفيان ، مما يوضح اتفاق كلمة المسلمين في سياستهم
إزاء المدن المفتوحة .

ويعتبر هذا العهد الذي نالته دمشق نموذجاً للأجراءات التي اتبعها المسلمون
فيما بعد مع سائر مدن الشام الأخرى التي تم لهم فتحها . وجاء في نص وثيقة التسليم
« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق ، إذا دخلها
أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنفائهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ،
ولا يسكن شيء من زورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم
والخلفاء المؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية »^(١) .

وإذا كان تسليم دمشق يعد من أهم أحداث الفتح الإسلامي ، فإن تعيين
القائد الأموي يزيد بن أبي سفيان حاكماً عليها من قبل القائد العام للجيش
الإسلامية ، وهو أبو عبيدة بن الجراح ، يعد حدثاً هاماً آخر في التاريخ الإسلامي
لا يقل عن تسليم المدينة نفسها . إذ أصبح يهيمن على هذا المركز الحضاري القديم
في بلاد الشرق أحد أبناء البيت الأموي ، الذي آل على نفسه إعادة هذه المدينة
إلى سيرتها الأولى وسالف عظمتها بين دول العالم . واتضح أهمية تعيين يزيد
واليا على دمشق حين اختطفه الموت من مسرح بلاد الشام ، إذ عهد الخليفة
عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان إدارة الجهات التي كانت تابعة لأخيه
يزيد بن أبي سفيان . وهكذا أخذت تنمو في دمشق بذور دوحه البيت
الأموي ، التي ترعرعت على عهد معاوية ، وأخذت تظل هذا المعقل الحضاري
وتزوده بثمار جديدة .

وبدت طلائع العهد الجديد ، الذي نعمت به دمشق إبان ولاية معاوية
ابن أبي سفيان ، حين أخذ المسلمون الفاتحون يمتزجون مع أهالي دمشق . وكان

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .

أولئك الفاتحون قد استقروا بادي الأمر في الأماكن التي هجرها البيزنطيون في الطرف الشمالي الغربي من المدينة بالقرب من نهر بردى . ولم يجدوا في مقرهم الجديد أي وحشة ، حيث كان يقطن في الجهات الصحراوية القريبة منهم عرب من بني جلدتهم وفدوا إليها منذ زمن بعيد^(١) . وكان أولئك العرب ممن ساعدوا الفاتحين في الاستيلاء على دمشق ، وقدموا لهم كافة ما احتاجوا إليه من تسهيلات . وسرعان ما تم الامتزاج بين الفريقيين وتعاونوا على العمل لما فيه رفاهية مدينتهم في ظل العهد الجديد .

X

وزاد الامتزاج بين المسلمين وأهالي دمشق في الفترة التي أصبح فيها معاوية يحكم الدولة الإسلامية بأسرها من دمشق ، بعد أن نودي به خليفة على المسلمين ، ودعم أركان البيت الأموي في هذه العاصمة الجديدة . إذ غدت دمشق حاضرة العالم الإسلامي ، تتطلع إليها أنظار سائر الولاة المسلمين في شتى الأرجاء يتلمسون منها الهداية والإرشاد . وبدأت دمشق منذ تلك الفترة تفقد ما علق بها من صفات العهد البيزنطي البائد وتستبدل بها مظاهر إسلامية عربية . وظهرت دلائل هذا الانقلاب حين أخذت قبائل عربية عديدة تهاجر من بلاد العرب وتغد إلى المنطقة المجاورة لدمشق . فقد أدت هذه الهجرات إلى اتساع رقعة دمشق ، وكثرت أحيائها ، إذ أقامت القبائل العربية في أحياء خاصة بها ، بكل منها مسجد خاص وسوق خاص . ويفصل كل حي من الآخر باب خاص ، حتى أصبحت هذه الأحياء أشبه بمدن صغيرة . واتخذت القبائل الأخرى التي لم تستقر في قلب المدينة منازل لها في ظاهر دمشق حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض^(٢) .

واحتفظت مدينة دمشق على عهد معاوية بمبانيها العامة وأسوارها وأبوابها .

(1) Kremer, op cit, 147; Encyc. of Islam, (art Damascus).

(٢) ابن عساکر، نفس المرجع، ٢٤٣؛ Kremer, op cit 147.

فظلت مستطيلة الشكل على نحو ما كانت عليه من قبل ، ويشقها نفس الطرق الرئيسية التي وجدت منذ العصر البيزنطي . فكان يشق دمشق طريق سمي « بالشارع الأعظم » ، ولكنه عرف غالباً باسم « المستقيم » ، وبلغ طوله ١٦٠٠٠ متراً ، ويمتد من الشرق إلى الغرب ، ويضم على جانبه ممران أحدهما للمشاة والآخر للركبان^(١) . وكذلك بقيت مظاهر النشاط الاقتصادي والاجتماعي بالمدينة مركزة في الأحياء التي كانت عامرة بها أيام الحكم البيزنطي . فكان قلب المدينة النابض يقع بالقرب من كنيسة القديس يوحنا ، التي حولها الأمويون فيما بعد إلى الجامع الذي نسب إليهم . وأقام معاوية بالقرب من هذه الكنيسة « قصر الخضراء » الذي اتخذ مقرأ له ومركزاً لإدارة حكومته . وكانت الخضراء من المباني التي شيدت من قبل أيام السيادة البيزنطية ، فجددها معاوية بأن هدم المتداعي منها ، وبنها بالطوب أولاً ، ثم ما لبث أن أعاد بناءها من الحجارة . وزين هذا القصر بالذهب والمرمر ، وحجراته بالفسيفساء ، وأحاطه بالحدائق الغناء^(٢) . وقد أشاد بهذه الأوصاف أحد الرحالة المسيحيين الذي وفد من غرب أوروبا في زيارة للشرق بعد انتشار الإسلام في مصر والشام بثلاثين سنة . إذ زار هذا الرحالة المدعو « أركولف » إقليم الشام في خلافة معاوية وأشار إلى احتفاظ دمشق بظاهر نشاطها السابق قبل دخولها في حظيرة الإسلام^(٣) .

ولم تلبث دمشق بعد عهد معاوية أن شاهدت حركة واسعة في البناء والتعمير ، وغدت مدينة إسلامية محصنة . وكانت دلائل هذا العهد الجديد بناء المسجد

(1) Encyc. of Islam (art Damascus)

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٣ ؛ Encyc of Islam (art Damascus) ؛
Sayed Ameer Ali, A short History of the Saracens 169

(٣) عبر عن ذلك أركولف قائلاً :

« in que (Sc. Ciuitate) Saracenorum rex adeptus eius principatum regnat, et ibidem in honorem Sancti Johannis baptistae quandis fundata ecclesia incredulorum et ipsa in eadem ciuitate, quam ipsi frequentant, fabricate est. »

الأموي ، إذ استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ م على كنيسة دمشق المعروفة
بكنيسة القديس يوحنا ، وأقام عليها المسجد المسمى بالجامع الأموي . وأدخل
الوليد من التعديلات الكثيرة على مظاهر الكنيسة القديمة بما جعلها تأخذ صبغة
مسجد إسلامي رائع ، وجعل له مآذن جميلة كان أهمها المئذنة الشمالية . وكانت
هذه المئذنة تستخدم منارة لكشف أى حركة هجوم قد يشنها عدو على المدينة ،
وأصبحت نموذجاً يحتذى فى سائر المباني التى شيدت فيما بعد فى سائر أنحاء
دمشق والشام . وبذل الوليد جهداً عظيماً فى هذا المسجد ، الذى أصبح رمزاً
لعظمة المسلمين فى الشام ، وشاهداً ينطق بقوة دولتهم أمام الزائرين من الأقطار
المختلفة . فيروى أن الوليد قضى فى بنائه تسع سنين ، وأنفق عليه خراج مملكته
سبع سنين ، حتى أصبح يضم من الروائع ما جعل الإنسان « لو عاش مائة سنة
وكان يتأمله كل يوم ، لرأى فى كل يوم ما لم يره فى سائر الأيام من حسن صنائعه
واختلافها »^(١) .

وكان أهم مظهر اشتهرت به دمشق على عهد الأمويين إلى جانب مسجدها
الجامع هو نظام مياه الشرب ، وتحقيقه أسباب الرفاهية والراحة لجميع سكانها .
فقد بذل الأمويون جهداً كبيراً فى تنظيم مياه نهر بردى الذى تعتمد عليه المدينة
وغوطتها . ووصف ياقوت هذا النهر واعتماده على الينابيع وانسيابه إلى دمشق
وحداتها قائلاً : « بردى أعظم نهر دمشق ، يخرج من قرية ... على خمسة
فراسخ من دمشق مما يلى بعلبك ، يظهر الماء من عيون هناك ، ثم يصب إلى
قرية ... على فرسخين من دمشق ، وتنضم إليه عين أخرى ... فإذا صار ماء
بردى إلى قرية يقال لها دُمَر افترق على ثلاثة أقسام ... وتمتزج هذه الأنهر
الثلاثة بالوادي ثم بالغوطة حتى يمر بردى بمدينة دمشق فى ظاهرها »^(٢) .

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

استغل الأمويون مياه بردى في إمداد البيوت الكبيرة والصغيرة على السواء بما تحتاجه منها ، فزودوها بأحواض خاصة تنبثق منها المياه ، على حين حفرُوا سبع جداول رئيسية تناسب في أنحاء المدينة لضمان إمداد المنازل بالمياه من مجرى النهر الرئيسي . وتولى الخلفاء الأمويون العناية بمجاري بردى الرئيسة ، ورعايتها خالفاً عن سالف . قشق يزيد بن معاوية النهر الذي عرف باسمه ، وكان هذا النهر في الأصل مجرى صغير به قليل من المياه تروى ضيعتين في منطقة الغوطة . وفي خلافة معاوية آلت ملكية هاتين الضيعتين إلى الخلافة وإدارتها . فلما ولي يزيد وجد أن الأرض التي تحيط بهاتين الضيعتين واسعة وتفقر إلى الماء لإصلاحها واستثمارها . فأمر بتوسيع النهر الصغير الذي كان يروى الضيعتين وأصبح نهراً كبيراً عرف باسمه تخليداً لاهتمامه بمياه دمشق وتنظيمها ^(١) .

وبذل الخلفاء الأمويون جهوداً كبيرة في دراسة مياه بردى وتنظيمها بما يكفل للجميع الراحة والهناء . ففي خلافة سليمان بن عبد الملك قلت المياه في نهر بردى ، وشكا الناس إلى الخليفة الحال التي أصبح عليها النهر . فعهد سليمان إلى مهندس من رجاله بدراسة جهات يمكن أن يوجد بها عيون ماء جديدة تكفل تحسين مستوى مياه بردى . وتمت الدراسات على عهد الخليفة هشام ، واستفاد من العيون الجديدة بحفر قنوات أخرى إلى سائر الضياع التي شكت من قبل قلة المياه ؛ ثم نظم بعد ذلك توزيع المياه بالتناوب على نهيرات دمشق ، وزود كل منها بما تحتاجه من المياه . وغدت هذه الأنهار مما ينتفع به الداني والقاصي « وينقسم منها الماء إلى الأرضين في الجداول . . . ويدخل من بعدها إلى البلد في القنى ، فينتفع به اناس الانتفاع العام على الوجه الهني ، ويتفرق إلى البرك والحمامات ويجرى في الشوارع والسقايات ^(٢) » .

(١) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

وهكذا خلق الأمويون من دمشق عاصمة زاهرة جديدة بأن تصبح المدينة الأولى في العالم الإسلامي ، وتضم أسباب الرفاهية لسكانها ورفع شأنهم في العالم المجاور لهم . وكانت هذه المنزلة الرفيعة التي نالتها دمشق على عهد الأمويين مشار تنافس بينها وبين مدينة القسطنطينية . إذ عز على هذه المدينة الأخيرة التي كانت منذ زمن غير قصير سيده دمشق أن ترى تابعها تبذرها سلطانا وهاءا . ونشب بين المدينتين صراع استطاعت فيه دمشق أن تلتحق القسطنطينية درسا ، خلاصته أن الدين الإسلامي جعل من الشرق وحدة متماسكة تشد بعضها بعضا ، وأنها أصبحت بفضل خلفاء بني أمية رمز هذه الوحدة الجديدة ، ومطربة تكميل لها أشد الضربات في سبيل إعزاز دولة الإسلام الناشئة والدفاع عنها .

نشأة القسطنطينية

في الفترة التي خرجت فيها هجرة الأنباط من بلاد العرب ، وأخذت تصبغ إقليم الشام وحاضرتة دمشق بأولى ألوان الطابع العربي وهيأتها لتبوء مركز الصدارة فيما بعد على العالم الإسلامي زمن الأمويين ، كانت هناك هجرة بشرية مماثلة قد سبقت هجرة الأنباط بقليل ، خرجت من بلاد اليونان واستعمرت شواطئ آسيا الصغرى الغربية والشامية ، وتمخضت عن ميلاد مدينة عرفت فيما بعد باسم القسطنطينية ، منافسة دمشق أيام بني أمية . وكان أنشط جماعات اليونان في هذه الهجرة هم سكان مدينة ميجارا ، إذ اتصفوا بالمهارة والمقدرة الحسنة في اختيار أصلح الأماكن التي يشيدون عليها صرح مستعمراتهم ومدنهم الجديدة . فأسس بعض أولئك السكان مدينة خلقدونيا على الشاطئ الأسوي قبالة مضيق البسفور ، حيث يتمتع هذا المكان بمميزات جغرافية هامة ^(١) .

(1) Runciman, Byzantine Civilisation, 11.

على أن فريقاً آخر من سكان ميجارا بذأقرانه جميعاً في انتقاء المواضع التي تشيد عليها المستعمرات ، إذا انتقل إلى الشاطئ الآخر الأوربي المطل على البسفور قبالة مدينة خلقدونيا ، وأسس لنفسه في هذا المكان الجديد مدينة عرفت باسم بيزنطة (Byzantium) . وحببت الطبيعة هذا المكان بمميزات جميلة جعلته يتحكم في مفرق طرق هامة . ذلك أن مساحتين كبيرتين من الماء وهما البحر الأسود وبحر إيجه يفصلان قارة أوربا عن جنوب غربى آسيا . ولكن يمتد بين البحرين إقليم تراقيا قبالة آسيا الصغرى ، ويقترب الشاطئان الآسيوى والأوربي حتى لا يفصلهما عن بعضهما البعض سوى مجريان ضيقان فقط ، هما البسفور والدردينيل وبحر مرمرية الممتد بينهما (١) .

ويعد مضيق البسفور الذى أسست عليه مدينة بيزنطة أسهل الممرات التي يمكن عبورها بين آسيا وأوربا . إذ أن المسافرين عبر هذا المضيق يتجنب تسلق جبال آسيا الصغرى ، على حين يجد طريقه إلى أوربا بعد اجتياز المضيق سهلاً ميسوراً عن طريق جبال تراقيا . ولذا أصبح المسافرون والتجار بين أوربا وآسيا يبرون بمدينة بيزنطة ، على حين تسير بالقرب من شواطئها السفن التي تبحر بين البحر الأسود وبحر إيجه متجهة إلى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن البسفور يقع في ممر طريقين هامين من طرق التجارة الكبرى بين أوربا وآسيا ، ويكفل المدن التي تقام عليه سيطرة تجارية فضلاً عن الموقع الممتاز (٢) .

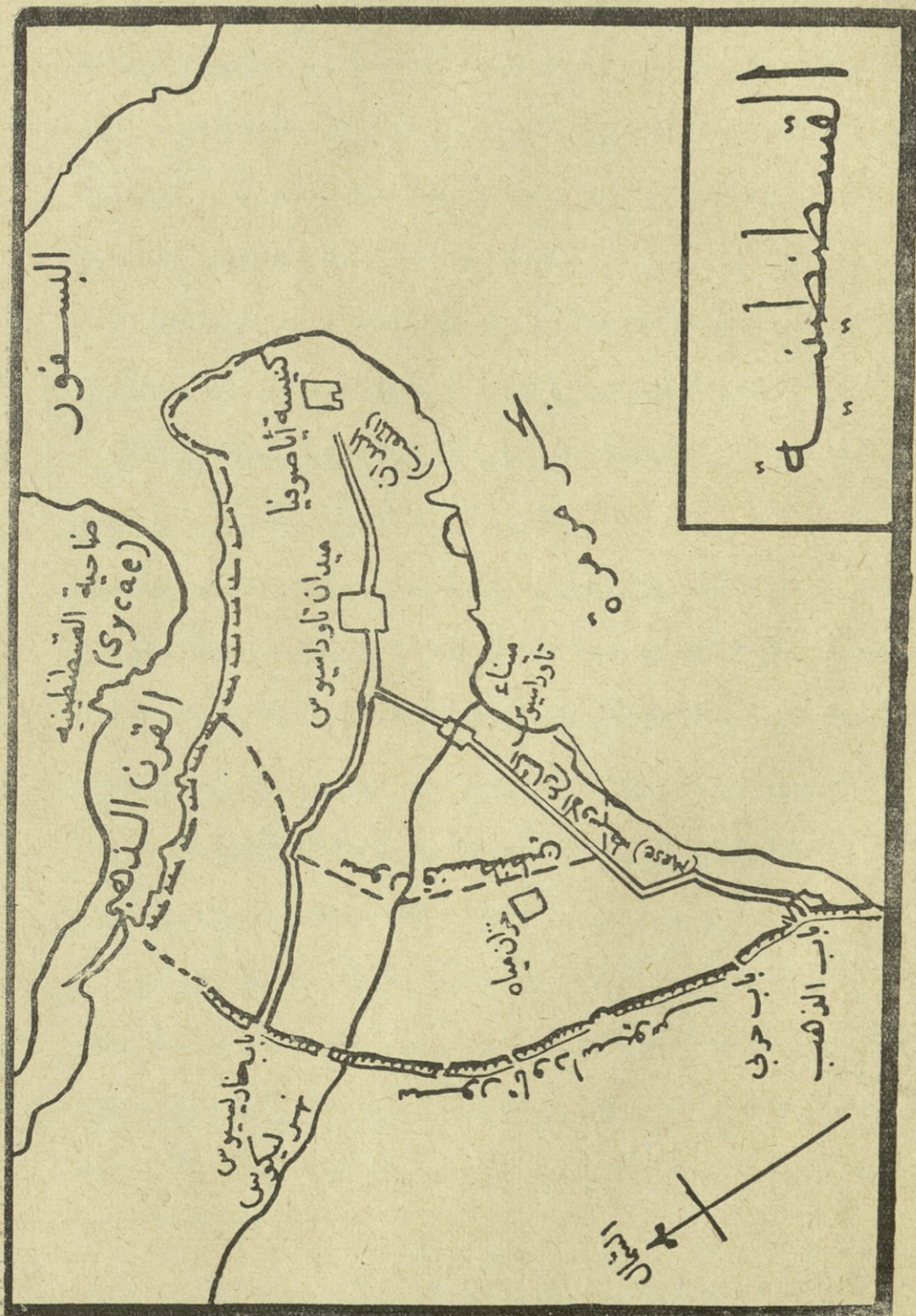
وإذا كانت بيزنطة تشترك مع خلقدونيا في أن كلا منهما يطل على البسفور ، إلا أن الأولى بذت الأخرى بسبب تمتع الشاطئ الأوربي بمميزات يفترق إليها الشاطئ الآسيوى . إذ قبل اتصال مياه البسفور وبحر مرمرية يمتد داخل الشاطئ الأوربي خليج عظيم طوله سبعة أميال في انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله

(1) Runciman, op cit, 11 ;

Bury, History of the later Roman Empire (1931) , 67.

(2) Runciman, op cit, 11, 12.

القسطنطينية



يعرف في التاريخ بالقرن الذهبي . وأصبح محصوراً بين القرن الذهبي وبحر مرمرية رأس أرضية تلالية على شكل مثلث متساوي الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل الشاطئ الأسيوي^(١) . فكانت أي مدينة تقام على هذا الرأس تنعم بميناء طبيعي يهيء لأساطيلها مرفأً آمناً هادئاً ، فضلاً عن الحصانة من ناحية البحر ، لأن المياه تحيط بها تقريباً من جميع الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية ، وقبضت بيزنطة على ناصية هذه المميزات الهامة وحدها .

على أن مناخ مدينة بيزنطة شاب مميزاتها الجغرافية وانتقص منها . إذ يهب على المنطقة التي تقع فيها المدينة رياح باردة في فصل الشتاء ومطالع الربيع تأتي من الاستبس الأسيوي وتعبر البحر الأسود . وكان المستعمرون الأغريق يقشرون من زمهرير هذه الرياح ، ولا سيما أنهم اعتمدوا الحياة في وديان بلاد اليونان التي تقيهم شر هذه الرياح . ولم يقتصر سوء المناخ على ذلك ، إذ أن الصيف في هذه المنطقة حار جداً ، مما يجعل الإقامة فيها أمراً غير محبوب . وامتدت آثار هذه الرياح السيئة إلى الملاحة في مياه هذه المدينة ؛ إذ أن هذه الرياح الشمالية تعرقل سير السفن في تيار البسفور المتجه جنوباً وتعوقها عن السير حول رأس مدينة بيزنطة والوصول إلى القرن الذهبي . فالرياح تسير في نفس اتجاه التيار المائي وتزيد من صعوبة الملاحة فيه^(٢) .

وظل هذا المناخ من أهم العوامل التي أعجزت مدينة بيزنطة عن النمو والازدهار مدى ألف سنة بعد تأسيسها . ولكن سرعان ما ظهرت أهميتها وما تمتعت به من موقع فريد حين بدأ الصراع بين قوى الشرق والغرب على السيادة والسيطرة . فاهتمت أثينا بمدينة بيزنطة إبان الحروب البلبونيزية^(٣) لأنها المدخل المؤدى إلى

(1) Bury, op cit, 7, 8.; Runciman, op cit, 12.

(2) Runciman, op cit, 12; Bury, op cit, 7, 8.

(3) نشبت الحروب التي عرفت باسم البلبونيزية بين أسبرطه وحلفاءها من المدن اليونانية وبين امبراطورية أثينا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد .

شواطئ البحر الأسود الشمالية ، حيث تحصل على ما تحتاجه هناك من غذاء من حقول القمح الغنية . واعتبرها فيليب المقدوني وابنه الاسكندر الأكبر البوابة الرئيسية التي تؤدي إلى آسيا^(١) . ثم جاء أباطرة الرومان أخيراً وأدركوا أهمية هذه المدينة التجارية في حلقة الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، فأقاموا بها جنداً نظامياً من الرومان لمساعدة الجند المحلي على حفظ الأمن بها وتنظيم أحوالها^(٢) . وأخذت مدينة بيزنطة منذ عهد الرومان تتأرجح علواً وانخفاضاً ، إذ سرعان ما ثارت على السلطات الرومانية مما حدا بأباطرة الرومان على منع أهالي المدينة من تسليح أنفسهم أو بناء حصون لهم . وظلت المدينة على هذا النحو من الحياة المستكينة حتى عهد الامبراطور دقلديانوس . فقد ظهر إذ ذاك جماعة من القوط^(٣) أقاموا على شواطئ البحر الأسود الشمالية ، واحترفوا القرصنة وأخذوا يتوغلون بسفهم حتى بحر إيجه عبر السفور للقيام بأعمال النهب والسلب . فاضطر الامبراطور دقلديانوس إلى إعادة تسليح المدينة وتقوية أسوارها وحصونها لتقف سداً مانعاً في وجه القراصنة القوط^(٤) .

ولم تلبث مدينة بيزنطة أن دخلت في دور جديد من أدوار حياتها حين بدأ النزاع على العرش الروماني بين الامبراطور قنسطنطين الكبير ومنافسه ليكينيوس . إذ اتخذ الأخير مدينة بيزنطة مقراً لإدارة دفة عملياته الحربية وحصنها يحتمي به من منافسه القوى . ولكن تحطمت آمال ليكينيوس في النصر حين حطم قنسطنطين أسطوله في السفور وأتبعه بايقاع هزيمة بجندة . وسيطر قنسطنطين على المدينة وأصبح السيد المطلق في الدولة الرومانية . ولكنه لم يرض الطرف

Runciman, op cit, 12. (١)

Charlesworth, Trade Routes, 118 , 119. (٢)

(٣) القوط جماعات جرمانية اقتربت من حدود الامبراطورية الرومانية الكبرى ، وأخذت تغير على أراضيها تبتغى لنفسها العيش بها والنهب أحياناً .

Runciman, op cit, 13. (٤)

عن هذا الموقع الممتاز الذي كشفه في مدينة بيزنطة خلال حروبه السالفه ، وبدأ يستغله بما فيه الصالح العام لأمبراطوريته^(١) .

وكانت الأمبراطورية الرومانية قد أحست منذ عهد دقلديانوس ضرورة تعديل نظمها الإدارية لمواجهة الأخطار الملحة التي حاطت بها على حدودها الشرقية . فكانت حدودها مهددة بعناصر جديدة من القبائل الجرمانية التي أخذت تنثال على أراضي الدولة في الشرق تبغى العيش والاستقرار فيها ؛ فضلا عن أخطار دولة الفرس العدو المزمع لها . واضطر الأباطرة الرومان إلى البحث عن مكان يقيمون به بالقرب من الحدود الشرقية لدفع هذا الخطر ، وأحسوا أن عاصمتهم روما لم تعد صالحة لأن تكون مركز امبراطوريتهم العتيدة . فأقام الامبراطور دقلديانوس في مدينة نيقوميديا خاصة ليستطيع مراقبة الأحداث على الجبهة الشرقية .

ولما جاء الإمبراطور قنسطنطين سار على نهج دقلديانوس في ضرورة البحث عن مقر في الشرق يتخذ عاصمة جديدة للدولة الرومانية بعدما حاط بها من أخطار جسيمة . وتعلقت أفكاره ببعض مدن آسيا الصغرى وتنقل بينها ليدرس أحوالها . ولكن حين نشب الصراع بينه وبين ليكيينيوس ، ورأى أن منافسه قد اتخذ من مدينة بيزنطة معقلا يحتوى به تفتحت عيناه واسعة عن أهمية هذه المدينة ، وزاد إدراكه لأهميتها بعد أن تم له الفوز ، ووقف على مميزاتها الطبيعية البرية والبحرية . وسرعان ما زال عنه التردد في اختيار مقر جديد لحكمه ، وانتقى بيزنطة لينقل إليها عرش إمبراطوريته .

وفي نوفمبر سنة ٣٢٤م أرسل الإمبراطور قنسطنطين المهندسين والمخططين إلى مدينة بيزنطة وضواحيها للبدء في تعميمها وبنائها ، بما يجعلها جديرة بتولى إدارة شئون الإمبراطورية الرومانية ومقر الجالس على عرشها . وتمت عمليات البناء

(1) Runciman, op cit, 13.

والتعمير بعد خمس سنوات ونصف سنة ، واحتفل الامبراطور بانتقال ملكه إلى العاصمة الجديدة في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م . وأطلق قنسطنطين على هذه المدينة اسم روما الجديدة تشبها بروما القديمة ، ولكن رعاياه أبوا إلا أن يسموها القسطنطينية نسبة إليه واعترافاً بفضلله ، شأن أى عمل جليل يقرن دائماً باسم صاحبه^(١) .

وهكذا ارتفعت مدينة بيزنطة ، المستعمرة الإغريقية ، إلى مصاف المدن الكبرى العالمية ، واستطاعت أن تظل محتفظة بمكانتها السامية التي نالتها إلى أمد طويل . ذلك أن العناصر الجرمانية المهاجمة لأطراف الإمبراطورية الرومانية استطاعت أن تستولى على الأراضى الرومانية في غرب أوربا وأسست لنفسها هناك دولا ، ولكنهما لم تستطع القيام بأشبه ذلك في الأراضى الرومانية في الشرق بفضل يقظة القسطنطينية وأباطرتها . وحدا هذا المظهر الجديد إلى تسمية التراث الباقي من الإمبراطورية الرومانية باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى الاسم القديم لحاضرة الإمبراطورية ، ودلالة على العهد الجديد الذى أخذ يظل بلاد القسم الشرقى من الامبراطورية العتيدة .

القسطنطينية البيزنطية :

لم يكن ارتفاع مدينة بيزنطة إلى مصاف العواصم الكبرى أمراً أفقدها طابعها القديم أو أكسبها سمة جديدة . إذ ظلت هذه المدينة محتفظة بطابعها الإغريقى دون أن تؤثر عليها اللاتينية السائدة في روما العاصمة القديمة . فاضطر الأباطرة الذين أقاموا بها أن يعرفوا اللسان اليونانى حيث عاشوا في وسط جديد يتحدث بهذه اللغة ، ويحرص على الاحتفاظ بترائه الثقافى الإغريقى . كذلك جهد أولئك الأباطرة الذين أقاموا في العاصمة الجديدة على الإفادة من مميزات مدينتهم الطبيعية واستغلالها لما فيه صالح الدفاع عنها . ومن ثم أضحت هذه المدينة

(1) Runciman, op cit, 14.

رغم توالى العصور ثابتة الدعائم ، حرية أن تجمع بين اسمها القديم لخلود مظاهرها القديمة وبين اسمها الجديد لمكانتها الجديدة في الامبراطورية الرومانية الشرقية. ورسم الامبراطور قنسطنطين خلفائه من بعده السياسة التي يسرون عليها للنهوض بأمر عاصمة ملكهم الجديدة ، وتوجيهها لمهمة الدفاع عن كيان امبراطوريتهم . ونجحت سياسته لأنها قامت على القواعد الرئيسية الكبرى التي حرص القدامى على اتباعها لإعلاء شأن مدنهم والمحافظة عليها . فحصر الامبراطور قنسطنطين عاصمته بأن بنى لها حائطا في الجهة البرية يمتد من البسفور إلى القرن الذهبي ، بحيث أصبح هذا الحائط قاعدة المثلث الذي قامت عليه بيزنطة . ولكن المدينة لم تلبث إن اتسعت بسبب كثرة سكانها ، مما اقتضى إحداث تجديدات وتغييرات جوهرية في وضع الحائط وبناءه . فكان الحائط ينقل تدريجيا إلى المنطقة الخلفية بحيث يضم البقاع الجديدة التي تعمر بسكان العاصمة^(١) . وكان يدفع الأباطرة على تجديد هذا الحائط أيضا باستمرار الزلازل التي تكرر حدوثها في منطقة القسطنطينية وتخطيطها بعض تحصيناته . وكان أهم هذه الهزات الأرضية الزلزال الذي حدث سنة ٤٤٧م وإصابته الحائط بأضرار جسيمة . فاقضى ذلك تجديد بناء أسوار المدينة وحائطها ، وظلت على هذا الطابع الأخير دون تغييرات جوهرية^(٢) حتى وقفت أمامها جيوش المسلمين . ويعتبر هذا الحائط جزء لا يتجزأ من المدينة ومن نظام تخطيطها ، كما أنه كان أول نقطة في سياسة الامبراطورية العامة في تنسيق وسائل الدفاع عن أراضيها ، حتى أصبحت شئون هذا الحائط المقياس الذي يتحكم في طول أعمار الحكومات البيزنطية وقصرها . وانقسم هذا الحائط إلى عدة مناطق لكل منها تصنيفاتها الخاصة . فكان يشمل جداراً داخليا يحيط بمباني المدينة ويكون خط الدفاع الرئيسي عنها .

(1) Bury, op cit, 68.

(2) Ibid, 70.

ولذا بلغ سمك هذا الجدار ١٤ قدماً ، عليه أربعة وتسعون برجاً شديدة الارتفاع ،
ويبعد كل واحد عن الآخر بمسافة قدرها حوالي ٥٠ متراً . وكانت هذه الأبراج
مقرّ حراس يرابطون فيها بصفة دائمة ، وعلى أهبة الاستعداد لرد أي عدوان يقع
على المدينة . إذ يشتمل البرج على دهليز ين ، يحوى أحدهما الذخيرة والعتاد الضروري
والآخر يقيم به الجنود . ثم يحيط بهذا الجدار الداخلي سور خارجي يفصل بينهما
مسافة سعتها تتفاوت بين خمسين إلى أربعة وستين قدماً^(١) .

والسور الخارجي أقل سمكاً من الجدار الداخلي ، إذ يتفاوت سمكه بين قدمين
وست أقدام ونصف قدم . وله تقريباً نفس أبراج الجدار الداخلي ، إذ تبلغ ستة
وتسعون برجاً يتفاوت ارتفاع كل منها بين ثلاثين وخمسة وثلاثين قدماً . وأحاط
بهذا السور جسر من الأرض عرضه ٦١ قدماً ، ثم يدور حول هذا الجسر خندق
عرضه كذلك ٦١ قدماً ، ولكن عمقه يتفاوت من مكان إلى آخر . وهذه
الأسوار البرية أتمت حلقة تحصين القسطنطينية ، التي تولى البحر حماية جهاتها
الثلاثة الأخرى^(٢) . ويتضح من استعراض هذه الأسوار وتحصيناتها مدى
مبادلتها السلطات البيزنطية من نفقات في سبيل صيانتها والاحتفاظ بها معدة دائماً
لدفع الأخطار عن المدينة .

وكانت تجتاز هذه الأسوار وتحصيناتها من عشرة أبواب رئيسية ، خمسة منها
خصصت للأغراض الحربية وانتقال الجيوش عبرها ، والأخرى اقتصر على
استعمال المدنيين وشؤونهم . ورتبت هذه الأبواب بحيث يكون هناك باب حربي
وعلى بعد منه باب مدني ثم باب حربي ، وهكذا حتى يتم وضع الأبواب الحربية
والمدينة بالتبادل عبر الأسوار . وكانت أعظم هذه الأبواب وأهمها « باب الذهب »
الذي شيده الإمبراطور تاوداسيوس العظيم (٣٧٩ — ٣٩٥ م) تخليداً لذكري

(1) Bury, op cit, 70 , 71.

(2) Ibid, 71,

انتصاره في القضاء على ثورة عاتية أعلنها أحد أعدائه ومفاسيه . واشتمل هذا الباب على ثلاث فتحات أشبه بأبواب دمشق الرئيسية ، منها فتحة كبرى في الوسط وعلى جانبيها الفتحتان الأخرتان . وكان هذا الباب أقرب أبواب المدينة لبحر مرمرية ويتلوه سائر الأبواب الأخرى التي تضمها الأسوار^(١) .

أما الأبواب الأربعة الأخرى الرئيسية الحربية ، فكانت تحمل أسماء « باب ميلانتياس Melantias » و « باب ريجيون Rhegion » و « باب القديس رومانوس St. Romanus » و « باب خاريسيموس Charisius » . وكان الجزء من السور الممتد من باب القديس رومانوس إلى باب خاريسيموس يعرف بالحائط الأوسط ، واستهدف دائماً لهجمات الأعداء على المدينة ، حيث اعتبروه أصلح بقعة للهجوم على قلب المدينة . على أن هذه الأبواب قسمت سور المدينة إلى ست مناطق حربية للدفاع عنها ، قام بحراسة كل جزء منها فيلق من فيالق الجيش ، يتعاونون فيما بينهم بما يحقق للمدينة السلامة والطمأنينة^(٢) .

وإلى جانب هذا السور البري العظيم أنشأ الأباطرة جدراناً للدفاع عن المدينة من ناحية البحر . وكانت تحيط بجميع الجهات البحرية ، وتعتمد على القلاع والحصون أكثر من اعتمادها على سمك الجدار وضخامته . فكان على امتداد القرن الذهبي وبحر مرمرية أسوار بحرية تتصل بخط الدفاع البري الذي تم إنشاؤه في القرن الخامس الميلادي . وأصبحت المدينة الجديدة التي أسسها الإمبراطور قسطنطين تامة الحصون ومستكملة لوسائل الدفاع عنها على عهد خلفائه^(٣) . وكان الدافع على هذا النشاط الحربي الذي بذله الأباطرة لإعداد القسطنطينية رغبتهم في جعل عاصمتهم تبرز روما العاصمة القديمة في المنعة والقوة ، وتشجيع الناس

(1) Bury, op cit 71.

(2) Ibid, 71 , 72.

(3) Ibid, 72.

على الانتقال إليها بجعل وسائل الطمانينة مكفولة لهم . وقد وقفت هذه الأسوار
سداً منيعاً حتى بطش بها المسلمون على عهد الأمويين ثلاث مرات كبرى .

وقامت إلى خارج أسوار القسطنطينية خلف القرن الذهبي ضاحيتان هامتان
من ضواحي المدينة ، أشبه باقليم الغوطة الواقع خارج أسوار دمشق . وكانت هذه
الضواحي مهمة في حياة القسطنطينية لأنها تطل على القرن الذهبي أعظم موانئ
العاصمة . ولذا حرصت السلطات البيزنطية على إيجاد حلقة اتصال بينها وبين هذه
الضواحي ، فأعدت سفناً منظمة تعبر الخليج جيئة وذهاباً ، فضلاً عن إنشاء جسر
خشبي عليه ، ولكن لم يلبث أن أعيد بناء هذا الجسر من الحجر ^(١) . وكانت
هذه الضواحي قبلة أنظار مهاجمي القسطنطينية ، يعملون على الاستيلاء عليها لعرقله
حركات الأساطيل في القرن الذهبي ، فضلاً عن قطع الأمداد التي تأتي إلى العاصمة
من هذه الناحية .

واهتمت السلطات في العاصمة بالموانئ التي ترسو بها الأساطيل المدافعة عنها .
فإلى جانب القرن الذهبي كان للمدينة موانئ أخرى صغيرة تطل على البسفور ، منها
ميناء اليوثريوس (El eutherius) الذي عرف فيما بعد باسم ميناء تاوداسيوس ،
وكذلك ميناء أياصوفيا . ولعبت هذه الموانئ رغم صغرها دوراً هاماً في تسهيل
الملاحة في مياه القسطنطينية . إذ كانت تجر السفن فيها أما كن هادئة تأوى إليها
عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمره وهبوب الرياح الشمالية
العاصفة . فقد ترتب على هذا التيار والرياح معاً عرقله سير السفن التي تبغى
الطواف حول رأس مدينة القسطنطينية ودخول القرن الذهبي ، قاصدة ميناءاً
في هذا الخليج يدعى « بروسفور يانوس » (Portus prosperianus) ، تلقى
عنده مراسيها ^(٢) .

(1) Bury, op cit, 72.

(2) Ibid, 71, 72.

وكان الميناء الأخير في القرن الذهبي محصناً بسلسلة موضوعة في مدخل الخليج تمنع السفن التي لا يرغب فيها من الدخول ، شأن الموانئ الهامة في المصور الوسطى . وبذلك استطاعت القسطنطينية أن تنظم حركة الملاحة في مياهها المحلية لسفنها التجارية وأساطيلها الحربية ، وفي نفس الوقت جهدت في منع الأعداء من الاستيلاء على هذه الموانئ الصغيرة أو الاستفادة منها في حصار المدينة ، ولا سيما في الاقتراب من الميناء الأخير في خليج القرن الذهبي . إذ كان هذا الميناء يقع بالقرب من « باب الذهب » في الركن الجنوبي الغربي للمدينة ، ويعتبر مفتاح الطريق الذي تدخل منه الامداد الحربية وغيرها إلى القسطنطينية . وظل هذا الميناء صعب المنال على القوى المهاجمة للعاصمة بسبب صعوبة التيارات المائية التي تدفع السفن الآتية من بحر مرمرية ، وإن كان كثيراً ما نال هجمات مفاجئة من السفن التي تأتي من البحر الأسود . ومن ثم اهتمت السلطات في العاصمة بتقوية باب الذهب المشرف على هذا الميناء حتى أصبح أهم الأبواب الحربية في المدينة^(١) .

وكانت جهات القسطنطينية المطلة على القرن الذهبي تشمل أهم مرافق العاصمة . ففي الركن الشرقي للمدينة الذي يحده القرن الذهبي والبسفور يوجد قصور الأباطرة والملعب (المهدروم) وكنيسة أياصوفيا^(٢) . ويصل بين هذه الجهات الهامة طريق رئيسي يعرف بالشارع الأوسط (Mesé) أشبه « بالطريق المستقيم بدمشق » . وكان هذا الطريق طويل ، على جانبيه أعمدة تعطي للمدينة طابعاً شرقياً^(٣) . ويمتد هذا الشارع من باب الذهب الذي اعتاد كبار الزائرين الذين يفدون إلى العاصمة الدخول منه . ويؤدي الطريق إلى نصب من الحجر يتخذ

(3) Bury, History of the Later Roman Empire, 52 , 53.

(2) Bury, op cit, 52 , 53.

(3) Ibid, 53.

نقطة مركزية تقاس منها الأبعاد (Milestone) . ولم يكن هذا النصب مجرد عمود حجري ، وإنما هو عبارة عن مبنى مسقوف مفتوح من الجوانب ، ويحمل السقف على سبعة أعمدة ، بينها تماثيل للإمبراطور قسطنطين الكبير مؤسس المدينة ، وأمة القديسة هيلانه وغيرها من التماثيل التي تمثل الشخصيات الكبرى للإمبراطورية . وكان الأباطرة يتخذون من هذا البناء نقطة تتجمع عندها الوفود عند القيام بالمواكب الرسمية^(١) .

وكان العابر لهذا الطريق يرى بعد أن يجتاز هذا النصب الحجري قبة كنيسة أياصوفيا الهائلة ، التي بناها الإمبراطور جستنيان . وعندما يتجه الزائر لدخول هذه الكنيسة من الباب الغربي يجد على يمينه الملعب (الهيدروم) ، مقر لهو أهالي العاصمة وندوة اجتماعاتهم . وإذا ما انتهى الزائر من مشاهداته للكنيسة وخرج من بابها الجنوبي رأى أمامه القصر الإمبراطوري الذي تدار منه دفرة شئون الإمبراطورية^(٢) .

واهتم الأباطرة البيزنطيون بتهيئة أسباب الرفاهية لسكان عاصمتهم . وكان موضع رعايتهم جميعاً تزويد المدينة بالمياه ولا سيما أنها عرضة للحصار من شتى الأرجاء . واتبع الأباطرة البيزنطيون نهج أسلافهم الأباطرة الرومان في جعل سياسة تزويد المدن بالمياه من مهام الدولة الرئيسية . فالمعروف أن أولئك الأباطرة أجادوا فن بناء خزانات المياه والقناطر في عاصمتهم روما ، وفي غيرها من المدن الكبرى في الولايات التي دخلت في حظيرتهم . ووجد البيزنطيون مهمة الحصول على المياه سهلة ميسورة من الينابيع التي تفيض بها التلال الشمالية في المدينة . وأعدوا خزانات مغطاة ومكشوفة كذلك في سائر أنحاء المدينة لتزويدها بالمياه .

(1) Bury, op cit, 54.

(4) Ibid, 54.

وإلى جانب ذلك كان هناك نهر اسمه ليكوس (Lycus) يجري بعرض المدينة ويصب في بحر مرمره^(١).

وكان المسلمون يعملون جاهدين على دراسة الموقع الاستراتيجي لمدينة القسطنطينية وما بها من حصون ومرافق لتدميرها في حصارهم . وكان الأمويون واضعي الأسس الرئيسية في سياسة المسلمين الخاصة بالوقوف على مظاهر الضعف والقوة عند أعدائهم البيزنطيين للاستفادة منها . ونتج عن هذه السياسة وحملات الأمويين المتكررة على القسطنطينية أن عرف المسلمون فيما بعد جميع أحوال هذه المدينة ، وحصلوا على وصف تام لأسوارها وحصونها . وخلفت لنا المراجع الإسلامية صورة عن أو صاف هذه المدينة تجلت فيها الدقة وتحري الصدق .

وجاء في تقارير المسلمين عن القسطنطينية ما يأتي : « وما وجدناه من صفة مدينة الرومية (وهي القسطنطينية) ثلاث نواح ، منها في البحر العظيم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب ، والناحية الرابعة مما يلي البر . . . ، يعني الشمال . وطولها من الباب الغربي إلى الشرق ثمانية وعشرون ميلا ، ولها حائطان من حجارة ، وبينهما فضاء ستون ذراعا . وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكة اثنتان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السورين نهر يسمى فسطيظالس . . .) وهناك نقيير من المغرب إلى المشرق) يجري فيه لسان من البحر ، وتجرى السفن في هذا النقيير بحمولتها . »
« ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلغر (بلاد البلغار) ، ويجري إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوماً ، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث ، فثلث يذهب إلى دار الملك ، وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين ، والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة ، وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذي بين العذب والملح »^(٢) .

(1) Bury, History of the Later Roman Empire (1921), 73.

(٢) العدوى ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ؛ انظر ملحق ١ من ص

وهكذا كان العصر الأموي أهم حقبة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، علت فيه راية الجيوش الإسلامية المظفرة في أراضي الدولة البيزنطية ، وعادت محملة بأثمن المعلومات التي تفيد سياسة دولتهم العامة . واضطلعت دمشق في هذا الدور برسم الخطوط الكبرى لهذه السياسة التي جعلت هدفها الأول إذلال عاصمة البيزنطيين ، وقطع خط الرجعة على أي تفكير قديدور بخلد أولى الأمر فيها على مناوأة المسلمين والعمل على استرداد الأراضي التي استولوا عليها واستظلت براية الإسلام . فأصبحت دمشق طوال عصر الأمويين الزاهر مركزاً لعمليات حربية كبرى اتجهت الواحدة تلو الأخرى صوب القسطنطينية ، تلقى الحصار على أسوارها وتذيق أهلها صنوف المتاعب والضنك .

وآتت سياسة دمشق الحربية أكلها طوال العهد الأموي ، إذ ظلت الأراضي الإسلامية ، ولاسيما مناطق النخوم بها بعيدة المنال عن أيدي البيزنطيين . ونعم المسلمون بالهدوء والطمأنينة في بلادهم ، وغدت دمشق نفسها عنوان هذه المنعة والعزة والسؤدد ، فضلا عن الهدوء والاستقرار . فلم تستطع جيوش البيزنطيين أن تطرق أبواب هذه العاصمة الفتية ، وظلت مبعثرة في أنحاء آسيا الصغرى تعمل على عرقلة زحف المسلمين المظفر دون جدوى . إذ عهد الخلفاء الأمويون بقيادة جيوشهم إلى كبار رجال دولتهم ، وجعلوا أبناءهم في صفوف الجند الإسلامي الحارب لينالوا شرف الجهاد في سبيل الله وإعزاز دينه . وكان ميدان القسطنطينية وحده هو الذي اختص بمشاهدة أعظم رجالات الأمويين وأبناء خلفائهم وأخواتهم كذلك ، يحاربون في صفوف المسلمين للحد من شوكة القسطنطينية ، رمز عناد البيزنطيين في التمسك بأحلامهم القديمة في إعادة دولتهم إلى سالف هيبتها ومجدها .

معاوية والقسطنطينية

فتى العرب ومصر القسطنطينية

بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ، وصار خليفة العالم الإسلامي الذي غدت حضرته دمشق ، بدأ يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والامبراطورية البيزنطية . فمنذ وقعة « ذات الصواري » واستقرار أقدام المسلمين في الشام ومصر دخل النزاع بين المسلمين والبيزنطيين في مرحلة جديدة . فقد تخلت الامبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها في وقعة ذات الصواري عن مشاريعها القديمة في استعادة مصر والشام ، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها بما يتلائم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ومن ثم كانت مسألة السيادة على البحر الأبيض المتوسط الشرقي هي شغل معاوية الشاغل ، وحجر الزاوية في سياسته إزاء القسطنطينية التي جهدت على منع المسلمين من التوسع البحري .

أدرك معاوية بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، تغذيها بالقوات والأمداد ، وتشجع أهاليها على شن الإغارات على سواحل المسلمين . وقوى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته على قبرص ، ومنعها من أن تصبح قاعدة للبيزنطيين في شرق البحر الأبيض المتوسط . ويعد إدراك معاوية لقيمة القسطنطينية وأهميتها في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المسلمين السياسي من الدعائم الأساسية التي كتبت للمسلمين الخلود في البحر الأبيض المتوسط ، القلب النابض للعالم القديم ومفتاح سيادته وزعامته . وجهد معاوية في وضع خطة تهدف إلى ضرب القسطنطينية في عقر دارها والإستيلاء عليها إذا تهيأت الظروف . وترك خلفاءه من بعده طريقاً واضح المعالم للسير فيه من أجل رفع راية الإسلام

على مياه البحر الأبيض المتوسط .

استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بعد أن نالت جيوشه قسطاً وافراً من
المران الحربى على اجتياز آسيا الصغرى ، واطمان إلى حسن تدريها بعد الإغارات
المتكررة التى شنتها على أراضى البيزنطيين . فأرسل حملة استطلاعية تمهيدية سنة
٤٩ هـ / ٦٦٨ م بقيادة فضالة بن عبيد الأنصارى إلى ضواحي القسطنطينية^(١) ،

لتعجم عود خط الدفاع البيزنطى الأمامى عن العاصمة . إذ تعتبر مدينة خلقدونيا
ضاحية من ضواحي القسطنطينية على الشاطئ الأسيوى ، ومقل لفيلىق من الجيش
البيزنطى مكون من حرس الامبراطور الخاص . واستطاع فضالة أن يكتسح

المائل البيزنطية التى اعترضت طريقه حتى وصل مدينة خلقدونيا ، وأقام بها خلال
فصل الشتاء الذى حل عليه بهذه المدينة^(٢) . وكانت العمليات الحربية تقف

دائماً خلال هذا الفصل من السنة لشدة البرودة ، وظل طوال شتاء عام ٦٦٨/٦٦٩ م
ينظم قواته انتظاراً للأمداد التى كان يعدها معاوية بن أبى سفيان فى عاصمته دمشق .

وبذل معاوية جهوداً عظيمة لإعداد القوات الإسلامية التى رغب فى إرسالها
لشد أزر جيش فضالة بن عبيد الأنصارى . فجعل على رأس هذه الحملة ابنه وولى
عهده يزيد . واستهدف معاوية من وراء ذلك إعطاء ابنه فرصة يعلى فيها من ذكره
واسمه فى ميدان الجهاد ضد البيزنطيين ، وليرد بذلك على الأشخاص الذين أبدوا
إمتعاضهم من يزيد والمحاولات التى بذلها أبوه لأخذ البيعة له باخلافه من بعده^(٣) .
إذ صورت الدعايات المعادية لبني أمية شخصية يزيد بحبها للمجون والخلاعة ،
وعدم أهليتها لتصرف شئون المسلمين . ومن ثم كان ميدان القسطنطينية خير

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ؛

Hitti, History of Syria, 443.

(2) Ibid, 443.

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٣٠ ؛

Lammens, Etudes Sur Le Règne du Calife Omayyade Mo, awia ler, 443,

مجال يدحض فيه يزيد افتراءات منافسيه وأعدائه ، ويعلم عن مواهبه الحربية وما اتصف به من شجاعة وإقدام .

و بلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس ، أن ضم إلى ابنه شخصية كبرى من أصحاب الرسول الكريم ، ومن لعبت دوراً رئيسياً في مؤازرته وفي نصرته دعوته . إذ اختار أبا أيوب الأنصاري ، الذي استقبل الرسول في بيته بالمدينة ، وحارب إلى جانبه في غزوة بدر ليرافق يزيد في هذه الحملة . وكان الهدف من ذلك الإفادة من شخصية أبي أيوب في تقوية روح الجند المعنوية و بث الثقة في نفوسهم والتفؤل الطيب ^(١) . وبعد أن تم جمع سائر الأمداد والعتاد توجهت الحملة بقيادة يزيد إلى مدينة خلقدونيا ، المقر الحربي الذي اتخذته فضالة مركزاً لإدارة دفة الهجوم على القسطنطينية .

وعلى ضفاف البسفور انضم يزيد إلى قوات فضالة ، وعبر مياه هذا المضيق إلى الشاطئ الأوربي ، وحقق لجنده سبقهم على أقرانهم من جند الإسلام في مشاهدة أسوار القسطنطينية ، والوقوف أمامها يدقونها بالآتهم الحربية ، ويعملون على تخريبها أو إحداث ثغرات فيها . وأظهر يزيد في هذا الحصار من ضروب الشجاعة والبسالة ما أكسبه لقب « فتى العرب » ^(٢) . ودونت المراجع سيرته وأعماله في هذا النضال ، وكيف حاول أن يضم إليه بعض عرب الشام المسيحيين الذين استقروا في القسطنطينية بعد استيلاء المسلمين على بلادهم . وكان معظم أولئك القوم من الغساسنة الذي فرّ زعيمهم جبلة بن الأيهم إلى بلاط البيزنطيين زمن الخليفة عمر بن الخطاب . وأبدى الغساسنة عطفهم على القوات الإسلامية وميلهم إلى تشجيعها . فقد شاهد يزيد بالقسطنطينية أثناء حضارها قبمتين عليهما ثياب الديباج ، ترتفع من إحداها أصوات الدفوف والمزامير إذا أصاب المسلمون نجاحاً في هجومهم ، على حين

(1) Lammens, op cit, 445, 446.

(2) Ibid, 446; Hitti, op cit. 443.

ترتفع أصوات القبة الأخرى بالتهليل عندما ينجح البيزنطيون في صد هجمات المسلمين . فسأل يزيد عن هذه الظاهرة ، وعرف أن بالقبة المناصرة لجيوشه ابنة جبلة بن الأيهم ، وبالأخرى ابنة إمبراطور البيزنطيين ، وكل واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها . وكان لذلك أعظم الأثر في نفس يزيد الذي ضاعف من مجهوداته ليرضى شعور مناصريه من الغساسنة ، ليفوز بابنة جبلة بن الأيهم ^(١) . وامتاز هذا الحصار بصبر المسلمين وجلدهم في التضيق على سكان العاصمة البيزنطية ، حتى استشهد الجند دون خوف أو وجل . ونال هذا الشرف المقدس أبوأيوب الأنصاري نفسه الذي وافته المنية وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها ^(٢) . ويعتبر هذا الحادث ذا نتائج كبرى في التاريخ الإسلامي ، إذ ظل قبر أبي أيوب شاهداً يجذب أنظار المسلمين دائماً نحو عاصمة البيزنطيين ، ويلهب في نفوسهم الرغبة في إعادة الهجوم عليها مراراً وتكراراً . ونال هذا القبر تكريم المسيحيين اليونانيين المقيمين بالقرب منه لاعتقادهم أنه يجلب لهم الأمطار ، وتعهدوا بالترميم والإصلاح . وقد اكتشف الأتراك العثمانيون موضع القبر عند حصارهم القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م وبنو عنده مسجداً ، وأصبح أبوأيوب ، ذلك الشيخ النقي الذي كان من أنصار المدينة ، ولياً عند المسلمين والبيزنطيين والأتراك . وفي صيف سنة ٦٦٩ م رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الإسلام . وعادت الحملة الإسلامية إلى دمشق تستعد لمعاودة الكرة على حصار القسطنطينية . وقد خلفت هذه الحملة ورائها نتائج بعيدة المدى في سياسة الامبراطورية البيزنطية ، إذ تولى العرش البيزنطي إذ ذاك الامبراطور قنسطنطين الرابع ، وكان كأبيه قنسطانز الثاني من ألد الأعداء للمسلمين . فآثر هذا الامبراطور أن يسير قدماً بسياسة أبيه وهي

(١) الأعاني ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .

(2) Hitti, History of Syria, 444.

(3) Hitti. op cit, 444.

تأمين بلاده من هجوم المسلمين ، والتخلى تماما عن المشاريع القديمة التي تهدف إلى طرد المسلمين من الشام ومصر . ووجه هذا الامبراطور عنايته بصفة خاصة إلى تقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية والطرق المؤدية إليها ، وإحداث تغييرات جوهرية في النظم الإدارية لامبراطوريته .

خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية :

كان للحملة الإسلامية الأولى التي شنها معاوية بن أبى سفيان على مدينة القسطنطينية أثر كبير فى سياسة الأباطرة البيزنطيين ، إذ أقضت هذه الحملة مضاجعهم وجعلتهم يدركون أن مطرقة الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى مشارف عاصمتهم نفسها ، وأن المسلمين على استعداد لاستئناف حملاتهم على هذه المدينة بشكل أعنف وأقوى مما اضطلعوا به من قبل . واتجهت سياستهم إزاء هذا النشاط الإسلامى الحربى المضطرد إلى اتخاذ كافة الوسائل الممكنة التي تجعل عاصمتهم بعيدة عن أيدي المسلمين أو عرقلة زحف الجيوش الإسلامية عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، أو جعلها تصل إلى القسطنطينية وقد أنهكها التعب والسكد . وبدأ الأباطرة البيزنطيون ينفذون سياستهم الجديدة فى إقليم آسيا الصغرى ، الذى غدا بعد ضياع الشام ومصر أهم مورد تستمد منه الإمبراطورية الجند القادرين على القتال ، والأموال اللازمة للنهوض بمرافق البلاد والدفاع عن العاصمة^(١) . فوضعوا للدفاع عن هذا الإقليم الذى أصبح خط الدفاع الأول عن القسطنطينية نظاماً حريياً بدأت نواته الأولى تترعرع منذ حركة الفتوحات الإسلامية الأولى على الشام ومصر ، ثم أخذت تنمو مع الزمن وتتطور بما يحقق

(1) Runciman, Byzantine, Civilisation 88 :

Byzantium, 280. 285.

الأغراض المنشودة من هذا النظام الحربى الجديد . وتداول الأباطرة البيزنطيون العناية والاهتمام بهذا النظام الجديد حتى اكتملت صورته وأوضاعه .

وظهر الاهتمام الحقيقى بهذا النظام الحربى منذ عهد الإمبراطور هرقل ، الذى نالت جيوشه هزائم ساحقة متتالية على أيدي المسلمين . إذ دفعت هذه الكوارث المتلاحقة الإمبراطور هرقل إلى إنقاذ البقية الباقية من إمبراطوريته بآسيا الصغرى باتباع نظام إدارى يحقق لها الصمود أمام زحف المسلمين ، وسد الطريق الرئيسية بها المؤدية إلى القسطنطينية . وكان هذا النظام الإدارى الجديد ثورة على الأوضاع الإدارية القديمة التى كانت تدير عليها الإمبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الثالث الميلادى على عهد الإمبراطور دقلديانوس . إذ قام هذا الإمبراطور بإصلاحات فى إدارة إمبراطوريته هدفت إلى الفصل بين السلطتين الحربية والمدنية فى الأقاليم الرومانية المختلفة للحد من شوكة القادة الحربيين ، وللقضاء على الحركات الانفصالية التى أخذت تسرى فى أرجاء هذه الأقاليم^(١) وظل نظام فصل السلطات الحربية والمدنية متبعاً فى أرجاء الدولة الرومانية حتى أبطله الإمبراطور جستنيان العظيم ، إذ رأى هذا الإمبراطور أن الأقاليم التابعة له ما زالت عرضة للاغارات والأخطار الخارجية رغم انتقال السلطان إلى مدينة القسطنطينية . وأيقن ألا سبيل للمحافظة على هذه الأقاليم ، ودرء الأخطار عنها إلا بصيغتها بصيغة حربية تمكنها من الدفاع عن نفسها . وطبق هذه السياسة الجديدة فى إقليم إفريقيا الشمالية بعد أن طرد منها عنصر الوندال^(٢) الجرمانى ، الذى انتزع هذه البلاد من أيدي البيزنطيين من قبل . فعين على إفريقيا رجلاً جمع فى يده السلطة المدنية الخاصة بتصرف شؤون هذه البلاد

Vasiliev. Histoire de L' Empire Byzantin I. 76. (١)

(٢) الوندال أحد العناصر الجرمانية التى أغارت على الامبراطورية الرومانية واقتطعت

منها شمال إفريقيا فى القرن الخامس الميلادى .

وأعمال القائد العام للجيش هناك « Magister Militum »^(١) .
واتبع جستنيان هذا النظام الجديد في ولاية أرمينيا كذلك المعرضة دائماً
لهجمات الفرس . فمنح القائد العام للجيش هناك « Magister Militum Per
Armeniam » سلطات مدنية إلى جانب مهامه الحربية . فصار لحاكم أرمينيا
الحربي الحق في تصريف الشئون المدنية لهذا الإقليم وتنظيم أحوال الأهالي به^(٢) .
ولم تلبث الأحداث التي حاظت الإمبراطورية البيزنطية بعد عهد جستنيان
أن عملت على تقوية دعائم هذه النظم الجديدة . إذ عانت الإمبراطورية منذ
أواخر القرن السادس الميلادي ، وهو القرن السابق مباشرة لحركات الفتح
الإسلامي ، ضعفاً مالياً أعجزها عن الاعتماد على الجيوش المرتزقة واصطناعها
بالمال ، واضطرت أمام الأخطار الخارجية المدهمة أن تعتمد على أبناء أقاليمها
أنفسهم ، وتجندهم في جيوشها . ونجح هذا النظام الجديد في سائر الولايات حتى
سار التجنيد وفق قواعد دقيقة متينة ، وأصبح تحت تصرف حاكم كل إقليم
جيش مدرب من أبناء البلاد^(٣) .

وحارب الإمبراطور هرقل الفرس في حملاته المظفرة بجيش عباه على النمط
السالف ، أي من أبناء أقاليم الإمبراطورية . وكانت غالبية الجنود من الفرق
الأرمينية وفرق تراقيا والأقاليم الشرقية للدولة ، إلى جانب فرق الإمبراطور الخاصة ،
(وتعرف الأخيرة بالحرس الإمبراطوري Obsequium, obsequentes)^(٤) . وبعد
سقوط الشام في أيدي المسلمين ارتد جيش هرقل السالف إلى آسيا الصغرى ، التي
غدت منذئذ موضع عناية الأباطرة لمواجهتها لدولة المسلمين الفتية ، لأنها أصبحت

(1) Bury, op cit II 346

(2) Ibid. 346.

(3) Byzantium, 297.

(4) Byzantium, 297:

Bury, op cit, 348.

أهم مورد تعتمد عليه الدولة في تجنيد جيوشها وتعبئة أساطيلها . ومن ثم اقتضى الدفاع عن الأراضي البيزنطية وضع آسيا الصغرى في حالة دفاع دائم ، ولا سيما بعد أن أخذت جيوش المسلمين تطرق منافذها ومسالكها متجهة لحصار القسطنطينية . فاتجه الأباطرة إلى تطبيق سياسة الامبراطور جستنيان العظيم مع إدخال تعديلات هامة تتفق والدفاع عن العاصمة .

وكان النظام الجديد الذي طبقه الأباطرة البيزنطيون على آسيا الصغرى هو توزيع فيالق من الجيش (Themata) على جهات منها تعسكر فيها بصفة دائمة . ثم منح الأباطرة الجند المقيمين في هذه الجهات قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها ، لترغيبهم في الاستقرار بأماكنهم وتشجيعهم على الاستمارة في الدفاع عنها . وإلى جانب ذلك منح الأباطرة قائد الفيالق في الإقليم سلطات مدنية واسعة ، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية ، يقيم بكل منها فيلق من الجيش ، يجمع قائده بين مهام الاشراف على جنده وأعباء الحاكم المدني^(١) . وعرف هذا التقسيم الإداري الجديد ، الذي كانت الوحدة فيه الإقليم الحربي ، باسم نظام الأجناد أو البنود ، حيث كان لكل جند أو فيلق بند خاص أو علم كبير يميزها بعضها عن بعض^(٢) .

ونشأت بآسيا الصغرى في القرن السابع الميلادي إبان اشتداد الحملات الإسلامية على القسطنطينية ثلاثة بنود كبرى لعبت دوراً هاماً في سير العمليات الحربية . وسمى إثنان من هذه الأقاليم الحربية باسم الفيالقين الذين أقاما بها ، على حين أخذ الإقليم الحربي الثالث إسماً جغرافياً . فسمى الإقليم الأول باسم

(١) Runciman, op cit, 88.

(٢) ذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف ، ص ١٥٠ : أن نظام البنود أو الأقاليم الحربية أشبه بنظام الأجناد الذي انقسمت إليه بلاد الشام ، فقال « أرض الروم (البيزنطيين) واسعة في الطول والعرض ، مقسومة من قديم الزمن على أربعة عشر قسماً ؛ أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام . »

البند الأناطولى (Anatolic Theme) ، وهى تسمية ترجع إلى الفترة السابقة مباشرة لظهور الإسلام ، إذ كانت كلمة الحاكم الأناطولى — ومعناها الشرقى — تطلق على القائد العالم للولايات الشرقية من الامبراطورية (Magister Militum Per Orientum) ، والتي كانت تضم سوريا وآسيا الصغرى . وعندما استولى المسلمون على الشام انسحبت الفرق الخاضعة لذلك القائد العام نحو الغرب ، واستقرت فى الجهات الواقعة شمال جبال طوروس للدفاع عن آسيا الصغرى . وتبعاً للنظام الجديد (أى نظام البنود) تلاشت سلطة القائد الشرقى العام ، ولكن إسمه لصق بالإقليم الجديد الذى استقرت به البقية الباقية من جنوده ، وأصبح قائدها الجديد يتولى تصريف مهام هذه المنطقة فى النواحي المدنية إلى جانب رعاية فيلقه الحربى ^(١) .

وأخذ البند الثانى اسمه من الفرق التى كونت حرس الامبراطور هرقل . وقد استقرت هذه الفرق بعد عودتها إلى آسيا الصغرى فى الجهات الحيطية ببحر مرمرة ، وعرفت باسم بند الأوبسيق (Opsikion — أى إقليم فرق الحرس الامبراطورى) . واختصت هذه المنطقة بالحرس الامبراطورى لمواجهة نشاط القسطنطينية ، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد الحملات المباشرة على العاصمة . ودأبت الامبراطورية البيزنطية على تقوية هذا البند بإمداده بعناصر من جماعات السلاق التى أسرتها فى حروبها ، وعرفت بالبأس وشدة المراس . وفى سنة ٦٨٧/٦٨٨ م سهلت سبل الإقامة فى هذا البند لبعض العناصر السلاقية لشد أزر الفرق الامبراطورية به . وكان هذا الإقليم الحربى يمتد من بحر مرمرة إلى مسافة كبيرة داخل آسيا الصغرى ، أقامت فى جهاته الساحلية فرق بحرية (Peratic Themes) لصد سفن المهاجمين عن العاصمة ، على حين استقر

(1) Bury, op cit, 347, 348; Vasiliev, op cit, 301

في جهاته الداخلية فرق من الخيالة (Cavallarii) لعرقلة الزحف البري^(١). وكان البند الثالث الهام في آسيا الصغرى هو بند أرمينيا ، الذي اشتمل على الأراضي المواجهة لتلك المنطقة من أرمينيا التي خضعت لسلطان المسلمين . واهتم البيزنطيون بهذا البند الرئيسي لمواجهة لبعض المنافذ التي سلكتها جيوش المسلمين في إغاراتهم الصيفية والشتوية على آسيا الصغرى ، ومحاولتها الاتصال بغيرها من القوات الإسلامية الزاحفة من الشام على القسطنطينية^(٢) .

وظهر إلى جانب هذه البنود الثلاث بآسيا الصغرى نواة بند آخر ، أخذ صورته الكاملة في مطلع القرن الثامن الميلادي بعد آخر حملة أموية كبرى على العاصمة البيزنطية . وكان هذا الإقليم الحربى الصغير يعرف ببند كبيراً (Kibyrrhaitoi) . وظهر نشاطه المبكر أثناء سير السفن الإسلامية بالقرب من ساحل آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه لمعاونة الحملات الإسلامية البرية في حصار القسطنطينية . واشتمل هذا الإقليم على الجهات الساحلية من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه ، التي استمدت الامبراطورية البيزنطية منها خيرة بحارتها وأساطيلها . ولكن إزاء حملات المسلمين اتسع نشاط هذا الإقليم ، واضطرت الامبراطورية البيزنطية إلى تقسيمه قسمين ، الأول يضم الجهات الساحلية الجنوبية ، والجنوبية الغربية من آسيا الصغرى واحتفظت بالاسم القديم أى بند كبيراً . أما القسم الثانى فعدابنداً بحرياً جديداً يضم جزر بحر إيجه ، ويعرف بالبند الايجي^(٣) .

ونظمت السلطات البيزنطية وسائل التعاون والنشاط البحرى بين هذين البندين بما يحقق الدفاع عن القسطنطينية . فكان لكل بند منهما أسطول خاص عليه أمير بحر (Drungarius) يشرف عليه . ولكن خضع هذان الأسطولان لسيادة أمير البحر العام المهمين على الأسطول الراسى بمياه القسطنطينية ، وكان هذا

(1) Bury, op cit, 348, 349.

(2) Bury, op cit, 341, 342.

(3) Ibid, 342.

القائد (Strategus of the Carabisiani) يزود معاونيه بالتعليمات ، ويرسم لهم الخطط اللازمة لمواجهة أى عدوان تتعرض له العاصمة^(١) .

وكان ذلك الركن من الشاطئ الأوربي المواجه لآسيا الصغرى ، والذي تقع عليه مدينة القسطنطينية ، ينتظم بنداً قائماً بذاته ، وإن كان يعتمد في الدفاع عن نفسه على بنود آسيا الصغرى السالفة . وهياً البيزنطيون لهذا الإقليم سبل الدفاع عنه ، بما يمكنه من الصمود طويلاً أمام أى حصار أو هجوم كبير . فنظموا موارد الغذائية وكيفية الحصول عليها ، لأنها العمود الفقري في مقاومة السكان المهاجمين . وكانت هذه المؤن تأتي إليه من اليونان وجزر بحر إيجه ، ومن سهول القمح الواقعة على شواطئ البحر الأسود الشمالية . وقد عرف المسلمون هذه الحقيقة وأدركوا أن قطع الأمداد والمؤن عن إقليم القسطنطينية ، هو الهدف الذى يجب أن يصلوا إليه ليصيبوا من عاصمة البيزنطيين مقتلاً .

حرب السنوات السبع (٥٤ — ٦٠ هـ / ٦٧٤ — ٦٨٠ م)

في الوقت الذى جهدت فيه الإمبراطورية البيزنطية على إعادة تنظيم أحوالها الإدارية ، وتدعيم نظام البنود ، أو الأقاليم الحربية ، بعد أن أحست وصول يد المسلمين القوية إلى أسوار عاصمتها ، صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية لتقويض دعائم البيزنطيين . فاستهدف الاستيلاء على عاصمتهم ، قبل أن تفيق دولتهم من حالة الفوضى والفاق التى سادتها ، حيث كانت تجتاز مرحلة انتقال من عهد العظمة والتوسع إلى عهد الانكماش والانطواء . فبعث في سنة ٦٧٣م حملة بقيادة عبدالرحمن بن خالد إلى القسطنطينية ، يؤازرها أسطول بحرى . وحل فصل الشتاء والقوات الإسلامية في طريق زحفها عبر آسيا الصغرى ،

(1) Runciman, op cit, 150; Byzantium 304.

فألقت السفن مراسيها على شاطئ، قيلقيا حتى يتحسن الجو ويصبح ملائماً لاستئناف السير^(١).

و بمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول إسلامي آخر ، واستأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية . وفي شهر ابريل اجتاز الأسطول الإسلامي مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة من البيزنطيين ، إذ كانت البنود البحرية لا تزال في دور التسكويين ، عاجزة عن الصمود أمام سفن المسلمين الفتيمة . وفي نفس الوقت كانت الجيوش الإسلامية البرية قد اجتازت آسيا الصغرى في سهولة ويسر لاضطراب أحوال بنودها البرية ، وتفشى التنازع والتباغض بين قادتها^(٢).

واستولى المسلمون على جزيرة كزيكوس (أرواد) في مياه القسطنطينية واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة . فكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر المحاصرة أسوار القسطنطينية ، على حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفنه بين رأس هبدمون (Hebdomon) التي تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكليبيوس (Kyklobios) الواقعة بالقرب من باب الذهب . واستمر الحصار البري والبحري للقسطنطينية من شهر ابريل إلى سبتمبر ، تمخلة مناوشات بين أساطيل وجنود المسلمين والبيزنطيين . وجرت خطة الحصار على اصطدام بين سفن المسلمين والبيزنطيين من الصباح إلى المساء ، على حين تترشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطي المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهم^(٣).

واستطاعت المدينة أن تصمد أمام الحصار طيلة هذا الوقت لأن الإمبراطور

(1) Bury, op cit II, 310.

(2) Ibid, 310

(3) Bréhier, Vie et mort de Byzance, 63:

Bury, op cit, 310,

البيزنطي قسطنطين الرابع ملاً خزائنها بالمؤن والعتاد ، وأصلح أسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير . على أن المسلمين أظهروا من المثابرة والجد ما أثار قلق سكان القسطنطينية . إذ في شهر سبتمبر عادت السفن والجند الإسلامي إلى مقرها بجزيرة كزيكوس ، تقضى بها فصل الشتاء وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة . وبمطلع الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالجند لحصار القسطنطينية براً وبحراً على النحو السالف ، وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والأزهاق . وقد اقتصرَت العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين على الربيع والصيف فقط طيلة السنوات السبع التي استغرقتها عملية حصار القسطنطينية في هذه المرة الثانية ^(١) .

وهذا الجهاد الإسلامي الرائع في حرب السنوات السبع يقلل من الإشادة بالنار البحرية التي استعملها البيزنطيون لأول مرة أثناء هذا الحصار . إذ تذكر المراجع الأوربية أن البيزنطيين جهزوا سفناً مزودة بالآلات خاصة تقذف نوعاً من النار لا يطفئها الماء ، وإنما يزيدُها اشتعالاً ، واستطاعوا أن يحرقوا كثيراً من السفن الإسلامية بهذا السلاح الجديد . على أن هذا السلاح لم يثن المسلمين عن غزاهم ، ولم يفت في عضدهم ، أو يبعث في نفوسهم القنوط ، إذ تابَعوا الحصار كما تهيأت لهم العوامل الطبيعية من اعتدال المناخ أثناء الربيع والصيف .

وساهم كثير من قادة الأمويين في إدارة عمليات هذا الحصار ، خلف القائد عبد الرحمن بن خالد شخصية أخرى كبيرة ، وهو سفيان بن عوف . واشترك ولي العهد يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية كذلك ، حتى أن هذه الشخصيات الهامة ألهبت روح الجند الإسلامي حماساً ، وشجعتَه على متابعة النضال طيلة السنوات السبع . ولكن في نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبي سفيان دنو أجله ، وأن صالح الدولة الإسلامية العام يحتم سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية .

(1) Brehier, op cit 63.

وهكذا كان معاوية ثاقب النظر كذلك في أيامه الأخيرة حين اتخذ هذا القرار الهام ، إذ أحس أنبيعة ابنه يزيد^(١) لا بد أن تلتقي مقاومة فعالة حين تؤول مقاليد الدولة الإسلامية إليه ، وأن المحافظة على الخلافة في بيته تحتم وضع أكبر قوات ممكنة تحت تصرف يزيد لمواجهة ما قد ينشأ من مصاعب طارئة . ومن ثم دخل معاوية في مفاوضات مع الدولة البيزنطية تمهيداً لسحب قواته المحاصرة للقسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام .

وكانت الدولة البيزنطية تتلطف لإنهاء حالة الحرب مع الدولة الإسلامية ، إذ أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا ، من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاءً وفطنة . وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموي ، وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه . ونجحت مفاوضاته في عقد صلح بين الطرفين مداه ثلاثون سنة^(٢) . وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية تلم شملها للعودة إلى الشام ، وتركت عاصمة البيزنطيين تنئن من جراحها المشخنة .

النار البحرية :

يظهر من ثنايا الحوليات البيزنطية ، ومن المراجع الأوربية التي اعتمدت عليها ، أن أهم عامل أنقذ القسطنطينية من حصار المسلمين لها هو ظهور اختراع أثناء فترة حرب السنوات السبع يعرف بالنار البحرية^(٣) . ولكن أحداث الحصار الإسلامي

(١) اتجه معاوية إلى أخذ البيعة لابنه يزيد بتحريض المغيرة بن شعبه . وفي سنة ٥١ هـ خرج معاوية إلى الحجاز وجهد على أخذ مبايعة أهله لابنه ، بعد أن نال رضا أهل العراق والشام . وقد بايع أهل الحجاز يزيد تحت تهديد معاوية . ولكن أبي الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، مبايعة يزيد . وبذلك كان الموقف الذي ينتظر يزيد قلقاً .

(2) Bury, op cit II, 312; Gibbon, op cit II, 701.

(3) Bury, op cit II, 311, Brehier, op cit, 63.

مدينة القسطنطينية تبين بجلاء أن هذا السلاح الجديد ليس العامل الأول في تمكين القسطنطينية من الصمود أمام القوات الإسلامية ، وإنما ترجع حصانة المدينة إلى موقعها الجغرافي وطبيعة التيارات المائية التي تحيط بجبهاتها الساحلية . على أن قصة النار البحرية أعجبت مؤرخي الدولة البيزنطية ، لأنها شأن كل سلاح جديد اجتذبت أنظارهم ، ولا سيما أنها جاءت في فترة كانت دولتهم وعاصمتها يعانيان من ألوان الضنك والمتاعب ما جعلهم يشيدون بأي سلاح يخفف عنهم الويلات التي حلت بهم .

وتنسب الروايات اكتشاف هذه « النار البحرية » إلى رجل من مواطني مدينة هليوبوليس بالشام ، هاجر إلى القسطنطينية عندما سقط هذا الإقليم في يد المسلمين (١) . وكان هذا الرجل ممن حذقوا أعمال الهندسة والكيمياء واستطاع أن يصل إلى اختراعه في الفترة التي كان المسلمون يحاصرون فيها القسطنطينية ، مما جعل الدولة البيزنطية تتلهف عليه وتستخدمه في الدفاع عن عاصمتها . وأطلق على هذا السلاح اسم « النار البحرية » لأنها استخدمت ضد السفن في البحار ، وعلى الجند في البر ، ولم تطفئها المياه التي لجأ إليها المسلمون في أول الأمر ، وإنما زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء . وسميت هذه النار كذلك « بالنار الإغريقية » نسبة إلى الإغريق وهم البيزنطيون . وتعزى هذه التسمية الأخيرة إلى أن البيزنطيين استطاعوا الاحتفاظ بسر هذا السلاح فترة طويلة ، إلى نهاية القرن العاشر الميلادي ، ولصق اسمهم بهذه النار دليلاً على احتكارهم لها .

وتناول الكتاب في القرن العاشر وصف العناصر التي تكونت منها هذه النار ووسائل إخمادها . فذكر أحدهم « إذا أخذت كبريت نقي مع حامض الطرطريك والصمغ الفارسي والقار الخام والفترات ثم مزجت الخليط معاً ، وغمست في هذا الخليط نسيج الكتان ، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب

(1) Gibbon, op cit II, 796.

في الحال . ويطفي هذه النار الرمل فقط أو الخلل . « . وتطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقات . وكانت تتكون من وحدات ، كل منها تحوى رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدى وست أرطال من نترات البوتاس (ملح البارد) ، ثم يوضع المزيج في غلافات طويلة ضيقة محكمة ، أشبه بالخرطوشة ، تغطى فتحتها بسلك حديدي . وتشعل هذه الأنابيب وتذف في الهواء بواسطة مجانيق ، ويسمع لها انفجار مدوى يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف^(١) .

وكانت النار التي يلقها الجند من أعلى الأسوار ، عبارة عن كرات من الحجر أو الحديد بها المزيج السالف ، ثم تحمى بالنار . وأحياناً تغطى الكرات بنسيمج السكتان المشرب بزيت مغلى ، ثم يشعل فيها النار عند إطلاقها . وأما النار التي استخدمت في الحرب البحرية ، فكانت عبارة عن أنابيب طويلة من النحاس تذف من مقدمة المركب . وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية ، ينبعث من أفواهها النار التي تلقى على سفن الأعداء^(٢) .

وأمدت الإمبراطورية البيزنطية حلقاتها بهذا السلاح من المفرقات أو السفن المجهزة بقذائف النار البحرية ، دون أن تطلعهم على سر تركيبها . فكانت أهم الوصايا التي يلقنها الإمبراطور لولى عهده حين يعده لتولى مقاليد الأمور ، هي الاحتفاظ بسر صناعة هذه النار ، والأيشير إليها في مؤلفاته بما قد يكشف عن خواصها ، وإنما يقصر قوله عنها بأنها من وحى الله وإلهامه . ونفذ الأباطرة هذه الوصية بعناية مدى أربعة قرون حتى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، إذ استطاع المسلمون بأبحاثهم الكيمائية ومثابرتهم أن يعرفوا هذا السلاح ، وأدخلوا عليه

(1) Bury, op cit II, 319; Oman, History of war II, 46, 47.

(2) Gibbon, op cit, 797.

من التعديلات ما جعله أشد فتكاً وأقوى أثراً من النار الاغريقية^(١).

واستخدم المسلمون هذه النار الجديدة في الحروب الصليبية ، التي دارت رحاها بأرض الشام ، كما أرادوا أن يثبتوا مقدرتهم على النهوض بتراث الأمويين الحربي ، الذي خلفوه بدمشق عروس إقليم الشام ، والتي واجهت جيوشها النار الاغريقية لأول مرة في التاريخ الإسلامي . فكانت النار التي قذفها المسلمون مشارع وفزع في قلوب أعدائهم ، ولم يستطع الصليبيون رغم تظاهرهم بالشجاعة والبيأس إخفاء زعرهم من هذه النار ، إذ وصفها أحدهم قائلاً « انطلقت النار علينا أشبه بتنين ذي جناحين طويلين ، رأسه تقرب من رأس السكب ، وكانت مصخوبة بصوت أشبه بالرعد ، وبضوء أشبه بالبرق الخاطف ؛ وتبدد الظلام فجأة بهذا النور القاتل^(٢) » .

وغدت هذه النار تنسب إلى المسلمين وتدعى « بالنار الإسلامية » ، لأن الأعداء عجزوا عن معرفة سر هذا السلاح الجديد الذي احتضنه المسلمون . وظل استخدام النار الإسلامية سائداً حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حيث دخلت عليها تطورات وتعديلات كثيرة أدت أخيراً إلى صناعة البارود . ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير في أساليب الحرب التي عرفها العالم الحديث . وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام أي سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء ، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم .

(1) Gibbon op cit 797.

(2) Ibid, 798 ; Oman, op cit II 47, 48.

بنو مروان والقسطنطينية

تدعيم البيت الأموي :

بعد عودة القوات الإسلامية من حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع ، انفجرت بعض الأحداث في جوف العالم الإسلامي كان لها أبعاد الأثر في مجرى الحرب مع الامبراطورية البيزنطية . إذ توفي الخليفة معاوية بن أبي سفيان تاركاً لابنه يزيد عرش الخلافة ينازعه فيه كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية . ومن ثم وقعت حملات المسلمين على أراضي الدولة البيزنطية فترة مداها خمسة عشر عاماً ، صرفها أبناء البيت الأموي في تدعيم سلطانهم على العالم الإسلامي وتأمين أحواله الداخلية . إذ انقسمت الدولة الإسلامية على عهد يزيد إلى ثلاثة أجزاء تقريباً ، وهي الشام الباقية على الولاء لبني أمية ، والعراق حيث كانت الحركة لإقامة خلافة علوية ، وبلاد العرب نفسها التي كانت تريد إقامة خليفة عربي منتخب وفق نظام الشورى .

واستطاع يزيد أن يضم العراق إلى إقليم الشام بعد معركة كربلاء ، ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب فيها^(١) . إذ انهارت آمال أهل العراق في إقامة خلافة علوية ، ودخلوا في البيعة لبني أمية مرة أخرى . ثم اتجه يزيد بعد ذلك إلى إقليم الحجاز الذي نادى بخلافة عبد الله بن الزبير ، ورفض إعلان ولائه لبني

(١) رفض الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ م ، واستجاب لدعوات أهل العراق الذين أعلنوا أنه الخليفة الشرعي . وذهب الحسين قاصداً الكوفة على رأس قوة صغيرة من ذوى قريبه . ولكن حاكم العراق الأموي عبد الله بن زياد سد الطريق في وجه الحسين . وفي العاشر من محرم سنة ٦١ هـ / ٢٠ أكتوبر سنة ٦٨٠ م أحاطت قوة الأمويين الكبيرة باتباع الحسين عند كربلاء التي تبعد ٢٥ ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة . وأسفرت المعركة عن قتل الحسين وكثير ممن معه . ولكن جاءت هذه الحادثة وبالا فيما بعد على بني أمية ، إذ غذت روح التذمر ضدهم حتى سقطت دولتهم آخر الأمر .

أمية . وكانت ثورة عبد الله بن الزبير من أخطر المشاكل التي واجهها يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان . إذ لم يستطع القضاء عليها ، وتوفى تاركاً ابن الزبير يبسط سلطانه على إقليم العراق مستهدفاً ضمّ سائر العالم الإسلامي تحت رايته . وتوالت الأزمات على البيت الأموي بعد وفاة يزيد ، إذ بينما عبد الله بن الزبير يوسع دائرة نفوذه تولى عرش الخلافة الأموية بالشام ابن يزيد ، ويدعى معاوية الثاني . وكان حدثاً ضعيفاً غير قادر على مواجهة الموقف الدقيق الذي حاط بالبيت الأموي . فلم تلبث عوامل النزاع أن انتشرت بين القبائل العربية المقيمة بالشام ، وانقسمت إلى فريقين متناضلين ؛ اليمنيون أو عرب الجنوب ومن أشهرهم قبيلة كلب ، والقيسية أو عرب الشمال . وعجز معاوية الثاني عن السيطرة على الموقف ، وأصبح البيت الأموي مهدداً بالزوال على عهده .

وكان لهذه الأحداث أثر كبير في نفوس رجال البيت الأموي ، فأجمعوا رأيهم على إبعاد الفرع السفيفاني عن تولي مقاليد الأمور حيث أصبح مفتقراً إلى الشخصيات الجديرة بمنصب الخلافة . ووقع اختياراً أبناء البيت الأموي على أحد كبار رجالاتهم وهو مروان بن الحكم ، وكان مقيماً بدمشق منذ وفاة يزيد . وبادر أتباع مروان إلى مبايعته بالخلافة في الجابية (ذي القعدة سنة ٥٦٤ / ٦٨٤ م) . وتعتبر هذه البيعة حداً فاصلاً بين عهدين من البيت الأموي ، إذ انتقلت الخلافة نهائياً من الفرع السفيفاني إلى الفرع المرواني (من أبناء مروان بن الحكم) .

واشتهر مروان رغم شيخوخته بالدهاء والبراعة في تهيئة الأمر لنفسه ولأبناءه من بعده . فاستمال إليه خالد بن يزيد ، بأن وعده بولاية العهد ، ثم كسب مع هذه الشخصية كذلك خال يزيد وهو حسان بن مجدل زعيم قبيلة كلب . وكان لهذا التحالف أثر كبير في المحافظة على البيت الأموي ، إذ كان انضمام عرب الجنوب إلى مروان عاملاً قوياً شد أزره ضد القيسة ، التي كان زعيمها

الضحاك بن قيس الفهرى ، قد نصب نفسه واليا على دمشق من قبل عبد الله ابن الزبير^(١) . فسار مروان على رأس حلفائه إلى دمشق ، وخرج القيسيون للقاءه في سهل مرج راهط شمال شرقى المدينة . وكان النصر حليف مروان في هذه المعركة ، وأضحت الشام مرة أخرى وحدة تابعة لبني أمية تحت إمرة مروان ابن الحكم .

وقضى مروان البقية الباقية من حياته في التمسكين للخلافة في سلالة بدلا من الفرع السفىانى . فاستطاع بعد عدة مفاوضات إقناع ابن يزيد بالتنازل عن حقه في الخلافة لابنه عبد الملك ، وضمن بذلك انتقال الخلافة الأموية إلى بيته نهائيا . ويعتبر ظهور هذا البيت الجديد من أهم العوامل التى أكسبت الدولة الإسلامية قوة وحيوية ، وبعثت فيها نشاطاً حريياً رائعا ، كانت آيته عبد الملك ابن مروان .

ويعتبر عبد الملك صورة حية لما تتمتع به بنو أمية من نشاط وذكاء وروح الشجاعة . إذ سار على نهج السياسة العامة التى اتبعها معاوية مؤسس الفرع السفىانى ، وهى تدعيم الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية للتفرغ للبيزنطيين أعداء المسلمين ، مما ينهض دليلا على اهتمام الفرع المروانى بمتابعة سياسة أسلافهم من بنى سفىان فى الدفاع عن أرض الإسلام وإعزاز كلمة المسلمين . وجهد عبد الملك على أن يحيط نفسه بكافة الوسائل التى تكفل له تحقيق أهدافه فى توحيد القوى الإسلامية

(١) لما قتل الحسين نادت الحجاز بخلافة عبد الله بن الزبير . فأسرع يزيد بإرسال حملة تأديبية ضد أهل المدينة بالحجاز . وقد انتصرت هذه الحملة ، ثم اتجهت إلى مكة وحاصرتها ، حيث التجأ بها عبد الله بن الزبير . ولكن مات يزيد أثناء الحصار ، فرفعت الحملة الأموية الحصار وعادت إلى دمشق . وتلا موت يزيد فترة اضطراب زاد فيها نفوذ ابن الزبير ، إذ نادت به العراق خليفة كذلك ، وبعض أجزاء من الشام ، حيث أقام ابن الزبير زعيم حزب القيسية الضحاك ابن قيس الفهرى والياً على دمشق من قبله . ولكن انتصار مروان على حزب القيسية وأخذه الخلفه مهد للقضاء على ثورة ابن الزبير . إذ استطاع ابنه عبد الملك أن يطيح بابن الزبير بفضل الحجاج بن يوسف الثقفى . وكانت ثورة ابن الزبير قد استغرقت تسع سنوات .

جميعها . فعقد هدنة مع الامبراطورية البيزنطية في مستهل حكمه ، حيث كانت الجيوش البيزنطية تقوم بإغارات على حدود الشام الشمالية ، منتهزة فرصة انشغال المسلمين بمشا كلهم الداخية . واشترى عبد الملك هذه الهدنة بدفع مبلغ معين للبيزنطيين ، يعتبرنافها إلى جانب المشاريع التي حققها فيما بعد لدولة المسلمين في ظل الهدوء والاطمئنان . ولم تكن سياسة شراء السلم بالمال مما يعيب الخلفاء الأمويين ، حيث برهنوا على أنهم استهدفوا من وراءها مصلحة أرض الإسلام ، لا عن خوف وخنوع .

وكرس عبد الملك جهوده ضد ثورة عبد الله بن الزبير التي كادت تفصم عرى الوحدة الإسلامية . ففضى على مصعب أخى عبد الله بن الزبير ، وكان ينشر الدعوة لأخيه بإقليم العراق . ثم وجه بعد ذلك إلى إقليم الحجاز ، الذى أقام به عبدالله ابن الزبير نفسه ، شخصية من أعظم الشخصيات الموالية للمبيت الأموى وهو الحجاج ابن يوسف الثقفى^(١) . واستطاع هذا القائد الأموى أن يعيد إقليم الحجاز إلى التبعية لبني أمية بعد مقتل ابن الزبير عام ٦٩٢ م . وكان لهذا الانتصار الأموى أثر كبير على مجرى العمليات الحربية الإسلامية فيما بعد . إذ هاجر كثير من مسلمى الحجاز إلى الشام لينضموا إلى حملات الأمويين المظفرة ، التي كانت تعد مرة أخرى لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين .

عبد الملك بن مروان وجستينيان الثاني :

شاهد عام ٦٨٥ م ارتقاء حاكين جديدين عرش الدولة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية ، وارتبط بعهديهما تجدد الصراع الإسلامى البيزنطى ،

(١) كان الحجاج بن يوسف الثقفى معلم صبيه في مدينة الطائف بالحجاز . وقد انضم إلى بني أمية وساعدهم في القضاء على ثورة ابن الزبير سنة ٦٩٢ م . ثم عينه عبد الملك بن مروان والياً على العراق الذى اشتهر أهله بالتمرد على الأمويين . واستطاع الحجاج ان يقبض بيد من حديد على هذا الاقليم ، ونشر الهدوء في سائر أرجاءه . وقام بفتوحات جليلة في بلاد ماوراء النهر من مقر ولايته الجديد .

واستئناف المجهودات الإسلامية لإذلال عاصمة البيزنطيين . وكان هذان الحاكمان على طرفي نقيض ، فالأول وهو عبد الملك بن مروان أريب متزن ، يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وخبير بأحوال العالم الإسلامي ، وبصير بالطرق التي تكفل له الزعامة والغلبة على الامبراطورية البيزنطية . والحاكم الآخر هو جستنيان الثاني نزع أحق ، يفتقر إلى تفهم شؤون امبراطوريته وما يكفل لها الاستقرار^(١) .

وتردد صدى ما اتصف به كل من عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني من صفات حين تجدد الاصطدام بين دولتيهما . إذ ابتدأ جستنيان بالعدوان على أراضي الدولة الإسلامية منتهزاً انشغال عبد الملك بالثورات الداخلية ، وخلق مناطق التخوم الإسلامية من القوات المرابطة بها . واعتمد جستنيان في هذا الهجوم على جماعة المردة المقيمين في جبال اللكام ، وكانوا دائماً وكلاء يعملون على تنفيذ أغراض الدولة البيزنطية في الأراضي الإسلامية . وكان جستنيان الثاني يهدف من إغارات الجراجمة أو المردة إزهاق الدولة الإسلامية في فترات اضطرابها ، دون الالتجاء إلى خرق المعاهدة التي سبق أن عقدها معه عبد الملك بن مروان في مطلع حكمه . ولكن عبد الملك آثر القضاء على حركة الجراجمة نهائياً باتباع سياسة المسالمة ، ومعتمداً على قصر نظر جستنيان الثاني . إذ دخل في مفاوضات لتجديد المعاهدة السالفة ، وأضاف إليها تعهد الإمبراطورية البيزنطية بإبعاد الجراجمة عن مناطق التخوم الإسلامية مقابل دفع ١٠٠٠٠ دينار سنوياً^(٢) .

وتعتبر هذه المعاهدة من أعظم الخطوات الدبلوماسية نجاحاً ، والتي تفوق بها عبد الملك بن مروان أثناء انشغاله بمشاكله الداخلية على الامبراطورية البيزنطية . وكان لها صدى بعيد فيما بعد حين تجدد النزاع الحربي بين المروانيين والبيزنطيين . إذ رأى الامبراطور البيزنطي في الحصول على ذهب الدولة الإسلامية مقابل إبعاد

(1) Bury, op cit II, 320.

(2) Bury, op cit II, 302

الجراجمة ، رمزاً لعظمته دون أن يدرك ما يكمن وراء هذا العمل من أخطار جسيمة سوف تحيق بدولته . وبدأ جستنيان فعلاً بنقل ١٢٦٠٠٠ من الجراجمة إلى رومانيا، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتشتت البقية الباقية منهم داخل آسيا الصغرى (١) .

وبذلك كسب عبد الملك جولة هامة في علاقاته مع الامبراطورية البيزنطية ، وبرهن على أنه خبير بأحوال أعدائه كذلك . إذ كان جستنيان الثاني مستعداً لقبول فكرة نقل الجراجمة مقابل مبلغ زهيد . فالدولة البيزنطية نظرت دائماً إلى الجراجمة نظرة شك وريبة ، رغم ما قاموا به من خدمات ضد الدولة الاسلامية منذ أيام معاوية بن أبي سفيان . إذ كان أولئك الجراجمة على المذهب المونوفيزيتي البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين ، وجاء جستنيان الثاني وحكم نزواته وحبه للمال وأبعد الجراجمة إلى الأبد ، وحطم بذلك هذا « الستار الحديدي » (٢) ، على حد قول المراجع البيزنطية ، والذي وقف دائماً في وجه الجيوش الإسلامية . وأثبت عبد الملك من ناحيته علو كعبه في السياسة على الامبراطور جستنيان الثاني .

وسرعان ما تبين الامبراطور جستنيان الثاني خطأ تشتيته الجراجمة ، واحتياج الدولة لهم حين تجددت إغارات الجيش البيزنطي بأناتوليا على أراضي الحدود الاسلامية . إذ أدرك ضرورة سد الثغرة التي أحدثها نقل الجراجمة ، وعول على وضع عناصر جديدة ذات بأس وشدة في الأماكن المعرضة للخطر ، لحمايتها على نحو ما فعل الجراجمة من قبل . واتجهت أنظار جستنيان الثاني نحو العناصر السلاقية الضاربة في أطراف البلقان . وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظها بالهدوء والسكينة في الأراضي البيزنطية التي استقروا بها . ورأى جستنيان الفرصة مواتية للتخلص من التزاماته المالية والهجوم على هذه العناصر وأخذ عدد كبير

(1) Bury. op cit 321.

(2) Ibid, 321.

منها أسرى لإحلالهم محل الجراجمة . ونجح في مهاجمة العناصر السلاقية المقيمة بالقرب من سالونيك وجمع عدداً كبيراً حملهم معه إلى آسيا الصغرى (١) .

* ووزع الامبراطور جستنيان الثاني العناصر السلاقية على أشد جهات آسيا الصغرى عرضة لهجمات المسلمين ، والتي كانت تقع على طريق زحفهم صوب القسطنطينية . فكون منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠.٠٠٠ جندي ، وجعل مقرها الرئيسي في المنطقة المطلة على الدردنيل ، والتي عرفت إذ ذاك ببند أو بيسيكيون (Opsikion) أو بند الفرق الامبراطورية (٢) . وكانت هذه المنطقة محط رحال القوات الإسلامية حيث جهدت على إقامة نقط ارتكاز لها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية . وأراد جستنيان بعد ذلك شد أزر جماعات السلاق بنقل عدد كبير من أهالي جزيرة قبرص إلى بند الأوبسيكيون أيضا . وكانت خطوته تحمل في طياتها الكثير من العسف والعنت ، إذ واجهت السفن التي تقل أهالي قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين ، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص (٣) .

استئاف الجهاد ضد البيزنطيين :

ولكن سرعان ما حدث الانفجار بين عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني حول مسألة القراطيس ، أو الورق الذي كانت تستورده الامبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية ، وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية ، كانت العملة السائدة في البلاد الإسلامية . وكانت مصر هي القطر الذي يصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيتها لها قبل الفتح الإسلامي . وجرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التمثيل في رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة .

(1) Bury, op cit II, 336.

(2) Bury, op cit II, 323.

(3) Ibid, 323.

ولسكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة « قل هو الله أحد »^(١) .

ووصلت هذه القراطيس الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كبرى في البلاط البيزنطي، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثاني واستكبر قيام الدولة الإسلامية بهذا العمل الجديد . فكتب إلى الخليفة عبد الملك « إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه »^(٢) وأغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد الإمبراطور البيزنطي ، وما قد تحدثه من أثر سيء في نفوس عامة المسلمين ، إذ أن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة في الأسواق الإسلامية ومع الدول الخارجية .

ولسكن هذه الأزمة أثبتت قوة التعاون والتآزر بين أفراد البيت الأموي جميعاً ، وتفانيهم في العمل على عزة المسلمين . إذ أشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطيس الجديدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين ، فقال : « يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير »^(٣) . وجاء هذا الحل بلهما شافياً للخليفة ، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لصبغ الدولة الإسلامية بصبغة عربية ، وخلق وحدة اقتصادية في العملة خاصة بها .

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن ، وعرفت باسم الدنانير الدمشقية^(٤) . وخلص عبد الملك بذلك الدولة الإسلامية من ربة العملات الأجنبية التي كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد . إذ كانت دنانير

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٤٩ .

(٤) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٤٧١ .

بيزنطة ترد إلى بلاد العرب منذ الجاهلية ، وتعتبر العملة الأساسية في المعاملات التجارية الكبرى ، على حين يستخدم الدرهم الفارسي في المعاملات المحلية . وظل أمر العملة الأجنبية معلقاً في الشؤون التجارية الإسلامية حتى نشب الخلاف بين عبد الملك وجستينيان الثاني ، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٤/٧٥ م) ليتخلص من تهديد البيزنطيين . ولم يحدث هذا التغيير انقلاباً في أحوال الدولة الإسلامية لأن الناس سرعان ما تعاملوا بالنقود الجديدة ، ووجدت الجماعات التي تشذ عن استعمالها قسوة وعقاباً صارماً من الخليفة^(١) .

ونجم عن العملة الإسلامية الجديدة تجدد الصراع الحربي بين المسلمين والبيزنطيين ، حيث انتقل الأمر من مجرد تهديد ووعيد إلى صليل السيوف . إذ أرسل الخليفة عبد الملك في سنة ٦٩٢ م التزاماته المالية للدولة البيزنطية ، نظير إبعاد الجراجمة ، من هذه العملة الجديدة . فرفض جستينيان الثاني قبول هذه العملة الخالية من صورة الأباطرة البيزنطيين ، وأخذ يتحرش بالمسلمين ويهاجم أراضيهم . ولكن صادفت هذه الأعمال انتهاء الخليفة عبد الملك من مشاكله الداخلية كلها ، وعول على إلقاء درس قاس على الإمبراطور المغرور .

استهل عبد الملك جهاده للدخول عن أرض الإسلام بالزحف على قيليقيا بآسيا الصغرى ، واصطدام عند مدينة سيواس (Sebostopolis) بالقوات البيزنطية ، التي كانت تضم عدداً كبيراً من العناصر السلافية التي وضعها جستينيان في بند أو بسكيون . وجاء الإمبراطور نفسه على رأس هذه القوات لمحاربة المسلمين ، تحدوه الآمال في الانتصار عليهم . ولكن المسلمين بدوا آمال الإمبراطور ؛ إذ دارت رحى الحرب على قواته بسبب انضمام العناصر السلافية فيها إلى المسلمين . وكانت هذه الجماعات السلافية تحقد على الإمبراطور وترفض طاعة أوامره ، ومن

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٥ .

ثم دخلت غالبيتها في التبعية للمسلمين حين سئحت لها الفرصة في معركة سيواس،
وحاربت إلى جانب المسلمين أيضاً في هذه المعركة ضد من تبقى من قوات مع
الإمبراطور جستنيان^(١).

وعاد الإمبراطور بعد هزيمته هارباً مع فلول جيشه متجهاً إلى البسفور .
وكان يصحبه بعض جنود السلاف ممن بقى على الولاء له . ولكنه ارتكب خطأ
فاحشاً مع فلول السلاف بسبب خنقه على خيانة زملائهم ، إذ جمعهم عند مدينة
ليوكاتا (Leucata) وقتلهم جميعاً ، شافياً غليظة مما فعله بنى جلدتهم من التخلي
عنه والانضمام إلى المسلمين .^(٢) ونجم عن هذه الحادثة أن أصبح جستنيان الثاني
موضع كراهية السلاف جميعاً المقيمين في سائر أنحاء آسيا الصغرى ، وغدوا أداة
مستعدة لخدمة المسلمين في أى نضال حربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين^(٣).

واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء السلاف لهم ، إذ كانوا على علم بدروب
آسيا الصغرى والمسالك التي تصل بين مدنها المختلفة . فقاموا بوظيفة الأداة
للجيوش الإسلامية ، يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها للاستيلاء على المعاقل
الهامة بهذه البلاد . ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها وإغاراتها على مدن
آسيا الصغرى دون أن تلقى جهداً كبيراً .

(1) Bury, op cit II, 322.

(2) Bury, op cit, 322.

(3) Ibid, 322,

الحصار الثالث للقسطنطينية

الاستعدادات الإسلامية والبيزنطية

لم تتغير سياسة البيت الأموي تجاه القسطنطينية رغم انتقال الخلافة من الفرع السفيناني إلى المرواني . فلما كرس معاوية بن أبي سفيان ، زعيم الفرع الأول ، جهوده لحشد قوى الدولة الإسلامية لضرب القسطنطينية ، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان زعيم الفرع الثاني في البيت الأموي مهد الطريق لأبناءه من بعده على الجهاد ضد عاصمة البيزنطيين وتخليد اسمهم في سجل التاريخ الإسلامي .
دب انسطاس الكسلسم لأبناء دولة مستقرة الأركان يسودها الهدوء والنظام ، وأحيى في نفوس أهلها حب الجهاد ضد البيزنطيين ، والتطلع مرة أخرى إلى إذلال عاصمتهم وما بها من أباطرة تملأ نفوسهم البغضاء والكبرياء الأجوف .

وكان الوليد بن عبد الملك خير خلف لأبيه ، إذ تابع الفتوحات التي بدأها أبوه في آسيا الصغرى ، وجعل هدف حركته الحربية الاستيلاء على المعامل الهامة الواقعة في الطريق الرئيسي المؤدى إلى القسطنطينية . واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مدينة طوانة (Tyana) مفتاح الطريق الهام بين الشام والفسفور ، والذي تسلكه الجيوش الإسلامية في طريقها لمهاجمة القسطنطينية . وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتالين ، لشدة تحصيناتها ولاستماتة البيزنطيين في الدفاع عنها . وأرسل الإمبراطور جستنيان الثاني قائدين من قادة الدولة على رأس قوات من الجند النظامي ، ومعهم عدد من الجند غير النظامي كذلك لإنتقاذ المدينة وتخفيف حدة الهجوم عن حامياتها . ولكن المسلمين قضوا على هذه الامدادات ، وتابعوا حصارهم للمدينة . ولم تجد الحاميات البيزنطية مفرأ من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضيح سكان المدينة من العناء . ودخلت

الجيش الإسلامي مدينة الطوانة سنة ٧٠٧ م ، وأصبحوا يتحركون في أهم معامل إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى (١) .

وتابع المسلمون إغاراتهم على مدن آسيا الصغرى ، وامتازت سنوات ٧١٠ ، ٧١١ م بما لازم الجيوش الإسلامية من توفيق في نشر الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين . وفي سنة ٧١٢ م وصلت الجيوش إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل الهامة بالقرب منه (٢) . وكانت هذه العمليات الحربية الإسلامية حملات استطلاعية وتمهيد الزحف المباشر على العاصمة البيزنطية . وساهم الأسطول الإسلامي في الحركات الحربية كذلك . ومن ثم حمل البيزنطيون على حمل المسلمين ودياً على إيقاف زحفهم صوب القسطنطينية . إذ أسر الأسطول البيزنطي في سنة ٧٠٩ هـ / ٧٠٩ م خالد بن الوليد ، صاحب البحر ، أي أمير البحر على السفن الإسلامية . فبادر الإمبراطور البيزنطي إلى إعادته للخليفة الوليد مدلالاً على رغبته في استئناف العلاقات الودية مع المسلمين (٣) . وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه في السيطرة على معاقل آسيا الصغرى الهامة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها . وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك هو أنسطاس الثاني (Anastasius) الذي أدرك الفوضى التي سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية ، وافتقارها إلى القادة الأكفاء والجنود المدربين . فبدأ الإمبراطور يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية المتكررة . وعين على بند أناتوليا ، أي الإقليم الحربي الشرقي بآسيا الصغرى ، قائداً أعدته الأحداث لأن يلعب دوراً هاماً في قصة الحملة الإسلامية الكبرى التي كانت تعد لمهاجمة القسطنطينية .

وكان القائد البيزنطي الجديد يدعى ليو ، من مواطني المنطقة الجبلية

١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٨٨ ؛ Bury, op cit II, 362

٢) Bury, op cit, 392.

٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٦٨ .

في إقليم إيسورة ، ولكنه قضى فترة طفولته في مدينة مرعش (Germanica) على الحدود الاسلامية البيزنطية . وبذلك أتيج له أن يعرف اللسان العربي وأن يفهم تقاليد الاسلام ومطامح المسلمين . وعند ما شب وترعرع ظهرت عنده ملكة حب الخداع وإيقاع الفرقة بين طوائف الناس . فأوفده الإمبراطور جستنيان الثاني إلى القبائل الضاربة على حدود الإمبراطورية في الشمال لـبذر بذور التفرقة والشقاق بينها . وعاد مكلا بالنجاح من مهمته على عهد الإمبراطور انسطاسي الثاني ، الذي كان يبحث عن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم الحربية في آسيا الصغرى ، ولا سيما بعد أن تحولت حملات المسلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية . فاختار الإمبراطور انسطاس الدبلوماسي ليوليدير إقليم أناتوليا بآسيا الصغرى^(١) ، ومهد بذلك لهذا القائد طريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصارهم الثالث لمدينة القسطنطينية .

٧ وفي الوقت الذي كان الإمبراطور البيزنطي يرفع فيه شخصية ليوليدير إلى مسرح الأحداث ، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعد شخصية أخرى اضطاعت ببطولة الحصار الأموي الثالث لمدينة القسطنطينية . إذ عهد إلى أخيه مسلمة ابن عبد الملك إدارة دفعة الحملات الاسلامية التي استولت على معظم المعاقل البيزنطية بآسيا الصغرى ، والمؤدية إلى القسطنطينية . وبذلك أصبح مسلمة القائد الأموي الجدير بتولى الحملة الاسلامية التي أخذ الوليد يعدها لضرب القسطنطينية ، ويتوج مجهوداته بالاستيلاء على عاصمة البيزنطيين .

وأقبل مسلمة بن عبد الملك على مساعدة أخيه الخليفة الوليد في تجهيز الحملة الإسلامية القاصدة حصار القسطنطينية . وكانت الاستعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث ترامت أنباء هذه الحملة إلى السلطات البيزنطية في العاصمة سنة

(1) Bury, op cit II, 374 :

٧١٤ م . فأوفد الإمبراطور أنسطاس سفارة إلى دمشق لتباحث مع السلطات الإسلامية في شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكن زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى التجسس على مدى استعداد المسلمين الحربى ، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية . وكان رئيس هذه السفارة رجلاً حصيفاً يدعى دانيال (Daniel) حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره ^(١) .

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ، ونشاط الخليفة فى إعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية . فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطى صدق عزيمة المسلمين على الجهاد ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة . ونفذ أنسطاس تعليمات السفارة ، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفية ثلاث سنوات ، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته . ثم ملأ الخزان الإمبراطورية بكهيات هائلة من القمح وغيره من الحاجات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة . واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولا سيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعى قد دب فيها ، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من الجانيق وغيرها من وسائل الدفاع ^(٢) .

وفى تلك الفترة من الاستعدادات الإسلامية البيزنطية توفى الخليفة الوليد . ولكن المشروع الإسلامى لحصار القسطنطينية سار قدما دون أى تغيير ، إذ تبناه أخوه سليمان بن عبد الملك ، الذى خلفه على عرش الدولة الإسلامية بحماس أشد قوة . فقد بلغ اهتمام المسلمين فى أرجاء الدولة الإسلامية شأواً كبيراً

(1) Bury, op cit 371.

(2) Ibid, 371.

بالمساهمة في مجهودات الخليفة سليمان^(١). وتكاتف مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الاسلامية بكل ما تحتاج إليه من عدة وعتاد. فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان ليصنع منها سفن جديدة في دور الصناعة بمصر، لتعزيز الأسطول الاسلامي المتجه لحصار القسطنطينية. وعلم الامبراطور انسطاس بأخبار نشاط المسلمين وازدياد استعدادهم الحربي على عهد الخليفة سليمان، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات ولا سيما البحرية منها، لأنه أدرك أهمية الدور الذي ستضطلع به السفن الاسلامية. فعمد إلى مهاجمة الأسطول المصري وتخريب الأخشاب قبل عودتها إلى مصر. وعهد إلى جنود إقليم أو بيسيكيون (أى إقليم فرق الحرس الامبراطوري) بتنفيذ هذه المهمة. ولكن باءت مجهودات الامبراطور انسطاس الثانى بالفشل لعصيان الفرق الامبراطورية لأوامره وكرهيتها له. إذ شقت عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس في طريقها لمهاجمة سواحل الشام، وقتلت القائد الذى عينه الامبراطور عليها لادارة عمليات الهجوم، وعادت إلى القسطنطينية وغزات الامبراطور^(٢) وعينت على العرش امبراطور آخر^(٣).

سير الحمد الاسلامية :

رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك ملاءمة أحوال الامبراطورية البيزنطية لضرب القسطنطينية، ولا سيما بعد أن سرى الفساد فى جميع مراقبها وإدارتها. فأعد فى دابق بشمال الشام معسكراً كبيراً ليكون مقراً لادارة دفعة العمليات الحربية ضد القسطنطينية. وقضى الخليفة معظم وقته فى هذا المعسكر ليشرف

(١) الطبرى، نفس المرجع، ج ٨، ص ١١٨.

(٢) Bury, op cit, 372.

(٣) Ibid, 372 373

بنفسه على سير العمل فيه ، « وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش
الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية »^(١) .

وفي سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م تحركت الجيوش الاسلامية نحو القسطنطينية تحت
قيادة مسleme بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه . وأمر سليمان أخاه « أن يقيم عليها
(أى على القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتية أمره »^(٢) . فبعث مسleme أحد
قواده ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع له الطريق عبر آسيا الصغرى .
وتوغل سليمان فى إقليم أناتوليا (أى الإقليم الشرقى) حتى بلغ حضرته وهى مدينة
عمورية ، التى كانت منذ أيام معاوية بن أبى سفيان مقصد الجيوش الاسلامية
الزاحفة على القسطنطينية . وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة ، وعلم إذ ذاك
أن حاكمها المدعو ليو ، يدين بمركزه للإمبراطور السابق انسطاس ، ويناهض
الإمبراطور تاوداسيوس الثالث القابض على أزمة الحكم بالقسطنطينية .

وبدأ القائد سليمان يدبر خططاً هدفها القبض على ليو وإدخاله فى التبعية
للمسلمين ، والاستفادة من خبرته فى هدم الأبراطورية البيزنطية . فكتب إلى
ليو خطاباً جاء فيه « نحن نعلم أن مآل الإمبراطورية الرومانية إليك ، فاخرج
لنا لنتفق على شروط الصلح » ، ثم أمر القوات الاسلامية المرابطة أمام أسوار
عمورية بأن تهتف « يحيا الإمبراطور ليو »^(٣) . « وأجاب ليو على خطاب سليمان
متسائلاً « لماذا يحاصر المسلمون مدينة عمورية إذا كانوا يريدون عقد صلح
معه ؟ » . فرد عليه سليمان مبيناً « أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ
المحادثات الرسمية بينهما »^(٤) .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٣) Bury, op cit, 376

(٤) Bury, op cit, 379,380 381

وأدرك ليو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية ، وأنه لا بد أن يسلم لهم . فبیت أمراً خطيراً احتفظ به لنفسه فقط ، وهو أن ينضم إلى الجيوش الإسلامية متظاهراً بإرشادها إلى ما يجب أن تفعله للاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن إيصال ذلك إلى العاصمة نفسها ويحصل على العرش ، ثم يقف بنفسه مناهضاً الجيوش الإسلامية . فدخل ليو في مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم ، وطلب منهم رفع الحصار عن عمورية ، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته قاصداً القسطنطينية . وكسب ليو من وراء ذلك ولاء أهل عمورية الذين حفظوا له تجنبيهم ويلات الحصار ، ونادوا به امبراطوراً على الدولة البيزنطية^(١) .

ولكن أعداء ليو اتهموه بتفريطه في الدفاع عن إقليم أناتوليا ، وبمبالأته للمسلمين ، وتسهيله سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى . وكان هذا الاتهام عاملاً جعل ليو موضع ثقة المسلمين ، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية ليهد لهم سبل الاستيلاء عليها . وبدأ ليو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على السلطان وعرش الامبراطورية . فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الامبراطور تادواسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية ، والمنغمس في لهوه ومسراته . وكان هذا الامبراطور يعتمد في قوته على الجند المقيم في إقليم أوبسيكيون ، أي جند الفرق الامبراطورية ، ونصب عليها ابنه قائداً ليحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام . ولذا ناهض ابن الامبراطور حركات ليو واستعد لصد عدوانه عند مدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى . ولكن ليو تمكن من هزيمة ابن الامبراطور ، وعبر البسفور إلى القسطنطينية . واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليو طرد نفوذه بها . إذ سرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية عندما احتل العاصمة ، وأخذ يعمل على الوصول إلى العرش الامبراطوري . واستغل أخبار الحملة الإسلامية

(1) Bury, op cit. 381, 382.

وقرب وصولها إلى القسطنطينية ليجذب الأنصار حوله . فأعلن أن المدينة معرضة
لحصار طويل ، وأن جيش المسلمين قوى العدة والعتاد ، وأن الموقف يتطلب
شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التي توشك أن تحل بالعاصمة . وساعد ليو على
نجاح دعوته العناصر الأسيوية المقيمة بالقسطنطينية ، إذ انضمت إليه ونادت به
امبراطورا^(١) .

وفي ٢٥ مارس سنة ٧١٧ م عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة ، قرر عزل
تادواسيوس عن العرش وتنصيب ايو امبراطوراً تحت اسم ليو الثالث^(٢) .
وبذلك حقق ليو ما كانت تصبو إليه نفسه من آمال ، حيث وصل إلى أعلى
مركز في الامبراطورية . ولكن لم يتمتع بهذا الظفر طويلاً ، إذ كانت الجيوش
الإسلامية تقترب حينئذ من القسطنطينية ، مصممة على إنزال أشد ألوان الهوان
بها . وكان ليو يعلم الكثير عن مطامح المسلمين وأغراضهم في هذه الحملة الكبرى
ولاسيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن ، فأسرع في تحصين العاصمة وتقويتها
لمواجهة الحصار الإسلامي المنتظر .

الحصار الإسلامي :

كان أمام ليو فترة خمسة شهور لإتمام استعداداته الحربية ، إذ قضى المسلمون
هذه الفترة في تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم . فاستولى مسلمة
بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندي على مدينة بروجام ، ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس
وعسكر أمام أسوار القسطنطينية في ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م^(٣) . وكان مسلمة
يدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه ، فأمر « كل فارس أن يحمل على عجز فرسه

(1) Bury, op cit, 383.

(2) Bury, op cit, 383.

(3) Bury, op cit, 401.

مدین من طعام حتی یأتی به القسطنطینیة»^(١). واحتفظ بقدر کبیر آخر من المؤن لتزوید جنده بها أثناء الحصار .

و بعد ستة عشر یوما من وصول مساهة إلى أسوار القسطنطینیة ، دخل میاه البسفور فی أول سبتمبر أسطول إسلامی کبیر ، مکنون من ١٨٠٠ سفینة کبيرة عدا سفن صغیرة أخرى کثیرة . وأخذ مساهة ینظم التعاون بین القوات البریة والبحریة لإتمام حلقة الحصار علی القسطنطینیة . فاضطلعت قوات مساهة البریة بحصار أسوار المدینة من الناحیة البریة ، علی حین عمد سلیمان أمیر البحر المسلم علی سد المنافذ والمسالك المائیة التي یمکن أن تحصل منها العاصمة علی الأمداد والمؤن ، ثم حصار أسوار المدینة البحریة كذلك . فاحتل الأسطول الإسلامی مدخل البسفور الجنوبی لقطع الاتصال بین المدینة و بحر مرمره و بحر ایجه كذلك . ثم انتهز أمیر البحر فرصة هبوب ریح جنوبیة طیبیة و بعث شرطاً من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشالی لمنع وصول أی مدد یأتی للمدینة من البحر الأسود ، ولاسیما أن شواطئه الشالیة كانت غنیة بحقول القمح التي تزود القسطنطینیة بالغلل^(٢) .

وسارت السفن الإسلامیة الکبری سیراً بطیئاً رغم الریح المواتیة بسبب التیار المائی الشدید الذی یتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمره . ثم غیرت الریح اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجویة فی تلك المنطقة . فاختل سیر السفن لسوء الأحوال الطبیعیة ورداءة الملاحة فی هذه المیاه الإقلیمیة للقسطنطینیة . ولذا انتهز البیزنطیون هذه الفرصة ، وبعثوا سفنهم الحملة بالنار الإغر یقیة لیزیدوا من متاعب السفن الإسلامیة^(٣) . ویلاحظ أن لیو لم یجروء علی إرسال سفنه

(١) الطبری ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

(2) Bury, op cit, 401, 402 .

(3) Bury, op cit. 402 .

إلا بعد أن ساءت الأحوال الجوية ، وأن سفن الفار البحرية ليست هي العامل الأول أو الرئيسي في منع أمير البحر المسلم من إكمال حلقة الحصار البحري للقسطنطينية .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً قاسياً شديداً رغم بقاء جهتها المطلية على القرن الذهبي مفتوحة . وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء ، وهو قارس جداً ، ويعتبر من العوامل الطبيعية الأخرى التي تعتمد عليها القسطنطينية في الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها . غير أن مسلة احتياط لهذه العوامل الطبيعية « وعمل بيموتاً من خشب ، شتا فيها وزرع الناس ... وأقام بالقسطنطينية قاهراً لأهلها ، ومعه وجوه أهل الشام »^(١) . وبرهن المسلمون بهذا الثبات طول الشتاء القارس أنهم أولى بأس وعزم صادق في الجهاد ، وأنهم حريصون على رفع راية الإسلام في كل مكان .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلة بن عبد الملك . فجاءه أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد . وتعاون هناك القائدان مع مسلة ، لأن أمير البحر السابق سليمان توفي من قبل أثناء الشتاء . وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، عبرت آسيا الصغرى عن طريق أبواب قيليقيا ، وعسكرت في نيقوميديا ونيقيا . وأخذت القوات الأخيرة تهاجم من شواطئ إقليم أو بيسيكيون الحربى ، المعروفة بالشواطئ البحرية « Peratic coast » السنن البيزنطية التي تحاول الخروج ، طلباً للحصول على صيد بحري يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه^(٢) .
x واستخدم المسلمون النفط ، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية في حصار القسطنطينية .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

(٢) Bury, op cit 403 .

وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الاسلام^(١) . وظهر من الجند الاسلامي رجل يدعى عبد الله البطل ، وكان كبير حراس مسامة بن عبد الملك . فقد أبلى في هذا الحصار بلاءً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال . واستشهد هذا البطل في معركة تالية (٧٤٠م) بعد انتهاء الحصار الاسلامي ، حيث كان دائماً على الجهاد . وعرف في القمص التي تداولت عن شجاعته باسم السيد غازي ، واعتبره الأتراك فيما بعد بطلاً من أبطال أمتهم . وأنشئ على قبره بالقرب من إسكى شهر تكية ومسجداً لأبناء الطريقة البكتاشية لا يزالان إلى اليوم . وتسرد القمص عن البطل أيضاً أن البيزنطيين رسموا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وسطوة بين جند المسلمين^(٢) .

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها الحصار الاسلامي لمدينة القسطنطينية ، توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز . وتردد صدى هذا التغيير في ميدان الحملة الاسلامية المحاصرة للعاصمة البيزنطية . إذ كان الخليفة سليمان يمثل عصر أوج الفتوحات الاسلامية ، مما جعله يبدي اهتماماً بالغاً بإمداد الجيوش الاسلامية أمام القسطنطينية بكل ما يكفل لها السيادة والقوة . ولكن أحوال الدولة الاسلامية على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز اقتضت إيجاد فترة استقرار في تيار الفتوحات لتدعيم الصرح الإسلامي العظيم الذي ظهر وعلا . إذ غدت الدولة الإسلامية تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ، ومن بحر آرال شمالاً إلى شلالات النيل السفلى جنوباً . وأصبحت بذلك تبتدئ سائر الامبراطوريات الكبرى التي عرفها التاريخ من قبل ؛ وتقضى أوضاعها الزمنية توجيه الجهود إلى تنظيمها وتأمين رقعتها قبل الاستمرار في الفتح والتوسع .

(١) العيون والحدائق ، ج ٣ ص ٢٤ .
(٢) Hitti, History of Syria, 449.

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب القوات الاسلامية المحاصرة للقسطنطينية . فأرسل في ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م أي بعد حصار دام اثني عشر شهراً كاملاً ، يطلب من مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى الشام . وهكذا عادت الجيوش الاسلامية إلى قواعدها بعد أن أدت رسالتها في إعزاز دولة الاسلام ، وحملت عاصمة البيزنطيين وأباطرتها على التخلي عن مشاريعهم وأحلامهم القديمة في استعادة سالف أراضيهم التي دخلت في رقعة الاسلام . وترك الخلفاء الأمويون بحملاتهم المتكررة على القسطنطينية سجلاً حافلاً بجهودهم في نصره الاسلام ، وحافذاً جعل خلفائهم من الدولة الاسلامية يتطلعون للاستيلاء على هذه العاصمة . وظلت رسالتهم ماثلة حتى حققها شعب إسلامي فتى ، هم الأتراك العثمانيون ، بعد انقضاء سبعة قرون تقريباً على الحملة الأموية الكبرى زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك .

وإذا كان الأمويون قد تركوا مهمة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين ، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى ، إذ تردد صدى هذه الحملات في إقليم شمال إفريقيا ، الذي اتجهت إليه جيوشهم أيضاً لطرده البيزنطيين منه ، وضمه إلى رقعة الاسلام . فقد صرفت أحداث الحصار الأموي للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا ، واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم . وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية ، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة الاسلامية القوية الأوتاد .

الفصل الرابع

استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا وإقصاء البيزنطيين

المغرب قبل العصر الأموي

إفريقية البيزنطية

حمل الأمويون راية الجهاد ضد البيزنطيين في كل مكان ، وتعقبوهم في كل بقعة يمكن أن تتخذ قاعدة يهاجمون منها أرض الإسلام . وكانت الجهة الجديدة التي اتجه إليها الأمويون هي شمال إفريقيا البيزنطية . وقد آلت هذه البلاد إلى الامبراطورية البيزنطية بعد انهيار الدولة الرومانية الكبرى ، واشتملت على الساحل الممتد من برقة إلى طنجة . واعتمدت السلطات البيزنطية على موارد الغلال بهذه البلاد في تموين رعاياها بالعاصمة ، فضلا عن أخذ أخشابها لبناء أساطيلها^(١) . وهذا يوضح أهمية الدور الذي قام به الأمويون لانتزاع هذه الأراضي من البيزنطيين ، وتقليل مجهوداتهم على الحدود الشرقية بآسيا الصغرى .

وكان سلطان البيزنطيين غير مستقر في هذه الرقعة من ممتلكاتهم قبل قيام الفتوحات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط . إذ ساءت العلاقات بينهم وبين سكان البلاد ، ولا سيما أبناء البلاد الأصليين^(٢) ، الذين ظلوا بعيدين

(١) Brehier, Vie et Mort de Byzance, 260

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب (١٩٤٧) ص ٥ ؛

ويعتبر هذا الكتاب أحدث مرجع تناول في اسباب فتح المسلمين للمغرب ، ويضم =

عن حضارات البحر الأبيض المتوسط . وكان الرومان يطلقون كلمة بربر (Barbari) — على نحو ما فعل اليونان من قبل — على سائر العناصر التي لا تدين بحضارتهم . ومن ثم لصق هذا الاسم بسكان شمال إفريقيا الأصليين ، وظل شائعاً حتى جاء المسلمون واتخذوا نفس الاسم للدلالة على سكان المغرب دون تغيير في مدلوله (١) .

وقد انقسم أولئك البربر إلى قسمين متباينين كان لهما أبعاد الأثر فيما بعد في الصراع الذي نشب بين المسلمين والبيزنطيين . القسم الأول يشمل على البربر المستقرين المقيمين في النواحي الخصبية المحيطة بجبال أوراس ، وهي جنوب ووسط الجزائر الحالية ، وجنوب مراکش وبعض أجزاء من تونس الغربية . وكان هذا القسم على جانب من الحضارة لقيام نوع من العلاقات بينه وبين البيزنطيين المستقرين في البلاد ، واشتغل بالزراعة والصناعة (٢) .

وكان القسم الآخر من البربر يضرب في الجهات الصحراوية التي تلي منطقة جبال أوراس ، وفي الواحات التي تقع في المنطقة الجنوبية والشرقية من الصحراء . ودأب أولئك البربر على مهاجمة أراضي البربر المستقرين ، حتى ظهر نوع من العلاقات بين البربر المستقرين والبيزنطيين لصد عدوان البربر البدو . واستغل البيزنطيون هذه العلاقات حين زحف المسلمون على شمال إفريقيا ، وظلوا يعتمدون عليها في المقاومة حتى تمكن المسلمون من ضم البربر البدو إليهم وسيطروا على شمال إفريقيا . وهكذا كان الشقاق بين عنصرى البربر من العوامل التي أطالت عهد البيزنطيين بأراضيهم . ولكن كان نفوذهم غير مستقر ، حيث بسط البربر البدو

معلومات قيمة أشير على القارئ بالرجوع إليها فيما يريد أن يتوسع فيه من آراء جاءت في هذا الفصل . وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً في مناقشة أحداث الفتح وضبط سنواتها .

(١) Hitti, History of the Arabs, 214.

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٦ .

إغاراتهم على سائر الأراضى التابعة للبيزنطيين بالساحل^(١).

د. وزاد في عدم استقرار النفوذ البيزنطى فى شمال إفريقيا أن حكام هذه الولاية جنحوا فى الفترة السابقة لحركة امتداد الزحف الإسلامى إلى الاستقلال بشؤونهم^(٢). إذ ظهر على مسرح الأحداث أسرة عسكرية من سلالة أحد الحكام البيزنطيين يدعى جريجوريوس^(٣)، تولى حكم إفريقيا البيزنطية سنة ٦١٠ م، واعتبرت البلاد ملكاً لهم^(٤). واتجه آل جريجوريوس إلى تدعيم علاقاتهم بالبربر ليضمنوا استقرار الأمور لهم. وظهر تفكيرهم فى الانفصال عن الدولة البيزنطية فيما بين سنة ٦٢٨، ٦٢٩ م حين فكر الإمبراطور هرقل فى نقل عاصمته من القسطنطينية إلى قرطاجنة بشمال إفريقيا فراراً من الزحف الفارسى. فقد اضطرب حاكم إفريقيا، وكان إذ ذاك يدعى جريجوريوس أيضاً، وهو الذى عرفه المسلمون فيما بعد باسم جرجير، وصمم على الانفصال التام حتى لا ينتقل هرقل إلى قرطاجنة^(٥).

ولم يلبث جرجير أن انتهز فرصة عدول الإمبراطور عن ترك القسطنطينية، وقيام الفتوحات الإسلامية فى الشام فيما بعد واستقل تماماً بشؤون إفريقيا. واعتمد فى ذلك على تشجيع البابا فى روما، حيث كان يناهض سياسة الأباطرة البيزنطيين الدينية، وعلى مؤازرة البربر أيضاً الذين أعلنوا ولائهم لآل جريجوريوس، حيث أنقذوهم من المطالب الباهظة؛ وإلى جانب ذلك عضد بعض البيزنطيين

(١) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٦، ٧.

(٢) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢١.

(٣) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢١، ٢٢.

(٤) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٣، ٤٢.

(٥) ابن عبد الحكم، نفس المرجع، ص ١٨٣، ٥٩. Bréhier, op cit,

من أصحاب المطامع استقلال جرجير بإفريقيا^(١). ولكن لم يهنأ جرجير باستقلاله ،
إذ ما كاد ينفصل عن الدولة البيزنطية حتى كان المسلمون قد استولوا على مصر ،
ووصلت طلائع جيوشهم إلى برقة وطرابلس .

طرائع الفتح الإسلامي :

كان اتجاه عمرو بن العاص لفتح مصر ضرورة اقتضتها العمليات الحربية
وتأمين الفتوحات الإسلامية بالشام . إذ كانت مصر معقلا حصينا للبيزنطيين
وقاعدة تهدد سلامة الجيوش الإسلامية بالشام . ولكن بعد أن تم لهرو وفتح مصر
أدرك أن ذنب الأفعى البيزنطية ما زال قائماً في شمال أفريقيا ، وأنه لا بد من
القضاء عليه . فقد تلقت الحاميات البيزنطية بمصر مدداً وعونا من شمال إفريقيا
مكنها من مقاومة الزحف الإسلامي ، وجعلت عمرو بن العاص يعرف أن برقة
وما والاها من بلاد تابعة للبيزنطيين ، ولهم فيها منعة وعزة . وفضلاً عن ذلك كان
أهل برقة وطرابلس بصفة خاصة على علاقات قوية مع مصر ، حتى أن بعض
قبائلهم اعتبر من سكان مصر الأقباط^(٢) . وقامت بين مصر وهذه البلاد سبل
الاتصال في سهولة ويسر ، مما حفز عمرو على أن يتابع سيره إليها بعد فتح
الاسكندرية للقضاء على ما قد يكون بها من تجمعات للبيزنطيين .

ولم يضيع عمرو بن العاص وقتاً حين وجد الظروف تحمله على غزو شمال
إفريقيا ، إذ بادر بإرسال عقبه بن نافع الفهري في سرية صغيرة إلى برقة ليستطلع
أحوالها ريثما ينتهي من إتمام فتح مصر . ولما اطمان إلى سلامة موقفه بمصر ،

(١) Diehl, L'Afrique Byzantine, 552, 556:

حسين مؤنس ، فتح المغرب ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٣ ؛

ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

ووصلته أنباء مشجعة من عقبة عن حالة برقة ، زحف بنفسه على تلك البلاد وفتحها .
وقد سارع البربر بالدخول في طاعة المسلمين وصالحوهم على دفع جزية كبيرة .
ودفع أهالي برقة الجزية عن طيب خاطر وبعثوا بها إلى مصر ، حتى أنه
« لم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا
جاء وقتها »^(١) .

وسار عمرو بن العاص بعد ذلك إلى فتح طرابلس ، واتبع خطة تعتبر
النموذج الذي احتذاه قادة بني أمية فيما بعد لاتمام فتح شمال أفريقيا . إذ تقدم
عمرو على امتداد الساحل دون أن يهمل الناحية الداخلية ، فكان يعمل على
تأمين جيوشه من الأخطار التي قد تدهمها من هذه الجهة وتدعيم مركزه فيها
قبل أن يواصل زحفه على الساحل . فأرسل البعوث الحربية إلى داخل البلاد ،
ثم بدأ فتح مدائن الساحل ، إذ عرف أن انتزاع الساحل من أيدي البيزنطيين
لا يعني خضوع البلاد ، ودخولها في حظيرة المسلمين . واستطاع عمرو بذلك أن
يستولى على مدن الساحل بطرابلس ، ووحداتها الداخلية دون أن يلقى مقاومة
كبيرة^(٢) .

وترجع السهولة التي سيطر بها عمرو على طرابلس إلى عدم وجود أية مقاومة
بيزنطية . ذلك أن جرجير لم يبد إهتماما بالدفاع عن برقة وطرابلس . فقد انفصل
تماما عن الدولة سنة ٦٤٦م ، أي في الوقت الذي زحف فيه عمرو على طرابلس . ومن
ثم اتجه جرجير إلى تأمين نفسه أولا وتعزيز دولته الجديدة قبل أن يواجه المسلمين .
ووقع اختياره على أحد حصون الهضبة الداخلية ويعرف بمدينة سبيطة . وكانت
هذه المدينة إلى جانب منعها تشرف على السهل الساحلي كذلك . وما أن

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ٢٣٢ ؛ ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٧٠ ، ١٩١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .

انتهى عمرو من الاستيلاء على طرابلس حتى رأى التوقف عن الزحف وطاب
أمداداً جديدة قبل استئنافه السير. ثم انسحب عندما أمره الخليفة عمر بن الخطاب
بالكف عن مواصلة الفتح ، حتى تستقر الأوضاع في مصر وغيرها من البلاد
الإسلامية^(١)

وبعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر خرجت طرابلس عن طاعة المسلمين
واحتلها البيزنطيون مرة أخرى ، أما برقة فقد ظلت على التبعية للمسلمين ، وبقى
بها عقبة بن نافع ، حيث قضى وقته متنقلاً بين قبائلها الضاربة حولها وبالقرب
من واحاتها . ولكن المسلمين لم يغضوا الطرف عن شمال أفريقيا ، حيث
رأى خليفة عمرو بن العاص على مصر ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
خطورة بقاء البيزنطيين في تلك البلاد بالقرب من التخوم الإسلامية .
فبعث يستأذن الخليفة عثمان بن عفان في غزو شمال أفريقيا للقضاء على جرجير
وعمليكته .

أذن الخليفة لعبد الله بن أبي سرح بالزحف على أرض المغرب . فخرج على
رأس قوات كبيرة ووصل إلى سهل تونس . وكان جرجير قد تعمد أن لا يصد
زحفه ، متجهاً إلى تحصين نفسه بالداخل . ووقف جرجير على أتم استعداد عند
مدينة « عقوبة » على أميال من سبيطلة . وهناك دارت معركة رهيبية تم للمسلمين
فيها الفوز وسقط فيها جرجير نفسه قتيلاً^(٢) .

وتابع عبد الله انتصاره بالزحف على سبيطلة نفسها ، وحاصرها حصاراً شديداً
حتى سقطت ، وقضى على من بها من البيزنطيين . وبسقوط هذه المدينة أصبحت
ولاية أفريقيا تحت رحمة المسلمين ، فواصلوا تقدمهم حتى بلغوا سفوح الجبال

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ؛ حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) البلاذري ، نفس المرجع ص ٢٢٤ ، ٢٣٥ ؛ ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢

مطاردين فلول البيزنطيين . إذ تفرقت قوة البيزنطيين بعد واقعة سبمطة ، ولجأ معظمهم إلى حصن قديم يدعى « الجم » (Thysderas) . فسارع عبد الله بن أبي سرح وحاصر هذا الحصن حتى استولى عليه وأطاح بقوة البيزنطيين تماما^(١) .

وأغارت بعض السرايا من جيش عبد الله بن أبي سرح على سائر أرجاء البلاد في الفترة التي كانت تسقط فيها حصونها المهمة على الساحل . ومن ثم اضطر رؤساء البربر إلى عقد اتفاق مع عبد الله بن أبي سرح يقضى بأن يدفعوا له قدرًا معينًا من المال سنويًا ، وأن يترك بلادهم^(٢) . وقد آثر عبد الله بن أبي سرح انتهاز فرصة عرض البربر الصلح وصمم على الرجوع إلى مصر لقلّة عدد الجند في جيشه ، وعدم استطاعتها مواصلة القتال . وشجعه على العودة أنه انتهى من تحقيق هدفه وهو القضاء على قوة جرجير الثائر البيزنطي ، الذي وقف وحيداً في الميدان دون أن يتلقى أمداداً من الدولة البيزنطية .

وبذلك لم تكن حملة عبد الله بن أبي سرح فتحاً منظماً ، إذ لم يتبع خطة مرسومة على نحو ما فعل عمرو بن العاص من قبل ، كما أن حملته لم تتمخض عن نتائج لها أهميتها في استقرار الفتح الإسلامي . إذ لم يستطع عبد الله بن أبي سرح الحصول على أمداد جديدة من الخليفة عثمان تمسكنه من استئناف الزحف على شمال أفريقيا . فقد أخذت بذور السخط على الخليفة عثمان تنمو رويداً لتفضيله أبناء البيت الأموي في إدارة الأمصار الإسلامية ، ثم شبت وترعرعت حتى غدت عاصفة هو جاء . فقتل الخليفة عثمان ، وشغل بنو أمية في الدفاع عن أنفسهم تحت لواء معاوية والى الشام .

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٢٩ .

وانقضت فترة بلغت ثلاثة عشر عاماً تقريباً بعد عودة عبد الله بن أبي سرح
من شمال أفريقيا، ووقفت فيها المجهودات الحربية الإسلامية للقضاء على البيزنطيين
في تلك البلاد . ولكن بعد أن استتب الأمر لمعاوية وأصبح خليفة للمسلمين
وجه عنايته لمحاربة البيزنطيين بشمال أفريقيا مثماً بذل من جهود للاستيلاء
على عاصمتهم القسطنطينية . وقد استفادت الجيوش الأموية الغازية لشمال
أفريقيا من انشغال البيزنطيين بالحروب دفاعاً عن عاصمتهم حتى تم لهم أخيراً
السيطرة على هذه الرقعة الهامة وضموها إلى حظيرة الإسلام .

معاوية بن أبي سفيان والمغرب

صحة معاوية بن صريح سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م

أخذت موجة الفتوحات الإسلامية تنطلق مرة أخرى بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان . واتسمت في هذه الحقبة بطابع النشاط والعمل المتواصل ، إذ عهد معاوية بمشاريعه الحربية إلى رجال مخلصين خبرهم وعجم عودهم أثناء مساعدتهم له في النضال بينه وبين علي بن أبي طالب . فعين الكثير من أولئك الرجال على قيادة الجيوش الأموية لاستئناف الجهاد ضد البيزنطيين . واختص الجبهة الإفريقية بال شخصية الأولى من رجاله الممتازين وهو عمرو بن العاص فاتح مصر الأول ، وواضع الحجر الأساسي لفتوح شمال إفريقيا .

وكان عمرو إذ ذاك قد تقدم به العمر ، وما زالت مشاكل الخلافة بالشرق لا تسمح بحشد جيوش كبيرة لفتح شمال أفريقيا ، فأثر أن يبعث سرايا حربية صغيرة إلى برقة وطرابلس تحت إمرة عقبه بن نافع الفهري ، دون الدخول في مشاريع واسعة النطاق^(١) . وكانت الامبراطورية البيزنطية إذ ذاك قد أخذت تولى عنايتها بشمال أفريقيا ، وتعمل على تدعيم نفوذها بها . وتجلي هذا التغيير في السياسة البيزنطية بعد واقعة ذات الصواري البحرية (٣٤ هـ / ٦٥٥ م) ، إذ بينما شغلت الدولة الإسلامية بفتنة مقتل عثمان وما تلاها من صراع بين علي ومعاوية ، تحول الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني إلى العناية بشئون شمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال إفريقيا إدراكه عجز دولته عن إخراج المسلمين من الشام ومصر بعد واقعة ذات الصواري . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم دولته بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن المسلمين غدوا

(١) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ١١١ .

قوة كبرى في البحر الأبيض المتوسط . وبدأ قنسطانز سياسته الجديدة بأن نقل عاصمته إلى جزيرة صقلية ، حيث يستطيع من هذا المقر الآمن البعيد عن متناول الإغارات الاسلامية إعادة تنظيم صفوفه . واستهدف في الخطة الجديدة ربط ما تبقى لدولته من أملاك بإيطاليا مع إفريقيا البيزنطية ، وتوجيههما إلى صد الزحف الاسلامي الذي أخذ يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته^(١) .

واتبع الامبراطور قنسطانز سياسة لم تؤد الغرض المنشود ، فما أن وصل صقلية . حتى عول على معاقبة البابا مارتن بروما لتشجيعه جرجير من قبل على الانفصال عن الدولة البيزنطية . فبعث جنداً قبضت على البابا ثم نفاه . وأعقب ذلك بإغضاب أهل شمال إفريقيا من البربر المسيحيين بسبب سياسته الدينية والمالية . إذ تابع سياسة أسلافه من قبل باضطهاد البربر بسبب عقيدتهم الدينية ، وغالاً في فرض الضرائب عليهم ليملاً خزائنه بالمال . وأخذ من عاصمته الجديدة سيراكوز بصقلية يسترد بعض الأقاليم التي دانت للمسلمين في شمال إفريقيا ، ويطبق عليها سياسته الجحيفة . ونجم عن ذلك أن عمّ السخط البلاد ودبرت مؤامرة للتخلص منه نجحت في ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م ، إذ اغتيل الامبراطور في عاصمته الجديدة ، وقبر معه مشروع تقوية الجبهة الغربية من امبراطوريته^(٢) .

ولم تقتصر نتائج سياسة قنسطانز على إثارة السخط فحسب ، وإنما حملت البربر كذلك على الاستنجد بالمسلمين وتخليصهم من النير البيزنطي . وجاء هذا النداء في الفترة التي عول فيها الخليفة معاوية على استئناف الجهاد ضد البيزنطيين بشمال إفريقيا . وكان عمرو بن العاص والى مصر قد توفي سنة ٥٤٣ / ٦٦٤ م وكان يشرف على شؤون إفريقيا إلى جانب ولاية مصر . فنصب الخليفة معاوية عقبة بن عامر

(1) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 282

(2) Bury, op cit, 302, 303

الجهني على مصر ، وخصص لشئون شمال أفريقيا معاوية بن حديج^(١) إذ نصبه على قيادة الجيوش التي أعدها لفتح تلك البلاد ، وتولى إمارة ما يفتحه منها . خرج معاوية بن حديج من مصر سنة ٤٥ هـ / ٦٦٦ م على رأس جيش كبير يضم عدداً عظيماً من الصحابة والتابعين . وسار على طول الساحل حتى وصل سهل تونس ، ونزل عند مكان يدعى قونية ، التي يرجح أنها الموضع الذي شيدت عليه مدينة القيروان فيما بعد . وكان البيزنطيون قد علموا بزحف معاوية بن حديج على شمال أفريقيا ، فأعدوا جيشاً كبيراً بقيادة رجل يدعى بقفور ، نزل في تلك البلاد ، ليصد زحف المسلمين . ولكن البيزنطيين أدركوا قوة المسلمين وعجلوا بالانسحاب بجزراً بعد المناوشات الأولى^(٢) .

وسار معاوية بعد ذلك شمالاً^(٣) قاصداً مدينة بنزرت . ويلاحظ أن معاوية فضل الاتجاه إلى هذه المدينة متجنباً الهجوم على قرطاجنة ، ويبدو أنه آثر الابتعاد عن المدينة الأخيرة لقوتها ومنعتها ، حيث كانت معقلاً قويا للبيزنطيين . ولذا لم يكن هجومه على بنزرت ليؤثر كثيراً في مصائر الفتح الإسلامي لهذه البلاد . على أن معاوية استطاع فتح هذه المدينة ، ولقى من بعض أهالي البلاد القريبة منها عظفاً ومساعدات^(٤) . وهذه الظاهرة من الأمور الهامة التي ستتمو وتترعرع فيما بعد إبان الحملات الإسلامية التالية الأخرى . إذ كان ترحيب الأهالي بالمسلمين مما ساعد الجيوش الإسلامية على القضاء على البيزنطيين رغم السكر والفر الذي تبادلته الطرفان على امتداد شمال أفريقيا .

ولم يعمل معاوية على تدعيم هذه الفتوحات الإسلامية قبل عودته إلى مصر ،

(١) كان معاوية بن حديج من كبار القواد في جيش عبد الله بن أبي سرح سنة ٦٥٥/٥٣٤ م ، ومن أنصار عثمان بن عفان ، وبذل جهوداً كبيرة في نصرته معاوية في النضال الذي تلا مقتل الخليفة عثمان . وقد كافأ الخليفة معاوية هذا القائد بأن عهد إليه فتح شمال أفريقيا .

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٤) البكري ، المغرب ، ص ٥٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١ .

إذا اكتفى بهذا القدر من الفتوحات وقفل راجعاً في أوائل سنة ٤٧ هـ. وخرجت المدن التي فتحتها عن طاعة المسلمين بعد عودته ، مما جعل حملته لا تتمخض عن نتائج لها أهميتها في فتح شمال إفريقيا . ولكن لم تلبث موجة الفتح الحقيقي أن بدأت بالحملة التي تلت أعمال معاوية بن حديج ، وكان بطل هذا الفتح رجلاً عرف شمال إفريقيا وطالت خبرته بها وبأحوالها .

محمد عقبة بن نافع الأولى :

تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهري حداً فاصلاً بين عهد الاغارات الإسلامية السريعة على شمال إفريقيا وعهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد . إذ قام بعدة أعمال في ذلك الميدان تعد الحجر الأول في بناء إفريقيا الإسلامية ، رغم أن حملته بدت كسابقتها من الحملات الإسلامية إغارة سريعة طويلة المدى ، بلغت شاطئ المحيط الأطلسي ثم عادت أدراجها إلى قواعدها الأولى . إذ تركت حملة عقبة ورأى آثاراً جعلت قلوب المسلمين تتعلق بشمال إفريقيا ، وتعتبره قطراً من دولة الإسلام يجب طرد البيزنطيين تماماً منه وضمه إلى أرضهم .

ويعزى نجاح عقبة في وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال إفريقيا إلى خبرته الواسعة بشئون هذا الإقليم . فقد عرف أحواله منذ ولاية عمرو بن العاص الأولى ، كما دان بظهوره على مسرح التاريخ الإسلامي في هذا الميدان إلى تلك الفترة المبكرة من ولاية عمرو على مصر . فكان عقبة قرشياً من فهر يتصل بعمرو بصلة قري من ناحية أمه^(١) . وعرف عمرو فيه المقدرة والشهامة ، ووثق به ثقة كبرى . فعهد إليه باستطلاع أحوال برقة ، ثم عينه عليها سنة ٤٣/٦٤٣ م أثناء زحفه على طرابلس . ولبث عقبة مقياً ببرقة حتى حملة عبد الله بن أبي سرح

(١) ابن الأثير، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ ؛ (art Okba) Encyc. of Islam

سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، ثم عاد إلى مصر حين رجع عبد الله بن أبي سرح سنة
٢٨ هـ / ٦٤٨ م . وقد تركت السنوات الست التي قضاها عقبة ببرقة أثراً كبيراً
في نفسه . إذ صرف هذه الفترة في التنقل بين قبائل البربر وواحاتهم ، مما جعل
همته تتعلق بالفتح والغزو ، وغدا شخصية لا تعرف شيئاً غير الجهاد في سبيل الله .

وأدرك عقبة من تجار به ببرقة أن فتح المغرب لا يتم إلا إذا أنشأ المسلمون
لهم في قلب شمال إفريقيا مركزاً تعسكر فيه حامياتهم ، ويتخذوه قاعدة لمتابعة
الغزو . وعمد إلى تحقيق هذا الهدف عندما كلفه معاوية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م
بالزحف على شمال إفريقيا . وما كاد عقبة يتلقى الأمداد والجيوش حتى اتجه
إلى أرض المغرب ، واتبع الطريق الداخلي الذي لا توجد به إلا مقاومة ضئيلة
من البربر وسكان الواحات ، ووصل إلى موضع قونية الذي عسكر فيه معاوية
بن حديج من قبل .^(١)

وولى عقبة عنايته حالما وصل قونية إلى تأسيس مقر للمسلمين لتدعيم فتوحاتهم .
وجاء اهتمامه وليد تجار به ومشاهداته في أرض المغرب ، إذ قال لجنده حين شرح
لهم الأسباب التي تدعوه إلى تأسيس معسكر لهم مستقر ، أن أهالي إفريقيا
لا يعتنقون الإسلام إلا إذا دخلها قائد مسلم « فإذا خرج منها رجع من كان
أسلم بها ، وارتد إلى الكفر ، وأرى لكم — يا معشر المسلمين — أن تتخذوا
بها مدينة تجعل فيها عسكرياً ، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر . »^(٢)

وأخذ عقبة يبحث عن مكان يشيد فيه معسكره ، ولم يعجبه موضع قونية
نفسه الذي سبق أن عسكر فيه معاوية بن حديج . فأخذ يتجول في منطقة قونية
بجناً عن مكان يليق بما في نفسه من أهداف . وكانت هذه المنطقة عبارة عن

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٦ ؛

حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٦ .

جهات فسيحة ، بها كثير من الزرع ، كما كانت غاصة بالحصون البيزنطية . وفي بقعه بالقرب من قونية وجد حصناً قديماً تدل بقاياه على آثار عز سالف ، ولكن أدركه الخراب أوائل القرن السابع وهجره أهله ، وسكنته بعض الذئاب والضباع وما إلى غير ذلك من أشباه هذه الحيوانات . ووقع اختيار عقبة وصحبه على هذا الحصن وخطوا رحالهم بالقرب منه ، وأخذوا يستعدون لتخطيط مدينتهم إلى جواره . ففزع الضواري من حركة الجيش وولت الأدبار هاربة (١) .

ويعزى إعجاب عقبة بموضع هذا الحصن إلى أنه بعيد عن الساحل مما يجعله بئامن عن إغارات البيزنطيين المفاجئة من البحر ، كما أنه يقع بالقرب من أرض ترعى فيها الماشية في مأمن من هجمات البربر النصاري من أحلاف البيزنطيين . وأثبتت الأحداث صدق فراسة عقبة في انتقاء الموضع الذي شيد عليه معسكره إذ كان موقعه الحربى ممتازاً ، حيث يستطيع الحاكم المقيم به أن يدير دفعة عملياته في سهولة ويسر . فهو يستطيع أن يرى العدو من بعيد ويأخذ حذره منه ، كما يتمكن من مطاردة البربر وتعقبهم في أعالي الهضبة لأن الموقع يسيطر ويتحكم في سائر الوديان الهامة التي تخترق الهضبة .

وبدأ عقبة بتخطيط المدينة التي عرفت باسم القيروان (٢) ، فشيد دار الإمارة والمسجد أولاً ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم حولها (٣) . وقد غدت المدينة علي عهده أشبه بمخزن للسلاح ، ولكن أخذت في هذه الفترة المبكرة تلعب دوراً هاماً في أحداث الفتح الإسلامى ببلاد المغرب ، إذ كان تأسيس القيروان الخطوة الأولى العملية في القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال إفريقيا ، حيث

(١) المالكي، نفس المرجع ، ص ٦ ، ٧؛ Encyc. of Islam (art Kairawan)

(٢) القيروان لفظ فارسي معرب ، ومعناه قافلة أو مراحيق القوافل ، وكان العرب يستخدمون هذه الكلمة زمن الجاهلية (انظر حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ١٥٣) .

(٣) المالكي ، نفس المرجع ، ص ٧ ، ٨ .

دعمت أقدام المسلمين وسط ولاية إفريقية البيزنطية ، التي تحمعت بها معظم حصون البيزنطيين ومعاقلهم .

ولم يبد البيزنطيون أى نشاط لعرقلة عقبة عن الاستمرار في بناء هذه المدينة ، إذ قضى أربع سنوات في تخطيطها دون أن يحرك البيزنطيون في قرطاجنة التي تبعد عن القيروان مسيرة ثلاثة أيام ساكنة ، كما لم يدركوا خطورة ظهور هذا المعقل الإسلامى باقرب منهم . ولكن يعزى السبب في هذا التقاعد إلى أن الدولة البيزنطية عجزت عن بسط يد المساعدة لأبنائها بشمال إفريقيا ، لانشغالها بالدفاع عن عاصمتها . فقد عاصرت أعمال عقبة في شمال إفريقيا وتأسيسه القيروان الحصار الثانى الذى ضربه معاوية حول القسطنطينية ، وهو المعروف بحرب السنوات السبع . (١)

ولكن عقبة لم ينعم بثمار جهوده ، إذ تطلع والى مصر إذ ذاك مسلمة بن مخلد (٤٧ هـ / ٦٦٨ م) إلى ضم ولاية إفريقية الى دائرة نفوذه بمصر . ووافق الخليفة معاوية على طلب مسلمة (٢) ، حيث كان من كبار أنصار معاوية أثناء فتنة عثمان بن عفان . ولما ولى مسلمة شئون شمال إفريقيا عزل عقبة ، وبعث قائداً جديداً يدعى دينار أبو المهاجر ليحل مكان عقبة (٣) . وقد عاد الأخير الى دمشق مغيظاً حيث كان قد أخذ يعد العدة لاستئناف الفتح بعد فراغه من بناء القيروان .

(١) Deihl, L'Afrique, 573

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ١٩٧ ؛ السلاوى ، الاستقصاء ، ص ٣٧ .

التحالف البيزنطي البربري

صحة دينار أبو المهاجر (٥٥ - ٦٢ هـ / ٦٧٤ - ٦٨١ م)

عاصرت بداية حملة دينار أبي المهاجر^(١) انقلاباً في السياسة البيزنطية تجاه البربر، كان لها أبعاد الآثار في وضع الصعاب أمام فتح المسلمين لبلاد المغرب . إذ استطاعت الدولة البيزنطية في الفترة التي عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها ، حيث انتهى الحصار الأموي الثاني لعاصمتها . وكان الامبراطور البيزنطي إذ ذاك هو قنسطنطين الرابع ، الذي أخذ يدرس الأسباب التي أدت إلى ضعف دولته ويعمل على إزالتها . وتبين قنسطنطين أن علة الفساد في دولته وضعفها هو العداء المذهبي والسياسة الدينية الاضطهادية التي اتبعتها السلطات البيزنطية إزاء أهالي ولاياتها المخالفين لها في العقيدة الدينية . ورأى قنسطنطين نتائج هذا الاضطهاد في إفريقية البيزنطية ، إذ كان البربر المسيحيون يضمرون الكراهية والبغضاء للدولة ويتمنون زوال سيادتها عنهم .

بادر قنسطنطين باتخاذ خطوة هامة ليتقرب إلى أولئك البربر ولضمهم إلى جانب قواته في نضالها ضد المسلمين . فجمع مجلساً دينياً سنة ٦٨٠ م نجح في وضع حد للخصومات المذهبية^(٢) التي فرقت بين الدولة البيزنطية وبين ما تبقى لها من رعايا بشمال إفريقيا وإيطاليا . وجنى الامبراطور قنسطنطين ثمار هذا المجلس الديني ، إذ زال ما عند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية نحو الدولة البيزنطية وبدأوا يعملون على شد أزرها ومناصرتها في حربها مع المسلمين .

(١) اغفل الكتاب سيرة دينار أبو المهاجر لأن حملته وقعت بين حملتين كبيرتين قام بهما عقبة بن نافع . ولكن يرجح أنه كان من أهل مصر ، أعتقه مسلمه بن مخلد والى مصر ، وقربه إليه لذكائه ومهارته .

(٢) Diehl, op cit, 576.

ووجد بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبيزنطيين بشمال إفريقيا ،
وظهر تعاونهم جليا خلال الحملات الإسلامية التي تلت عزل عقبة ، واصطدم
بتحالفهم الأول دينار أبو المهاجر . ولكن يلاحظ أن هذا التحالف لم يكن
واسع النطاق ، إذ ظل البربر البدو بمعزل عنه ، ولم يدخل تحت لواءه إلا البربر
المسيحيون ، ولا سيما أولئك الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية . على أن القائد المسلم
دينار أبو المهاجر استطاع أن يواجه هذا التحالف البيزنطي البربري بحزم وكياسة
وتمكن أن يقلل من الفوائد التي عمدت الدولة البيزنطية إلى الحصول عليها .

وعندما وصل دينار أبو المهاجر ضواحي القيروان أحس تبديلا في نشاط البربر ،
إذ كانوا من قبل لا يبدون مقاومة في مناهضة الحملات الإسلامية . وأدرك أن
المغرب الأوسط ولا سيما المنطقة الواقعة بين ناهرت ووهران والتي تتوسطها تلمسان
هي مقر نشاط البربر الجديد . فكانت هذه المنطقة أسرع الجهات استجابة لسياسة
البيزنطيين ، لأنها موطن البربر الذين تأثروا منذ زمن قديم بالحضارة البيزنطية .
وأقام في مرتفعات تلمسان والمنطقة الجاورة لها منذ أواخر العصر البيزنطي أقوى
قبائل البربر المسيحيين وهي قبيلة أربة (١) .

وعرفت قبيلة أربة نوعا من الزعامات القوية ، كإسناد أفرادها النظام والطاعة
للرؤساء . وكان يتولى أمرهم في الفترة التي وصل فيها دينار أبو المهاجر إلى القيروان
شخص يدعى كسيلة وأخذ هذا الزعيم بتحريض من البيزنطيين يجمع القبائل البربرية
ويحشد لها لمواجهة زحف المسلمين الذي اقترب من موطنهم الأصلي . وهكذا
أخذ أصبع البيزنطيين يندس بين البربر المسيحيين ويحركهم ضد المسلمين بعد
أن كانوا لا يفكرون في مقاومتهم . وبادر القائد المسلم دينار أبو المهاجر إلى
مهاجمة أولئك البربر في مقرهم ليقضى على تجمعاتهم ، ويحد من شوكتهم رغم بعد
الشقة بينه وبينهم (٢) .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٦٦ .

وصل دينار أبو المهاجر وجيشه إلى المنطقة المحيطة بتامسان ، مقر حركة المقاومة البربرية ، واصطدم بالبربر هناك . ولكن القائد المسلم لم يقس في حربه مع كسيلة حيث استخدم السياسة في كسب هذا الزعيم البربري إلى جانبه . ولذا عندما هزم كسيلة وأسر عامله دينار أبو المهاجر معاملة حسنة ، حتى قام نوع من الودعة والصداقة بينهما . فأسلم كسيلة ، وانضم إلى جيش المسلمين يعاونهم في حرب البيزنطيين^(١) .

ويعتبر دينار أبو المهاجر واضع الحجر الأساسي في سياسة فصح البربر عن البيزنطيين وتحطيم التحالف الذي قام بينهما . وآثر في كل أعماله إظهار عطفه واحترامه للسكان الأصليين ، وبين بجلاء أن هدف المسلمين تخليص بلاد البربر من نير البيزنطيين . ويبدو أن البيزنطيين في المدن الساحلية اكتفوا بتحريض البربر على المسلمين دون التصدي لهم . واستفاد دينار أبو المهاجر من ذلك ، إذ بعد أن انتهى من القضاء على حركة البربر سار قاصداً قرطاجنة أقوى المدن البيزنطية بشمال إفريقيا .

حاصر المسلمون مدينة قرطاجنة سنة ٥٩ هـ / ٦٧٨ م ، وقتلوا أهلها قتلا شديداً دون أن يستطيعوا الاستيلاء عليها . على أن دينار أبو المهاجر رفض أن يرفع الحصار عنها إلا بعد أن تنازل البيزنطيون له عن جزيرة شريك . وكانت هذه السياسة بارعة من القائد المسلم ، فلم يقبل أن يترك قرطاجنة وحصارها مقابل مبلغ من المال ، وإنما طلب تنازلهم عن جزء من بلادهم . وضمن بذلك وضع شوكة تهدد عاصمة البيزنطيين بشمال إفريقيا . إذ أرسل قائدة حنش الصفاقي ومعه شطر من الجيش الإسلامي ليعسكر بهذه الجزيرة ، وأوجد بذلك حارساً يهدد قرطاجنة نفسها ويرقب أعمال البيزنطيين بها ، ويمنعهم من التقدم نحو الجنوب إذا حدثتهم أنفسهم بالهجوم على القيروان^(٢) .

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٦ . Mercier, L'Afrique, 204.

(٢) المالكي نفس المرجع ، ص ٢٠ ؛ حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

عاد دينار أبو المهاجر إلى مقره الذي اتخذه بالقرب من القيروان بعد أن أمضى نحواً من عامين في جهاد البيزنطيين ، ونجح في تحقيق أهدافه بفصم عرى التحالف بين البربر والبيزنطيين . واستطاع في حملته أن يكسب إسلام زعيم كبير من رجال البربر وهو كسيلة . وطبعى أنه نهج على منوال كسيلة كثير من البربر ودانوا بالإسلام . ولكن تقلب السياسة في الدولة الإسلامية لم يمكن ديناراً أبو المهاجر من تحقيق أهدافه إلى نهايتها ، إذ عزل عن ولاية إفريقية وخلفه عقبة بن نافع مرة أخرى .

صحة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ — ٥٦٣ / ٦٨١ — ٦٨٢ م)

كان عقبة يعمل جاهداً في دمشق منذ عزله عن ولاية إفريقية على العودة إلى هذا الميدان الذي قضى به سنوات كثيرة من زهرة عمره وتعلق قلبه به . وقد حانت الفرصة له حين توفي مسلمة بن مخلد على عهد الخليفة يزيد بن معاوية . إذ استجاب يزيد لرغبة عقبة وبعثه على رأس أمداد كبيرة إلى الجبهة الإفريقية في سنة ٥٦٢ / ٦٨١ م . ووصل عقبة إلى حضرته القيروان وجدد عمارتها ، حيث أصابها بعض الخراب لإهمال دينار أبو المهاجر لها وقد دخل هذا القائد في خدمة عقبة^(١) ، وسار معه في فتوحاته بشمال إفريقية . ولكن عقبة لم يحاول الاستفادة من خبرة هذا القائد ولا سيما من حيث استرضاء البربر . إذ غاب عن عقبة أن أحوال إفريقية قد تبدلت تبديلاً جوهرياً منذ حمله الأولى ، ولم يدرك كنه التحالف الذي نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد سياسة قسطنطين الرابع الدينية . وقد سار عقبة على سياسته القديمة في محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستميلهم إليه ، وتجلت هذه السياسة القديمة في علاقته مع كسيلة زعيم البربر ،

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧٧ ؛

ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

الذي اعتنق الإسلام على عهد دينار أبي المهاجر . فقد أخذ عقبة هذا الرجل معه في حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفه . ومن ثم تغير قلب كسيلة على عقبة ، ولعب دوراً كبيراً في القضاء على مجهوداته ، حين جاءت الفرصة المناسبة أثناء الحملة .

فقد زحف عقبة من القيروان على شمال إفريقيا عبر الطريق الداخلي البعيد عن الساحل^(١) . ولكن التحالف البربري البيزنطي تصدى له عند المدن الهامة وأخذ يطمر آبار المياه في طريقه . وزاد في مقاومة البربر مراسلة كسيلة لهم سرّاً ، وحثهم على تنظيم صفوفهم . على أن عقبة تغلب على ما واجهه من صعاب حتى بلغ طنجة ، حيث قدم له حاكمها فروض الطاعة .

عاد عقبة بعد ذلك قاصداً القيروان^(٢) التي خلف عليها من قبل زهير بن قيس البلوي . واختار لعودته نفس الطريق الداخلي الذي سلكه من قبل متجنباً طريق الساحل . وكان طريق العودة مليئاً بالأخطار والخواف ، حيث استطاع كسيلة أن يفر من جيش عقبة ، وأعد البربر للغدر به . وأحس عقبة بما كان يدبر له ، فعجل بالسير حتى وصل مدينة طينة . وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأساً إلى القيروان ، إذ أحس فساد المياه في الأبار التي مر عليها ، وبقي مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته .

ورأى البربر والبيزنطيون فرصتهم قد سنحت للغدر بعقبة بعد أن سبقه معظم جيشه ، فانسحبوا أمامه متجهين إلى الجنوب الغربي في اتجاه تهودة ، وأغروه على أن يقتفي أثرهم ، متظاهرين بقلة عددهم . وعند حصن قديم بيزنطي بالقرب من تهودة تحصن كسيلة ، حيث كان البيزنطيون قد استعدوا هناك كذلك^(٣) .

(١) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ص ٣٨ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ، ١٤٦ .

ونادر عقبة بالهجوم على الحصن ليقتضى على البيزنطيين وأحلافهم ، ولكن ما أن اقترب منه حتى أحاط به البربر من كل مكان وضيقوا الخناق على القوات الإسلامية . على أن عقبة قاوم في شجاعة مما جعل المعركة حامية الوطيس ، ولكن لم يلبث أن استشهد في ساحة القتال ومعه كثير من كبار رجال جيشه ومن بينهم دينار أبي المهاجر ، ووقع كثير من باقي المسلمين أسرى^(١) . وقد نجم عن هذه المعركة نتائج كان لها أبعاد الأثر على مجريات الفتوح الإسلامية فيما بعد . إذ افتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر نفرا من الأسرى المسلمين ، مما يدل على أن الإسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر وآمنوا به وكان معظم أولئك البربر الذين مالوا إلى الإسلام من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة البيزنطية^(٢) .

ولما بلغ زهيراً نبأ مأساة تهودة ، أخذ يستعد للأخذ بثأر عقبة ، ولكن الجهد كان قد نال من الجند الإسلامي ، وآثروا العودة إلى مصر . فلم يجد زهير بدأ من الانسحاب بالجيش الإسلامي إلى برقة سنة ٦٥ هـ ، وظل هو مقياً بها تتوق نفسه للعودة إلى الميدان واسترداد شمال إفريقيا^(٣) . إذ أحس زهير كما أحس غيره من المسلمين أنهم ارتدوا عن بلد من بلادهم ، تركوا بها قرواناً ومساجداً ، وجماعات تعتنق الدين الإسلامي . وهكذا أنبت دم عقبة بذور دوحه المسلمين بشمال إفريقيا ، وقام زهير بن قيس البلوى بالإشراف على رعاية هذه الدوحة في عهدها الأول^(٤)

محمد زهير بن قيس البلوى :

بعد معركة « تهودة » وارتداد المسلمين إلى برقة دخل كسميلة القيروان

(١) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ١٩٨ ؛ Fournel, op cit, 16

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٧ ؛

حسين مؤنس نفس المرجع ، ص ٢٠٠

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ، ص ١٧٨ ؛ Mercier, op cit, 211

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

واحتلها ، وبدا كأنما عادت الأحوال بشمال إفريقيا إلى سابق عهدها قبل الفتح الإسلامي . إذ قام في سهل تونس ما يشبه دولة بربرية مسيحية . ولكن تلك الدولة الجديدة افتقرت إلى الوحدة والتماسك . فلم يكن كسيلة وأتباعه سادة شمال إفريقيا بعد ارتداد المسلمين ، كما أنه لم يكن الحاكم المطلق على سائر القبائل التي أحاطت بالقيروان ، ولا سيما قبائل البربر البدوية ^(١) .

وتعزى الظاهرة السالفة إلى أن الحملات الإسلامية المتكررة على شمال إفريقيا خلفت وراءها بدو من البربر يعتقدون الإسلام ، وأظهروا عطفهم على المسلمين ، كما قدموا لهم خدمات جليلة أثناء الفتح . ولم يخذ أولئك البربر إلى السكون والدعة بعد ارتداد المسلمين . وإنما أعلنوا عصيانهم لكسيلة ، وأبوا إطاعة أوامره . إذ كان البربر البدو ينظرون إلى البربر المسيحيين على أنهم حلفاء البيزنطيين ، وأداتهم في قضاء مآربهم بشمال إفريقيا . ولذا ظل البربر المسلمون على ولائهم للدولة الإسلامية ، وانتظروا عودة الجيوش الإسلامية لشدها في طرد البيزنطيين وتأديب البربر الموالين لهم .

وكان كسيلة يدرك قوة البربر المسلمين ، وما هم عليه من منعة وعزة ، وأن البلاد التي يسيطر عليها ليست خالصة الولاء له . ومن ثم آثر الاحتفاظ بحسن الجوار مع البربر ولا سيما المقيمين منهم في القيروان ، فلم يتعرض بأي أذى المسلمين في القيروان رغم أن وجودهم كان يحمل في طياته أخطاراً كبيرة على سلامته وسلامة دولته . وظل كسيلة متجنباً الأسباب التي قد تثير عليه غضب البربر المسلمين ، حيث كان لهم أنصار عديدون متفرقون في أنحاء البلاد ^(٢) .

ولذا أخذ كسيلة ينظم دولته معتمداً على مساعدات البيزنطيين . وقد رأت الدولة البيزنطية أن انسحاب المسلمين بعد واقعة « تهودة » خير فرصة لاقتسام

(١) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

مناطق النفوذ بشمال إفريقيا مع حليفهم كسيلة . وكانت الدولة البيزنطية إذ ذاك طليقة اليد في تنفيذ أغراضها في هذه البقعة من إفريقيا ، إذ كان المسلمون في شغل ببعض المشاكل الداخلة التي واجهت بداية عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان . فاستطاعت القوات البيزنطية بالمدن الساحلية بشمال إفريقيا أن تستعيد ما كان للدولة من أملاك في هذه البلاد ، ودعمت أقدامها فيها لمقاومة أي زحف إسلامي في المستقبل^(١) .

وكان زهير بن قيس البلوى يعمل جاهداً منذ عاد إلى برقة سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م على استنهاض الخليفة عبد الملك بن مروان لإعداد جيوش يسترد بها شمال إفريقيا . واستطاع الخليفة رغم انشغاله بثورة عبد الله بن الزبير أن يعد في سنة ٦٦٩ هـ / ٦٨٨ م جيشاً عظيماً أمر عايمه زهير بن قيس البلوى وبعثة لاسترداد شمال إفريقيا . ويعتبر إقدام الخليفة عبد الملك على اتخاذ هذه الخطوة ، وهو لا يزال في غمرة مشاكله الداخلية ، دليلاً على أن الخلافة نظرت إلى شمال إفريقيا على أنه قطر إسلامي تهتم به الدولة الإسلامية اهتمامها بأمور العراق والحجاز^(٢) .

وكان زهير يعرف الميدان الإفريقي منذ سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م حيث صحب عقبة بن نافع في جهاده وفتوحه بتلك البلاد . ثم إن عقبة وولاه على القيروان حين قام بزحفه الواسع المدى ، والذي استشهد بعد عودته منه . ولذا استطاع زهير أن يوفق في زحفه ، إذ سار من مصر على رأس جيشه العظيم الذي ضم عدداً كبيراً من عليّة القوم في الشام ومصر . وما أن عبر زهير إقليم برقة حتى انضم إليه كثير من البربر الجنوبيين أو البدو الذين أشربت نفوسهم حب الإسلام . ومن ثم انحصرت المقاومة في قبائل البربر الشماليين الذين كانوا متحالفين مع البيزنطيين^(٣) .

(١) Dieh, op cit, 519.

(٢) حسين مونس ، نفس المرجع ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) ابن عذاري ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

وما أن ترامت أنباء الزحف الإسلامي الجديد على شمال إفريقيا حتى استولى
الفرزح والخوف على كسيلة ، وكان مقيماً إذ ذاك بالقيروان . ورأى أن المقام بهذه
المدينة لا جدوى منه ، إذ بها جماعات من المسلمين ، ويخشى أن تثور عليه
في الوقت الذي يحاصر فيه زهير المدينة . فوقع اختياره على قرية تدعى ممس^(١) ،
لقربها من الهضبة وجبال أوراس ، ولاتصالها بقبائل البربر المسيحيين فيهما ،
وبذلك يستطيع كسيلة أن يحصل على الأمداد والمؤن اللازمة لنضال المسلمين ،
وإذا انهزم فرّ إلى الجبال واعتصم بها بعيداً عن متناول المهاجمين^(٢) .

على أن زهيراً رسم خطة حربية كفلت له الفوز ، إذ رأى أن يبادر بالهجوم
على البربر الخاضعين لكسيلة أولاً ، ثم ينازل البيزنطيين بعد ذلك . وكان زهير
يقصد من خطته تجنب النضال في جبهتين وتشتيت قواته تبعاً لذلك . وساعده
على تنفيذ خطته بنجاح أن البيزنطيين آثروا أن يتركوا المسلمين يحاربون البربر
مستهدفين أن يضعف النضال قوى الفريقين ، وإذا ما تغلب أحدهما على الآخر
يهاجمون المنتصر ، ويستردون البلاد منه قبل أن يستعيد قوته . على أن هذه
الأنانية البيزنطية تمخضت عن نتائج خطيرة ، جنى البيزنطيون ثمارها فيما بعد ،
إذ فقدوا إلى الأبد قوة البربر مما عجل بالقضاء عليهم بعد ذلك .

وزحف المسلمون على ممس بحماس رائع لإعلاء كلمة الإسلام والأخذ بثأر عقبة .
ودارت رحى معركة عنيفة أبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً ، حتى كتب لهم النصر
وقتل كسيلة على أرض المعركة ، دون أن يتمكن من الهرب كما رتب لنفسه من
قبل . إذ أحسن زهير سد المنافذ والمعابر المؤدية إلى الهضبة مما جعل الفرار غير
مستطاع ، وقضى على مقاومة البربر تماماً .

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وقفل زهير عائداً إلى القيروان^(١) بعد أن حقق هدفاً عظيماً في الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا . إذ كان انتصار زهير حداً فاصلاً بين نشاط البربر السابق لواقعة مسم والنشاط الذي تلاها . فقد ترك البيزنطيون حلفاءهم البربر يتلقون وخدمهم أشد الضربات قوة ، مما جعل التحالف القائم بينهما ينتهي بخروج البربر من الميدان . وغدا الموقف في شمال أفريقيا قاصراً على المسلمين والبيزنطيين وخدمهم . وجاءت الأحداث بعد ذلك تنبه المسلمين إلى تعجيل ضرباتهم للبيزنطيين ، حيث رأوا فيهم الغدر وانتهاز الفرص للاطاحة بالجهود الإسلامية في شمال أفريقيا . على أن البيزنطيين استهدفوا من وقوفهم موقف الحياد في الصراع الذي نشب بين زهير والبربر المسيحيين تنفيذ أمر بيتوه لإفساد أعمال المسلمين . إذ تركوا المسلمين يطيلون خطوط تموينهم لقطع خط الرجعة عليهم في سهولة ويسر . ولم يتنبه زهير لمثل هذه الأعمال المفاجئة التي قد يقوم بها البيزنطيون . وقد جاء الخطر من ناحية القوة البحرية البيزنطية ، إذ اتصل البيزنطيون في مدن الساحل الأفريقي بالسلطات المركزية في القسطنطينية وزودوها بمعلومات عن سير المسلمين . واتفق الفريقيان على حضور أسطول بيزنطي يحط رحاله عند برقة ، ويفاجيء الحامية الإسلامية بها ويأسرها ، ثم يعسكر البيزنطيون بالقرب من الساحل للهجوم على جيش زهير فجأة وهو ^{طريق} يعودته إلى مصر .

وكان زهير قد فرغ إذ ذاك من مهمة إخضاع البربر المواليين للبيزنطيين ، ثم أخذ يعد العدة للرجوع إلى برقة . وكانت غالبية الجيوش الإسلامية حتى ذلك الوقت تعود إلى مصر بعد أن تنتهي من مهمتها في شمال أفريقيا . ووقع زهير في خطأ أشبه بما تردى فيه عقبه . إذ سمح لجنده بأن يعجلوا بالعودة إلى مصر على حين سار هو في المؤخرة . وعندما اقترب من برقة علم أن البيزنطيين قد نزلوا بساحلها ، ولم يتوقع زهير أن يجد البيزنطيين مستعدين في قوة عظيمة ، إذ اعتقد أن سفنا

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٤٧ .

ضئيلة من أسطولهم قد رست بشواطئ برقة ، ولا خير من مهاجمتها والاستيلاء عليها^(١) .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد البيزنطيين في سفن كبيرة كثيرة العدد ، ومعهم عدد كبير من أسرى المسلمين . ولم يكذب هؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا مستنجدين به . فأخذت الحمية زهير ومن معه وأسرعوا بمهاجمة السفن البيزنطية لتخليص المسلمين الأسرى . ولكن البيزنطيين كانوا قد أعدوا معسكرا على الساحل بعيداً عن أعين المسلمين ، إذ ما كاد زهير يطاء أرض الساحل حتى فاجأه جنده هذا المعسكر البيزنطي ، ودارت رحى معركة عنيفة أحاط فيها البيزنطيون بزهير وأتباعه . ولكن زهيراً أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما جعل استشهاد^(٢) في ساحة القتال لا يقل روعة عن استشهاد عقبة في واقعة « تهودة » .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى على مجرى الفتوحات الإسلامية بشمال أفريقيا ، إذ رأى المسلمون أن عدوهم الحقيقي هو الدولة البيزنطية ورعاياها بالمدن الساحلية ، وأن الجهود يجب أن تركز للقضاء عليهم . وجاء هذا التطور في السياسة الإسلامية بعد أن قضى زهير على البربر أحلاف البيزنطيين ، وغدا الميدان قاصراً على البيزنطيين والمسلمين وجهها لوجه .

(١) ابن الأثير، نفس المرجع، ج ٤ ، ص ١٧٨ ؛

ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١١٨٧ .

(٢) Fournel, op cit 28, 29.

حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

زوال النفوذ البيزنطي وتمام الفتح الإسلامي

محمد حسان بن النعمان :

أعقب مقتل زهير تطوراً عظيماً في سياسة كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية بشئون شمال إفريقيا. فقد رأى أولو الأمر في الدولة الإسلامية أن البيزنطيين يهدفون إلى الإضرار بسمعة جيوشهم وإظهار عدم قدرتها على إتمام فتح شمال إفريقيا، وأن الواجب يقضي ألا تغض الدولة الإسلامية الطرف عن قائدين عظيمين من قادتها يذهبان ضخمة الغدر البيزنطي. وكان الخليفة إذ ذاك عبد الملك بن مروان، الذي أثبت أنه جدير برد اعتبار الدولة الإسلامية وإضعاف هيبة البيزنطيين وطردهم نهائياً.

وأظهرت الامبراطورية البيزنطية إهتمامها كذلك بأحوال شمال إفريقيا بعد هزيمة زهير^(١). فبدأت بتقوية مدنها الساحلية وتزويد رعاياها بها بالعتاد والذخيرة. وأدى هذا النشاط البيزنطي الجديد إلى اعتماد القوات البيزنطية في شمال إفريقيا على جهودها الخاصة دون الاعتماد الكلية على حلفائهم من البربر. وكان التعاون بين البيزنطيين والبربر قد أصبح قاصراً على بعض قبائل متفرقة منذ قتل كسيلة. ولذا استطاع خليفة زهير أن يستفيد من تغير الموقف بشمال إفريقيا، ويقضي على البقية الباقية من مظاهر التحالف البيزنطي البربري^(٢).

واضطلع بالعبء الجديد من النضال ضد البيزنطيين حسان بن النعمان، أحد كبار قادة الدولة الأموية. وفي سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م. أعد له الخليفة جيشاً كبيراً رغم ما كان يحيط به من صعاب، حيث رأى ضرورة تخليص شمال

(١) Dieh . op cit, 581.

(٢) حسين مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٣٤.

إفريقيقا من نير البيزنطيين . وكان اختيار حسان يقوم على ما تمتع به من شهرة
حربية عالية ، فضلا عن مكانته في البيت الأموي . فهو لم يسبق له الذهاب إلى
الميدان الإفريقي ، ولكن رشحته كفاءته ودرايته بالخطط الحربية والسياسية
لإدارة حركات المسلمين في شمال إفريقيقا^(١) ، ووضع حد لهذا الفتح الذي استغرق
إلى ذلك الوقت خمسين سنة ونيف ، دون أن يتحقق هدف نهائي فيه . وسار
حسان على رأس جيشه إلى مصر حيث قضى بها بعض الوقت ليم فيها
استعداداته الحربية^(٢) .

سار حسان من مصر مسرعا إلى شمال إفريقيقا ، واجتاز برقة وطرابلس
دون أن يلقى مقاومة . وقد انضم إليه في طرابلس كثير من البربر ، اتخذهم أدلاء
في زحفه على سائر أنحاء البلاد . وكذلك دخل في جيشه كثير من البربر البدو
من أهالي الجنوب الذين سبق لهم اعتناق الإسلام^(٣) .

وعندما دخل حسان القيروان أدرك التغيير السياسي الذي طرأ على البلاد ،
وأن البيزنطيين غدوا أصحاب الكلمة العليا في المدن الساحلية ، على حين ضعفت
شوكة حلفائهم من البربر . وكان حسان يسير وفق خطة مرسومة أعداها من
قبل ، وجاءت مطابقة للموقف الذي واجهه في شمال إفريقيقا . إذ حضر إلى
القيروان وفي خطته مهاجمة البيزنطيين في قرطاجنة ، أقوى معاقلهم^(٤) .

وكان يدرك أن نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، فبادر بالهجوم
على ضواحي المدينة وأوقع بالبيزنطيين هزيمة فادحة . ولذا تملك الخوف والفرع
الحامية البيزنطية في المدينة ، وأسرعت بالانسحاب منها ، والالتجاء إلى السفن

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ١٨ ؛ السلاوي ، كتاب الاستقصا ، ص ٤٢ .

(٢) Fournel, op cit, 38

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٤) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

وانهرب إلى صقلية^(١). وهكذا سقطت المدينة دون عناء كبير، ووزل حسان أول معقل البيزنطى هام في شمال إفريقيا. على أن البيزنطيين لم يهدفوا بإخلاء قرطاجنة تركها إلى الأبد في أيدي المسلمين، وإنما يبتوا في أنفسهم الهجوم عليها مرة أخرى بعد خروج حسان منها.

وساعد البيزنطيين على تنفيذ مآربهم ما كان لهم من حصون ومعقل منشرة في المنطقة المحيطة بقرطاجنة. ولذا ما أن غادر حسان قرطاجنة عائداً إلى القيروان حتى علم أن البيزنطيين الذين هجروها أخذوا يفدون عليها ثانية من النواحي المحيطة بالمدينة، وعجلوا بالاعتصام بها، وإصلاح أسوارها وحصونها. وأدرك حسان خطورة هذا العمل وما ينطوى عليه من عناد البيزنطيين وخداهم. فعاد حسان سريعاً إلى قرطاجنة وحاصرها حصاراً شديداً حتى اقتحمها، وأنزل بالبيزنطيين هزيمة فادحة. ثم هدم كثيراً من أسوار المدينة وحصونها ليقضى على أى أمل للبيزنطيين في الاعتصام بها مرة أخرى^(٢).

وقد نهبت أعمال البيزنطيين حسان بن النعمان إلى الخطة التي يجب أن يسير عليها بعد استيلائه على قرطاجنة. فعرف أن للبيزنطيين على الساحل معقل وحصون أخرى يستطيعون الاحتماء بها والالتجاء إليها بعد أن فقدوا الأمل في استعادته قرطاجنة، وأن قوتهم في هذه المنطقة الساحلية ما زالت خطراً يهدد بقاء المسلمين في القيروان. ولذا لم يعجل حسان بالعودة إلى القيروان، وآثر متابعة حملاته على البيزنطيين بالساحل لإزالة ما لهم من نفوذ به^(٣).

وقد حاول البيزنطيون اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس والذي تقع فيه بنزرت مقراً لأعمالهم الحربية ضد المسلمين. وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة،

(١) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ١١٣؛ البكري، وصف إفريقيا، ص ٣٧؛

Fournel, op cit, 38.

(٢) ابن عذارى، نفس المرجع ج ١، ص ٢٠؛ Fournel, op cit, 39.

(٣) حسن مؤنس، نفس المرجع، ص ٢٤٠، ٢٤١.

ويضم عددا كبيرا من أهم مدن تونس ، ويعتمد على البحر في الحصول على الأمداد ، إذا ما اشتد الخطر على الجند المدافعين عنه ^(١) . على أن حسان تمكن من هزيمة البيزنطيين هناك ، وتابع إخضاع أهالي هذا الإقليم ، دون أن يقابل مقاومة بيزنطية أخرى . فآثر العودة إلى القيروان ليحصل جنده على الراحة بعد عناء الجهود الشاق الذي بذلوه في الزحف السابق ^(٢) .

ودخل حسان وجنده القيروان معتقداً أنه قد أطاح بالبيزنطيين ، وأنه لن تقوم لهم بعد الضربات الشديدة التي أنزلها بهم أية قائمة . ولكن البيزنطيين لم يركفوا إلى الهدوء والاستسلام طالما بقي لهم مدن أو معاقل على الساحل مهما كان شأنها . ثم جاء حادث مفاجيء منحهم بعض الوقت ، يستردون فيه قوتهم . إذ انشغل حسان بثورة لم يكن يتوقعها ، جاءت من إحدى قبائل البربر ، عرف أخبارها بعد عودته إلى القيروان .

ثورة الطائفة

بلغ حسان بن النعمان عندما دخل القيروان أن إحدى قبائل البربر المقيمة بجبل أوراس لم تانس لاستقرار المسلمين في منطقة تقع بالقرب من موطنهم . وكانت هذه القبيلة تدعى جراوة ، على قسط من الحضارة ولها رؤساء يتولون شئونها ، وجهدوا على الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي رغم قيام بعض المصاهرات بينهم وبين البيزنطيين . إذ ظلت مضارب هذه القبيلة بعيدة عن متناول القوات البيزنطية ، ويحيا أفرادها حياة خاصة بهم ويدين معظمهم بالديانة اليهودية ^(٣) . ولم تكن قبيلة جراوة على علم بأهداف المسلمين ورسالتهم في شمال إفريقيا ،

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(٣) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

عما جعلهم يتخوفون من اقترابهم من موطنهم بجبل أوراس . وكان يتزعم هذه القبيلة إذ ذاك امرأة تدعى بالكاهنة ، وصلت إلى مركز الصدارة لتوليها الوصاية على ولدين لها من زعيم جراوة السابق . وقد توفي هذا الزعيم قبل عودة حسان إلى القيروان وترك زوجته الكاهنة ترعى شئون القبيلة . وكانت ذات نفوذ واسع وكلمة مسوعة بين سائر أفراد قبيلتها ، ويأتمر الجميع بأمرها . وكانت تدعى العلم بالغيب ، مما جعل المسلمين يطلقون عليها لقب الكاهنة عند ما تسامعوا بأخبارها (١) .

وكانت خطة حسان دائماً المبادرة بالهجوم قبل أن يتم عدوه واستعداداته . وطبق هذه الخطة مع الكاهنة وقبيلتها جراوة ، حيث عجل المسير إليها . ولكن هذه السياسة لم تثمر مع قبيلة جراوة ، إذ كانت الكاهنة قد علمت بمسير حسان إليها ، وأسرت بجمع عدد كبير من أتباعها وتحصنت بجبل أوراس عند مدينة باغاية ، التي تقع على سفح الجبل وتتحكم في الدروب المؤدية إليه . واختارت الكاهنة هذا المكان لتكون قريبة من موطن قبيلتها وتستمد منها العون إذا ما اشتد عليها الخطر . ولكن يلاحظ أن الكاهنة عملت هذه الاستعدادات دون مساعدة من البيزنطيين ، الذين لم يكن لهم أى نصيب في تلك الثورة بعد هزيمتهم في واقعة قرطاجنة وبنزرت . إذ أن الكاهنة ما كادت تحط رحالها بالقرب من باغاية حتى هدمت حصون هذه المدينة خشية أن يستولى عليها المسلمون ويتخذونها قاعدة لأعمالهم (٢) .

وسياسة هدم المعقل والحصون لا يقرها البيزنطيون وإنما كانوا يشجعون البربر إبان تحالفهم السابق على الاعتماد على الحصون والمدن المنيعه لصد الزحف

(١) السلاوى ، نفس المرجع ، ص ٤٢ ، ٤٣ ؛

ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٤٧ .

الإسلامي . أما الكاهنة فاتبعت سياسة لا تعرف الحصون ولا الدفاع من وراء الأسوار ، وإنما تفضل اللقاء في الأرض الفضاء ومنازلة خصومها . وبذلك واجه حسان مقاومة عنيفة ، ولا سيما أن جنده كان لا يزال متعباً من حملة قرطاجنة ومطاردة البيزنطيين . فاضطر حسان إلى التقهقر بعد أن وقع في أسر الكاهنة عدد من رجال المسلمين ^(١) .

وتابعت الكاهنة تقدمها بعد ارتداد حسان حتى استعادت حدود قبليتها والأرض التابعة لها . على أنها لم تدخل القيروان ، ولم تحاول أن تمسها بسوء . ويندل ذلك على أن حركة الكاهنة كانت أعمال مقاومة محلية لإحدى قبائل البربر التي لم تعرف النظام والطاعة . إذ لو كانت الكاهنة تهدف إلى حركة مقاومة بربرية عامة لما ترددت في الذهاب إلى القيروان على نحو ما فعله كسيلة من قبل بإرشاد البيزنطيين . ولذا ظلت القيروان عامرة بالجاليات الإسلامية ، عليها رجل من قبل حسان يدعى أبو صالح ^(٢) . وقد آثر حسان العودة بقواته إلى طرابلس ، لا انتظار الأمداد ^(٣) .

وقد سادت الفوضى منطقة جبال أوراس لأن البربر أبوا الخضوع للكاهنة ، ولم تستطع أن تلم شملهم لدفع الهجوم الإسلامي المنتظر . فعاملت البربر معاملة قاسية حتى انتشر السخط بينهم . ثم اتبعت سياسة جديدة عجبت بزوال سلطانها ، إذ وهمت الكاهنة أن المسلمين لا يقصدون شمال إفريقيا إلا طمعاً في الاستيلاء على المدن الزاهرة بها ، وسلب كنوزها وذخائرها ^(٤) . وهذا الاعتقاد يدل تماماً على أن الكاهنة وقبيلتها جراوة كانت بعيدة تماماً عن مجريات الفتح الإسلامي

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ؛ Fournel, op cit, 43

(٢) ابن عبد الحكم ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .

(٣) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢ .

(٤) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢١ ،

والصراع مع البيزنطيين وأحلافهم من البربر . إذ غاب عنها أن المسلمين يسرون في فتح شمال إفريقيا وفق خطط مرسومة تهدف إلى نشر الإسلام في هذه البقعة ، وطرده البيزنطيين منها ، وإقصائهم عن أى مكان قد يهددون منه أرض الإسلام . وكذلك يستدل من اعتقاد الكاهنة الخاطيء على أنها كانت تجهل تماما ما غرسه المسلمون من بذور في حملاتهم المتوالية على البلاد .

وجنت الكاهنة ثمار تفكيرها السقيم حين عمدت إلى تخريب المدن وقطع الأشجار حتى لا يطعم فيها المسلمون . إذ أخذ كثير من البربر يستنجد بحسان لتخليصهم من نير الكاهنة ، بعد أن رأوا أنها تخرب بلادهم بنفسها على حين لم يمسهم المسلمون بسوء . وهكذا أصبح البربر ينظرون إلى المسلمين على أنهم منقذون لهم ، وكان هذا التطور من أهم العوامل التي ساعدت حسان فيما بعد على طرد البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا بعد أن تخلص من الكاهنة . وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة هزيمة حسان في حرب الكاهنة واستردوا قرطاجنة . وظل حسان مقيماً بطرابلس حتى جاءت الأمداد سنة ٨١ هـ ، فاستأنف الزحف على شمال إفريقيا . ووجد أن أحوال الكاهنة قد تغيرت عما كانت عليه من قبل ^(١) ، إذ انفض عنها جانب كبير من أهلها حيث ملوا طول القتال . وعند قابس لقيه أهلها بالطاعة وقدموا له الأموال لمساعدته . ثم التقى بعد قابس بجيوش الكاهنة ، وأوقع بها هزيمة فادحة ، ثم تبعها إلى جبال الأوراس حيث لقيت حتفها ، وخضع البربر من قبيلة جراويوة لسيادة المسلمين .

وكان للكاهنة إبنان عاملهما حسان معاملة حسنة ، وعمد إلى تأليف قلوبهما ليستفيد منهما في صراعه المقبل ضد البيزنطيين . فعين الابن الأكبر على رأس الجماعات البربرية المنضوية تحت لوائه وقربه إليه ^(٢) . وبذلك قضى حسان

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ ؛ ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٢ .

(٢) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٠٩ .

على آخر خطر مفاجيء قد يأتي من ناحية البربر ، إذ سارع البربر إلى الدخول في الدين الإسلامي أفواجا لما رأوه من حسن معاملة المسلمين لهم ، وأنهم يساوون بينهم جميعاً في المعاملات لا فرق بين مسلم عربي ومسلم من البربر .

نهاية البيزنطيين :

بعد أن فرغ حسان من شئون البربر اتجه بجميع قواته صوب البيزنطيين عامداً على اقتلاع جذورهم نهائياً من البلاد . وكانت الدولة البيزنطية تقف بالمرصاد لحركات حسان منذ طردة القوات البيزنطية من قرطاجنة وتضييقه الخناق عليها في شبه جزيرة صطقفورة . واعتبرت السلطات البيزنطية سقوط قرطاجنة ضربة قوية لا بد من العمل على التخلص من آثارها ، وجاءتها ثورة الكاهنة فرصة ذهبية يجب اقتناصها . وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك يدعى ليونتيوس ، (٦٩٥ — ٦٩٨ م) ، وأراد أن يستغل عهده باستعادة قرطاجنة واعلاء شأن دولته بشمال أفريقيا ، إذ رأى أن غض انظراف عن قرطاجنة معناه نهاية السيادة البيزنطية إلى الأبد من تلك البلاد (١)

ودل على اهتمام الامبراطور ليونتيوس بشئون شمال أفريقيا أنه ما أن علم بارتداد حسان بن النعمان بعد مقاومة الكاهنة حتى أعد جيشاً عظيماً وأسطولاً كبيراً لاسترداد قرطاجنة ، وعهد بقيادة هذه الحملة إلى قائد من أشهر قادة الدولة وهو البطريق يوحنا «Patricius Jean» . وهاجم الأسطول البيزنطي مدينة قرطاجنة على حين غفلة منها سنة ٦٩٧ م / ٥٧٨ هـ ، واستولى على المدينة في سهولة ويسر . وكان في المدينة إذ ذاك أبو صالح الذي تركه حسان على القيروان قبل هجومه على الكاهنة . فارتد أبو صالح ومن معه من القوات عن المدينة ، وترك البطريق يوحنا يشفي غليله في الانتقام من أهلها . وقضى يوحنا طيلة شتاء سنة

(1) Diehl, op cit, 583.

٦٩٧ م في تعذيب أهالي قرطاجنة غير عابىء بما قد يأتي من ناحية المسلمين^(١).
على أن حسان ما كاد يقضى على الكاهنة حتى توجه لطرده البيزنطيين من
قرطاجنة . وقد عرف أنهم يعتمدون على قوتهم البحرية في إغاراتهم المتكررة
على القواعد الإسلامية . ومن ثم استعان بأسطول إسلامي كان أول قوة بحرية
إسلامية ظهرت في مياه شمال أفريقيا . واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن
ينال النصر على البيزنطيين ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين الأسطول الإسلامي
والميزنطي أسفرت عن هزيمة البيزنطيين . فذب اليأس في قلب البطريرق يوحنا ،
وجمع قواته وآثر الفرار بما تبقى لديه من سفن قاصداً بيزنطة^(٢) .

وكان البطريرق يوحنا يقصد من انسحابه المحافظة على قواته ليمودبها مرة
أخرى إلى قرطاجنة حين تسمح له الظروف . ولكن غاب عنه أن انسحابه
عن شمال أفريقيا في هذه المرة هو آخر عهد للبيزنطيين بالبلاد ، إذ أصبح البربر
والمسلمون قوة واحدة جعلت تفكير البيزنطيين في استعادة نفوذهم بالمغرب ضرباً
من الأوهام أو من قبيل الأحلام . ودخل حسان بن النعمان مدينة قرطاجنة
وأعلى بها كلمة الإسلام مرة أخرى .

واستفاد حسان كثيراً من مجرى النضال بينه وبين البيزنطيين ، ورأى أن
يقطع عليهم خط الرجعة نهائياً في استرداد قرطاجنة . فأنحى إلى اتخاذ قاعدة بحرية
جديدة تحل مكان قرطاجنة ، ويتوافرها الحماية والابتعاد عن إغارات البيزنطيين
المفاجئة . فوجد إلى جنوب قرطاجنة بلداً على بحيرة داخلية صغيرة تسمى آدس
(Ades) لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير . وكانت هذه المدينة يونانية
اضمحلت أمرها ، ولم يبق من معالمها غير دير قام به بعض الرهبان . فوقع اختياره

(1) Diehl, op cit, 383;

البكري نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٨

(2) Diehl, op cit, 584.

عليها حيث رأى فيها توافر جميع المميزات التي يتطلبها^(١) .
وبدأ حسان بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر ، كما حفر في ماء
البحيرة الضحلة قناة عميقة تستطيع السفن السير فيها حتى تصل الى البلد . وعرف
هذا الميناء الجديد باسم تونس ، وغداله بحيرة واسعة محمية من أمواج البحر ، وبعيدة
عن قوات البيزنطيين البحرية . واضمححل بذلك شأن قرطاجنة ، وانصرف الناس
والتجار عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون في استردادها . وهكذا حقق حسان
أولى الخطوات الهامة في إبعاد خطر البيزنطيين عن ولاية إفريقية الجديدة ، وجعلها
مكاناً مرغوباً فيه ، يقبل المسلمون الفاتحون على الاستقرار به واتخاذها وطناً لهم .
ويعتبر حسان بذلك أول قائد تم على يديه استقرار المسلمين النهائي بشمال
إفريقيا ، وانصرف بعد إتمام الفتح الى تأمين البلاد وتشجيعها على أن تأخذ
بنصيب في جهاد البيزنطيين فيما تبقى لهم من أملاك بجزر البحر الأبيض المتوسط .
فاتجه حسان إلى إنشاء « دار صناعة » تبنى بها السفن والأساطيل ليغير بها على
سواحل البيزنطيين ، ويشغلهم بالدفاع عن أنفسهم بدلا من إغارتهم على ولاية
إفريقية واستعان حسان بالمصريين في تأسيس هذه القاعدة البحرية الجديدة . فأرسل
يطلب من الخليفة عبد الملك أن يوفد إليه جماعة من المصريين ممن لهم خبرة
ببناء السفن . وكلف الخليفة أخاه عبد العزيز بن مروان والى مصر أن يرسل
الى تونس ألف قبطنى بأهله وولده ، وأن يعدهم أحسن اعداد بما يكفل لهم الراحة
طيلة السفر والوصول في أمان^(٢) .

ووصل المصريون الى تونس وحسان بن النعمان مقيماً بها ، وأنشأ بمساعدتهم
دار صناعة للسفن ، وعهد الى البربر قطع الأخشاب من سفوح الجبال ونقلها
الى تونس حيث يتولى الصناع المصريون بناء السفن . ونشطت حركة الصناعة

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٣٩ ؛

حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٦١ .

(٢) البكري نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

في هذا الميناء الجديد ، وخرجت منه أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب البحر الأبيض المتوسط . وغدت تونس القاعدة الحربية الإسلامية الثانية بعد القيروان ، وآخر خطوة حققت انضمام شمال إفريقيا نهائياً إلى رقعة الدولة الإسلامية . إذ كان تأسيس القيروان بداية الجهاد الذي أدى إلى دخول البربر في الدين الإسلامي ، وأول قاعدة لاستقرار المسلمين في بلادهم . ثم جاء تأسيس تونس قاعدة قضت على البيزنطيين نهائياً من شمال إفريقيا ، وانتزعت منهم هذه البلاد إلى الأبد . وأصبحت القاعدتان محوراً تدور عليه أحداث الولاية الإسلامية بشمال إفريقيا .

وبانتهاء المسلمين من تخليص البلاد من النفوذ البيزنطي اتجهوا إلى تنظيم أحوالها ونشر الإسلام بين سائر قبائلها^(١) التي لم يصل الإسلام إليها بعد . وساروا في تلك السبيل على قاعدة دلت تماماً على أن هدف المسلمين في فتح شمال إفريقيا هو نشر الإسلام بين أهلها وطرد البيزنطيين منها . إذ اعتبر المسلمون الأرض التي كانت تابعة للبيزنطيين أرضاً مفتوحة عنوة ، وطبقوا عليها النظام الإسلامي الخاص بها . فعاملوا من تبقى في المدن الساحلية من البيزنطيين وأحلافهم معاملة الموالى لهم ، لأنهم خشوا ما قد يثيره أولئك الناس من فتن واضطراب في البلاد . وترتب على هذه السياسة الإسلامية اختفاء المظاهر البيزنطية من البلاد تماماً ، وزوال اللغة اليونانية واللاتينية ، وأصبحت البلاد عهياً لقبول الإسلام وحضارته .

وساعد على انتشار الإسلام سريعاً في أرض المغرب ، واصطبغ رعاياه بالحضارة الإسلامية حسن معاملة المسلمين الفاتحين للبربر سكان البلاد الأصليين . إذ لم يطبق عليهم المسلمون السياسة التي اتبعوها مع البيزنطيين ، وإنما ساووا بينهم وبين البربر في الحقوق والواجبات . فضم حسان عدداً كبيراً من جنود البربر

(١) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ج ٦ ص ١١٠ .

الى جيوش المسلمين ، وساوى بينهم وبين جند المسلمين العرب في الغنائم ،
وحرص دائماً على تجنب أى معاملة يحس منها البربر خضوعهم للعرب المسلمين .
وفضلاً عن ذلك اعتر المسلمون البقاع التي سكنها البربر أرضاً مفتوحة صلحاً ،
فأقروا البربر على ما بيدهم من الأرض ، وأصبحت كل قبيلة بربرية تختص بجهة
تتصرف فيها وتؤدى عنها التزاماتها^(١) .

وهكذا دخل البربر أفواجاً في الدين الإسلامى على عهد حسان بن النعمان
بعد أن زالت سلطات البيزنطيين ، وأحسوا أن الدين الجديد أخرجهم من عهد
طويل من الذل والاضطهاد إلى حياة زاهرة عامرة بالإخاء والمساواة . وقضى
حسان فترة حكمه في شمال إفريقيا جاهداً على الإعلاء من شأن البربر الذين
دخلوا في الإسلام ، ورفع شأنهم بين الجند المسلمين الفاتحين ، حتى أدرك سائر
البربر عظمة الدين الإسلامى ، وفهموا حقيقة رسالته السامية . ولكن شاءت
الأقدار أن يجنى خليفة حسان وهو موسى بن نصير ثمار اعتناق البربر للدين
الإسلامى .

الجناب الأبرر لدولة الإسلام :

تولى شئون شمال إفريقيا بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير (سنة ٥٨٩هـ /
٧٠٧ م) . وقد واجه موسى فتناً من البربر استطاع أن يخمدها في سهولة ويسر .
إذ كانت بقايا البيزنطيين ووكلائهم وأحلافهم بشمال إفريقيا يفتهمزون الفرص
لإثارة الشعب ضد المسلمين الفاتحين . وجاء عزل حسان بن النعمان تسكئة اعتمدوا
عليها في تأليب البربر على السلطات الإسلامية بالقيروان . ولكن موسى بن نصير
أثبت أنه لا يقل شكيمه وبأساً عما سبقه من قادة المسلمين ، فبادر بإقصاء المحرضين

(١) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ؛

على الفتنة من البيزنطيين عن البلاد، وضرب على أيدي الذين انضموا تحت
لوأهم بقسوة وشدة^(١). وهكذا كان أصعب البيزنطيين دائماً وراء كل حركات
البربر في هذه المرحلة الختامية من استقرار الفتح الإسلامي بأرض المغرب .
وحالف التوفيق قادة المسلمين في نشر رسالة الإسلام بشمال إفريقيا ، لأنهم
منذ أيام حسان وجهوا ضرباتهم للبيزنطيين وحدهم ، وأبعدوهم عن كل بقعة
قد يتخذونها شوكة تهدد أرض الإسلام . وجعل موسى بن نصير هذه السياسة
نصب عينيه بعد أن رأى وكلاء البيزنطيين يتابعون سياسة الدس ضد المسلمين ،
وأن الأساطيل البيزنطية أخذت تغير من بعض قواعدها بجزر البحر الأبيض
على أرض المسلمين بشمال إفريقيا . فأعد أساطيلا إسلامية غزا بها جزر منورقة
وميورقة (سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م) ، وضمها إلى سلطان المسلمين^(٢) ، وأخذت الحياة
تزدهر في هذه الجزر بعد أن استقر بها المسلمون . وأصبحت ولاية موسى بن نصير
تمتد من حدود مصر الغربية إلى شواطئ المحيط الأطلسي ، ولها هيبتها في حوض
البحر الأبيض المتوسط الغربي . وساد السكون والهدوء هذه الولاية في ظل
الإسلام ، إذ استطاع موسى بن نصير بعدله وحببه للانصاف أن يجذب إليه كبار
رجال البربر ، كما عين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين ، وتفهمهم قواعد
على أسس سليمة صحيحة . وظهرت بشائر هذا العهد الجديد سريعا ، إذ حقق
الإسلام معجزة كبرى شهدت له بأنه دين الفطرة . فقد صبغ البربر بالصبغة
الإسلامية ، وجعل لسانهم جميعا اللسان العربي .

وكانت هذه الحقيقة حداً فاصلا في تاريخ البربر الطويل ، إذ عجزت
الحضارات القديمة ، التي وصلت بلاد المغرب منذ أقدم العصور وهي الإغريقية
واللاتينية ، عن إدخال البربر في نطاقها ، واقتصر تأثيرها على بعض مدن

(١) Mercier, op cit I, 217.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

مبعثرة على طول الشريط الساحلى لشمال إفريقيا . ولكن بعد طرد البيزنطيين من شمال إفريقيا واستقرار الفتح الإسلامى بها دان البربر جميعاً بالدين الإسلامى ، ودخلوا فى مضمار المدنية الإسلامية ، وأصبحوا شعباً له رسالة فى العالم الإسلامى . وهذا التطور فى حياة البربر هو الذى يعتبر معجزة الإسلام ، حيث تمكن من إنشاء وطن جديد له استعان به فى ارتقاء سلم الزعامة العالمية .

وتجلى آية هذه المعجزة فى أن الإسلام استطاع أن يجند من البربر جنداً جديداً تسابقوا فى مضمار الفتوح الأخرى ، وغدوا الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وكان أولئك البربر المسلمون يتحلون بالحماس والحمية التى عرف بها المسلمون العرب فى أيامهم الأولى ، والتى ظهرت فى فتوحاتهم المبكرة . فأنجب البربر قادة لا يقلون عن قادة المسلمين الأول فى حماسهم لإعلاء كلمة الإسلام وتفانيهم فى نصرته ، منهم طارق بن زياد ، فاتح الأندلس^(١) وحامل راية الإسلام به^(٢) .

وقد ساهم هذا الموطن الجديد للإسلام فى مشاريع الدولة الإسلامية الكبرى ضد البيزنطيين . إذ كانت جيوش الدولة الإسلامية سنة ٧١٧ م تحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وتعمل جاهدة على إذلالها والحط من شأنها . وقد اشتركت قوات الإسلام فى شمال إفريقيا فى هذا الجهاد الرائع ، إذ أمدت ولاية إفريقية جيوش المسلمين بأساطيل ومؤن وعتاد شدت من أزر الجند الإسلامى المحاصر للقسطنطينية ، وسجلت إسمها إلى جانب سائر الولايات الإسلامية الأخرى الداخلة فى حظيرة الدولة الأموية ، والمشاركة فى حرب البيزنطيين .

(١) كانت الحملة الإسلامية فى شبه جزيرة أيبيريا من أروع الأعمال الحربية التى قام بها المسلمون ، وفى سنة ٧١١ م عبر طارق البحر إلى أسبانيا وبدأ سلسلة من الحملات اشترك فيها كذلك موسى بن نصير ، وانتهت باستقرار المسلمين فى هذا الركن الجنوبى الغربى من أوروبا .

(٢) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

وهكذا حقق الأمويون بانتشار الإسلام في شمال إفريقيا والأندلس عملاً مجيداً، هو انتزاع الصفة البيزنطية القديمة الملتصقة بالبحر الأبيض المتوسط وإحلال الطابع الإسلامي محلها، إذ كان البيزنطيون يعتزون دائماً بأن البحر الأبيض المتوسط هو بحرهم، حيث ورثوا عن أمهم الدولة الرومانية الكبرى اللقب الذي أغدقته على هذا البحر وهو «بحر الروم». على أن انتصار الجيوش الأموية في شمال إفريقيا والأندلس كتب للمسلمين السيادة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، إلى جانب السيادة التي اكتسبوها على الحوض الشرقي من هذا البحر بعد واقعة ذات الصواري. وأصبح البحر الأبيض المتوسط حراً أن يدعى «بحر المسلمين» نتيجة مجهودات الأمويين الجليلة.

الفصل الخامس

التجاوب الحضارى

بين الدولتين الأموية والبيزنطية

التراث البيزنطى فى نظم الأمويين الإدارية

إدارة الأقاليم :

يعتبر العصر الأموى عهد امتصاص النظم والتقاليد البيزنطية التى وجدها المسلمون فى البلاد المفتوحة ، ثم استخدامها بما يتفق والوضع الجديد لدولة الإسلام . وكان أول نظام بيزنطى أبقى عليه المسلمون هو طريقة إدارة البلاد وتصريف شئونها . إذ رأى المسلمون أقاليم الشام ومصر وشمال أفريقيا ذات إدارات ومصالح ، ومنظمات وهيئات ، تجرى وفق نظم بيزنطية راسخة الأوتاد ، وأدركوا أن حكم دولتهم وتوجيهه لما فيه الصالح العام يقتضى ألا تشمل الإدارات البيزنطية ويبطل عملها فى تلك الأقاليم التى استظلت بالإسلام .

وقد أظهر المسلمون فى هذه الفترة المبكرة من بناء دولتهم عقلية فذة ، وأفقاً واسعاً فى استيعاب النظم الصالحة السائدة فى البلاد التى أخذوها من الإمبراطورية البيزنطية . وكان لهذه الظاهرة أثر كبير فى استقرار أحوال الدولة الإسلامية الفتية على عهد الأمويين ، وتجنبها المصاعب والمتاعب الاقتصادية والاجتماعية التى تواجه دائماً الدول فى المراحل الأولى من تكوينها . إذ استطاع الأمويون الاستفادة من نتائج تجارب الإدارة والحكم البيزنطى ، ووضعوا الأسس والدعائم المتينة لصرح دولة الإسلام ، وجعله أكبر قوة عرفها عالم العصور الوسطى .

وكان معاوية يسير على هدى الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي عرف عنه الاهتمام بدولة الإسلام وحرصه على تنظيم أحوالها بما يحقق لها الرفاهية والطمأنينة . إذ اعتمد الخليفة عمر على النظم البيزنطية في ترتيب شئون دولته^(١) ، إلى جانب الأنظمة الفارسية الساسانية . وظهر تقدير الخليفة عمر لنواحي الإدارة البيزنطية في احتفاظه بكثير من مظاهرها تامة غير منقوصة . إذ حين وفد عمر إلى الشام ، وكان كثير التردد عليها أثناء الفتوحات الإسلامية ، وضع لهذا الإقليم تسمية إدارية جاء نموذجاً لما سار عليه البيزنطيون من قبل في إدارة هذه البلاد .

قسم الخليفة عمر إقليم الشام إلى عدة أجناد ، وهي أقاليم حربية يقيم في حاضرة كل إقليم فيلق من فيالق الجيش ، وكان هذا النظام سائداً في الشام البيزنطى . وجاء معاوية وخلفاؤه وذرعوها هذا النظام الحربى حتى أخذ مظهره كاملاً . فكان جند فلسطين هو ما عرف عند البيزنطيين باسم فلسطين الأولى (Palestina Prima) وعاصمته مدينة « الرملة » . أما جند الأردن فكان فلسطين الثانية (Palestina Secunda) وعاصمته « طبرية » . وجند دمشق اشتمل على ما سماه البيزنطيون فلسطين الثالثة (Palestina Tertia) وفينيفيا الأولى ولبنان (Ad Libanum) . ثم جند قنسرين فكان قبلاً يدعى سوريا الأولى (Syria Prima)^(٢) .

وغدت الدولة الإسلامية على عهد الأمويين تنظم إمارات كبرى ، يحكم كل منها والى مسلم مرتبط مباشرة مع الخليفة . وقد حافظ الأمويون في ولايات القسم الغربى من دولتهم على طريقة الإدارة البيزنطية بها . فكانت الشام ومصر وشمال أفريقيا هي نفس الولايات التي خضعت للبيزنطيين من قبل ،

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ١٤٩ .

(٢) Le Strange, Palestine Under the Muslims, 26

بإدارتها وعمالها^(١). وتعتبر مصر نموذجاً للطابع الإسلامي الإداري الجديد، إذ انتقلت مهام الحاكم البيزنطي العام بها، الذي أطلق عليه اسم سيمبولوس (Symboulos) إلى عامل إسلامي لقب « بالأمير ». وكان يشرف على شئون الوجهين البحري والقبلي كما فعل سمييه أيام سيادة البيزنطيين .

وساعد « الأمير » أو الحاكم الإسلامي العام شخص عن كل قسم من قسمي الدولة عرف باسم « صاحب » ، وهو يرادف عند البيزنطيين « كاتب » (Chartularius) . كذلك قسم الوجهان ، البحري والقبلي إلى « كور » كانت هي الأقاليم التي عرفت في العهد البيزنطي باسم بجارخي (Pagarchies) . وكان المهمين على شئون « الكورة » يدعى صاحب الكورة ، وهو مرادف للبجارخي (Pagarchos) . وظل دولاب العمل يسير على نسق الأداة الحكومية البيزنطية ، فكل قرية من قرى الكور احتفظت بسجل فيه أسماء دافعي الضرائب وممتلكاتهم ، وكذلك أرناب المهن والحرف . وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى^(٢) ، الذين عرفوا في العهد البيزنطي باسم موازيت (Mezones) . وبعد أن تنتهي السلطات المحلية من إعداد السجلات ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمد عليها السلطات العليا هناك^(٣) .

وبذلك استطاع الأمويون أن ينهضوا بإدارة هذه الرقعة الكبيرة من

(١) كانت الدولة الأموية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى ، يحكم كل منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهي : الحجاز واليمن ومصر والعراق ، ويتبعه بلاد ما وراء النهر والسند وخراسان وعمان والجزيرة ومعها أرمينيا وبعض أقسام من آسيا الصغرى ، ثم أخيراً إمارة إفريقية ومعها الأندلس .

(٢) تذكر المراجع التاريخية أن قادة المسلمين حرصوا عند دخولهم البلاد المفتوحة على الاستفادة من خبرة كبار الشخصيات بها . وتجلت هذه الظاهرة بصفة خاصة في مصر ، فكان عمرو بن العاص يسأل ساداتها القدامى عن اقتصاديات الأقليم ومصروفاته والطرق التي تسكفل تحسب من مرافقه . وسار على نهج عمرو بن العاص سائر الولاة الذين تولوا إدارة مصر .

(3) Bell, Grek Papyri, 17, 18 ;

Nabia, the Kurrah Papyri, opcit, 100.

الأراضي التي دخلت في حظيرة دولتهم . ولكن الخلفاء الأمويين أقدموا على خطوة جلييلة ساعدت على تقوية أواصر الروابط بين ولاياتهم جميعها ، وخلق الوحدة الإسلامية التي تنعم بها الدول الإسلامية اليوم ، إذ اتجهت السلطات الأموية إلى تعريب الدواوين والإدارات التابعة لها في الدولة وصبغها بالصبغة العربية . وبدأت هذه الخطوة في عهد الخليفين عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فنقلت لغة الدواوين في مصر والشام من اليونانية إلى العربية ، وفي العراق والمقاطعات الشرقية من الفهلوية (الفارسية) إلى العربية ^(١) .

× وكان الدافع على تعريب الدواوين والإدارة الإسلامية تمكين الولاة المسلمين من الإشراف إشرافاً تاماً على شئون دولتهم . إذ كان تدوين السجلات باللغات الأجنبية حافزاً شجع صغار العمال على التزوير والتلاعب في السجلات دون أن يكتشف أمرهم ^(٢) . ولا شك أن أغراضاً أخرى هامة ، منها صبغ الدولة بالصبغة العربية ، هي التي حملت خلفاء بني أمية على تعريب الإدارة . إذ تروى بعض المراجع أسباباً مختلفة أو مبهمه لتعميل نقل الدواوين إلى العربية . فذكر البلاذري مثلاً « أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً فلم يجد ماء ، فبال في الدواة . فبلغ ذلك عبد الملك ، فأدبه . وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ^(٣) . »

وسار ولاة الدولة الأموية على نهج خلفائهم في تعريب الدواوين في مقاطعاتهم ^(٤) ، حتى أخذوا النظام الجديد يشب وينمو ، ويشمل سائر البلاد

(١) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢١

(٢) كان التزوير في المكاتبات شائعاً منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ، فأنشأ « ديوان الخاتم » للقضاء على أعمال التزوير ، وتسهيلاً للمكاتبات بينه وبين عماله . وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن بلاط الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية في سجل خاص وتختم بخاتم الخليفة نفسه .

(٣) البلاذري ، نفس المرجع ، ص ٢٠١ .

(٤) أشرف الحجاج بن يوسف الثقفي على تعريب الدواوين في العراق والمقاطعات الشرقية =

الإسلامية . ومما ساعد على اكتمال هذا النظام سريعاً أن عبد الملك أشار باستخدام من يجيد العربية في المناصب الرسمية بالدولة . وهكذا وضع الخلفاء الأمويون نصب أعينهم الاستفادة أولاً من نظم الإدارة البيزنطية ، ثم تعريبها تدريجياً بما فيه صالح دولتهم .

وأثر الأمويون بدورهم في نظم البيزنطيين الإدارية ، ولا سيما في بلادهم المعرضة لهجوم المسلمين . وكان أوضح مثال على ذلك إقليم آسيا الصغرى ، فقد رأت الدولة البيزنطية ضرورة وضع نظام إداري خاص لهذا الإقليم لصد هجمات الأمويين المتكررة عليه . وحفز الأباطرة على الاهتمام بإدارة هذا الإقليم أيضاً اتخاذهم خط دفاع لحماية القسطنطينية . فوضع الأباطرة لآسيا الصغرى نظام الأقاليم الحربية الذي يعرف بالبنود (Themes)^(١) ، وهو أشبه بنظام الأجناد الذي طبقة الأمويون على إقليم الشام .

وأتى الأمويون إشرافهم على إدارة البلاد التابعة لهم باقتباس نظام البريد (Veredus) من البيزنطيين . وكان معاوية واضع أسس هذا النظام الذي ظل يتطور طيلة العصر الأموي . واستخدم البريد في نفس الأغراض التي اتبعت أيام البيزنطيين ، إذ اقتصر البريد على خدمة مصالح الدولة لا لتصرف شؤون الأفراد والناس . فكان الخليفة يتصل بمحاضر الولايات ويقف على أخبار عماله بها وأحوال سكانها بواسطة « عمال البريد » ، وغدت هذه الأداة أشبه بإدارة البريد (Cursus Publicus) في النظام البيزنطي^(٢) .

وأكمل الخليفة عبد الملك ما بدأه معاوية في نظام البريد . فأصبحت هذه الإدارة تامة الإعداد ، وخيل البريد تنقل الرسائل والمسافرين من دمشق إلى سائر

= فنقل المكاتبات وأعمال الدواوين من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية . وبذلك سار تعريب الدواوين في الدولة الأموية سيراً منظماً مضطرباً .

(١) انظر الفصل الثالث من الكتاب ، ص ١٥٨

(٢) Hitti, op cit, 438.

حواضر الأقاليم الإسلامية . على أن أهم عمل قام به عمال البريد هو مراقبة سير الولاة والعمال في الأقاليم الإسلامية ، وإحاطة الخليفة علماً بما يبدر منهم من أعمال حسنة أو سيئة ^(١) . وغدت هذه الإدارة حرة أن تدعى بعين الخليفة وأذنه في شتى أرجاء دولته .

العمائر والفنون :

تعتبر مجهودات الأمويين في العمائر والفنون النواة الأولى للفن الإسلامي وما حفل به آيات رائعة الجمال . وقد استغل الأمويون طرز البناء والفنون البيزنطية التي وجدوها في البلاد التي دخلت في حظيرتهم ، ثم بدأوا يصبغون هذه المظاهر البيزنطية بألوان تتفق مع الوضع الجديد لدولة الإسلام . فخرج مزاج إسلامي رائع تولاه سائر خلفاء الدولة الإسلامية فيما بعد بالرعاية حتى أصبح لكل بقعة من أرض الإسلام ذوقها وطابعها الفني الخاص .

ويعزى نجاح الأمويين في وضع النواة الأولى للفنون الإسلامية إلى ما عرف عنهم من الأفق الواسع ، وحسن استغلال ما تصل إليه أيديهم من وسائل بيزنطية لإعلاء وإتمام مبانيهم وسائر المرافق التي ترمز لعظمتهم وسلطانهم . ويعتبر المسجد الأموي و « القصور الريفية الأموية » نماذج رائعة للفن الإسلامي في بدايته ، واعتماده على النماذج البيزنطية . فالمسجد الأموي كان في الأصل كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة القديس يوحنا ^(٢) . ولكن الوليد استولى على هذه الكنيسة سنة ٧٠٥ م وأدخل عليها كثيراً من التعديلات بما جعل البناء الجديد مسجداً إسلامياً آية في البهاء والعظمة ، وشاهداً على ما تحلى به الأمويون من ذوق سليم .

(١) Hitti op cit, 484.

(٢) ابن عساكر، نفس المرجع، ص ١٩٩.

وتجلت الطرز البيزنطية في عمارة المسجد الأموي حيث استعان الخليفة
بعمال وفنانين بيزنطيين جلبهم خصيصاً من القسطنطينية^(١). واشترك إلى جانب
أولئك الفنانين البيزنطيين عمال من أقباط مصر^(٢)، الذين تلقوا دروسهم عن
الفنون في مدارس البيزنطيين أيام تبعيتهم للدولة البيزنطية. وقام الفنانون
البيزنطيون ببناء القبة الحجرية الشائخة التي تعلو المسجد الأموي، والتي أصبحت
أول جزء يسترعى نظر الزائر للمسجد. وعهد إلى العمال البيزنطيين كذلك زخرفة
القبة من الداخل وسائر جدران المسجد بالفسيفساء التي كانت نموذجاً خاصاً
بالزخرفة البيزنطية.

وكان الوليد مهتماً بالحصول على الفسيفساء وتزين مسجده بها، فبذل شتى
الطرق للحصول على الفسيفساء البيزنطية وغيرها من المواد التي تصلح لزخرفة
مسجده. فكان الوليد يفرض على الجيوش الإسلامية من أهل الشام ومصر
والعراق أن يحمل كل جندي منها يغير على أرض البيزنطيين «قسماً من الفسيفساء
وذراعاً في ذراع من رخام، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ويستأجرون
من يحمله إلى دمشق. ويحمله أهل حمص إلى حمص ومنه إلى دمشق، وأهل
دمشق يحملونه إلى دمشق.»^(٣)

على أن الأمويين، رغم استخدامهم للعمال البيزنطيين وغيرهم من الفنانين
الأجانب، أكسبوا المزيج الفني طابعاً جديداً جعله إسلامياً في مظهره، حتى غدا
المسجد الأموي بدمشق نموذجاً لسائر المساجد التي شيدت في البقاع الإسلامية
الأخرى. وكان الدليل على النتائج الإسلامي الجديد للفنون في الدولة الأموية
ظهور العقود في المسجد التي تشبه حدوة الفرس. واستمد هذا الطابع الجديد

(١) ابن عساكر، نفس المرجع، ص ٢٠٢.

(٢) Bell, Greek Papyri, 18.

(٣) ابن عساكر، نفس المرجع، ص ٢١٠.

مميزاته من خصائص الوطن الأصلي للعرب . إذ كان تقوس العقود وغيرها من المظاهر المشابهة لها فيما بعد تقليداً لتقوس وتقيب فروع الفخيل المحببة إلى قلوب العرب . وسرعان ما أصبح هذا المظهر الجديد للفن الإسلامي النموذج الذي احتذاه المسلمون في بناء مساجدهم^(١) ، وغدا الرمز الذي يذكرونهم بدولتهم ووحدتها مهما اتسعت رقعتها^(٢) .

وقد اهتم الخلفاء الأمويون بمساكنهم التي يقضون فيها أوقات فراغهم . فكان لهم قصور في بادية الشام يذهبون إليها للاستجمام من متاعب الحكم . وشيدت هذه القصور على النماذج البيزنطية ، وتقليداً لما فعله الغساسنة وكلاء الدولة البيزنطية في الشام من قبل . إذ اتخذ أمراء الغساسنة مقاراً ريفية لأنفسهم ، جاءت آية في الروعة والاستعداد لقضاء أوقات الفراغ^(٣) ، وغدت أطراف بادية الشام عامرة بقصور الخلفاء الأمويين ، وكان بعض هذه القصور حصوناً بيزنطية أعدها الخلفاء الأمويون لراحتهم . وتعدد أسماء هذه القصور ، فمنها ما يسمى بالأخضر ، والموقر الذي يرجح أن يزيد بن عبد الملك قام ببنائه ، والقسطل (من اللاتينية Castellum أى حصن) ، والأزرق اللذين اتخذهما الوليد الثاني مقراً للصيد وغيره من الملاحى ، والمشتى الذي بناه الوليد الثاني كذلك^(٤) .

واشتهر من هذه القصور الأموية وبناها جميعاً « قصير عمرة^(٥) » ، الواقع شرق الأردن في محاذة الحافة الشمالية للبحر الميت . وينسب بناء هذا القصر إلى الوليد الأول فيما بين سنة ٧١٢ ، ٧١٥ م ، وتجلى فيه الطابع الفني البيزنطى ، ولا سيما في النقوش والزخرفة التي حلت جدرانها . فكان على أحد جدران هذا

(١) Hell, Die Kultur der Araber 120.

(٢) سيد أمير على ، نفس المرجع ، ص ١٦٩ .

(٣) حتى ، تاريخ العرب ، (ترجمة الأستاذ مبروك نافع) ص ٣٣٢ .

(٤) حتى ، نفس المرجع ، ص ٣٣٣ .

(٥) اكتشف هذا القصر العالم ألوا موزل (Alois Mnsil) سنة ١٨٩٨ م

القصر صور أربعة ملوك يمثلون الامبراطوريات التي دانت للإسلام^(١)، وفوق هذه الصور نقش بالعربية واليونانية لتمييز كل صورة من الأخرى^(٢). وكانت هذه الصور تمثل قيصر وكسرى والنجاشي ولذريق آخر ملوك أسبانيا القوطية^(٣). ^{عسلان} ويتجلى في زخرفة هذه القصور الأموية نواة الزخارف الإسلامية المحضة، التي اختص بها الفن الإسلامي وحده، حتى عرفت في اللغات الأوربية باسم «أرابسك» (Arabesque) نسبة إلى العرب، إذ كانت بعض الزخارف تحوى أوراق شجر ونخيل يتدلى من عراجينها البلح، وعدد من طيور الصحراء. واستخدمت الزخارف النباتية بشكل واسع في المساجد، وبرع الفنانون في سبكها حتى غدت ذات أشكال هندسية رائعة جميلة^(٤).

وهكذا خلفت آثار الأمويين المعمارية آيات تنطق بمقدرة المسلمين على استيعاب الطرز البيزنطية الفنية وتحويلها بما يكسب مبانهم بهاءً وروعة. على أن الحقيقة الكبرى التي تمخضت عن مجهودات الأمويين هو ظهور نواة الفن الإسلامي، التي ازدهرت فيما بعد وملاّت سائر البلاد الإسلامية بروائع الفنون.

(١) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٧.

(٣) بروكلمان، نفس المرجع، ص ١٨٧.

(٤) حتى، نفس المرجع، ص ٣٣٤.

الاتصال الثقافي

وصدى الحروب في آداب المسلمين والبيزنطيين

استطاع الأمويون أن يضعوا أسس نهضة المسلمين الثقافية في هذه الفترة المبكرة من ظهورهم على مسرح الحضارة العالمية ، وأن يكتشفوا ينابيع التي تغذى هذه النهضة وتعمل على ازدهارها . ونجح الخلفاء الأمويون في إعداد طبقة من المسلمين كانت العمدة التي شيد عليها صرح الحضارة الإسلامية ، وما حفلت به من ألوان العلم والعرفان . ويعتبر العصر الأموي عهد غرس بذور دوحة العلم التي أينعت زمن العباسيين ، وقدمت ثماراً ناضجة شهيبة للدولة الإسلامية ، وجعلتها تؤدي رسالتها في مضمار الحضارة العالمية .

× وتعزى قوة الدعامة الثقافية التي وضعها بنو أمية إلى حسن استغلالهم لتراث الثقافة الهلينية ، ذلك ينبوع الذي زود البيزنطيين كذلك بشتى المعارف والعلوم . وكان هذا الميدان الثقافي الحلبة التي تنافس فيها المسلمون والبيزنطيون ، كل يعمل جاهداً على إفادة نفسه وترقية مستواه . وكانت الثقافة اليونانية وحضارتها قد اتصلتا ببلاد الشرق منذ غزا الإسكندر المقدوني أرض فارس (٣٣١ ق . م) ، وتأثرت بفلسفة الشرق وأفكاره . ونجم عن هذا الاتصال مزيج ثقافي جديد يضم ألواناً يونانية (هلمينية) وأخرى شرقية ، عرف باسم الثقافة الهلينية . وظل هذا الطابع الهلينيستي يسود بلاد الشرق إلى عصر انصوائه في رقعة الدولة البيزنطية .

ولما انفرد الأمويون بحكم الدولة الإسلامية وجدوا بأرضها التي كانت تابعة للبيزنطيين من قبل ، مثل الشام ومصر مراکز حضارة هلمينية موزعة بين مدنها الكبرى . فكانت هناك أنطاكية بالشام وقيصرية بفلسطين والاسكندرية بصفة

خاصة في مصر ، تذخر جميعها بالعلماء والمدارس والمتاحف ، ويمتلىء جوها بالحياة الفكرية والحضارة الهلينستية . وقد آل هذا الشطر الثمين من كنوز المعرفة إلى دولة الإسلام^(١) ، وتولى الأمويون استغلاله وتنميته لصالحهم وما فيه خير دولتهم .

× اعتمد الأمويون على أنفسهم في تنمية نصيبهم من تراث الثقافة الهلينستية ، ثم اتجهوا إلى الميزنطينيين يستعينون بهم فيما يتراءى لهم . فشجع الأمويون نقل التراث اليوناني إلى اللغة العربية ، إذا كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولاً وقبل كل شيء^(٢) . ولذا بدأت حركة الترجمة لتعريب الكتب اليونانية على نحو تعريب النظم الإدارية وسجلاتها في البلاد المفتوحة . واضطلع بهذه المهمة في مبدأ أمرها رجال من رعايا الدولة الإسلامية الذين حملوا مشعل الحضارة الهلينستية في بلادهم قبل ظهور الإسلام^(٣) .

وتجلى اهتمام الأمويين بتعريب التراث اليوناني في أعمال خالد بن يزيد بن معاوية . إذ كان مغرمًا بعلم الكيمياء ، واستدعى بعض العلماء من الإسكندرية وكلفهم ترجمة الكتب اليونانية التي تناولت هذا الموضوع^(٤) . وكانت مدرسة الإسكندرية وعلمائها في طليعة حركة نقل التراث اليوناني إلى العربية . وساعدت أحداث الفتح الإسلامي على استغلال جهود علماء الإسكندرية إلى أقصى حد خلال العصر الأموي . إذ كانت اتخذ الفسطاط عاصمة جديدة لمصر سبباً في اضمحلال شأن الإسكندرية واضطرار علمائها إلى الذهاب إلى الشام ، التي غدت مقر خلفاء بني أمية المعروف عنهم تشجيع العلم^(٥) .

(١) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني ، ص ٦ .

(٢) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦ .

(٣) Khuda — Bukhsh, Islamic Civilisation, 1, 2.

(٤) Hitti, History of Syria, 498.

(٥) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٦٨ .

وحفلت الشام وحاضرتها دمشق بالعلماء الذين وقفوا جهودهم على نقل الثقافة الهلينستية إلى العربية ، على حين تولى الخلفاء وأبناؤهم رعاية هذه الحركة الثقافية المبكرة . ولذا اجتذب بلاط الأمويين بدمشق الضليعين في العلوم الإغريقية وغيرهم ممن يمكن الاستفادة بهم كالأطباء^(١) . وغدت تربة الشام صالحة لغرس بذور المعرفة ، وإحياء المراكز الحضارية بها . وظهر ذلك جلياً عندما انتقلت أخيراً مدرسة الطب بالأسكندرية إلى أنطاكية بالشام على عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، بعد أن اضمحل شأن الأسكندرية وانتقل مركز النشاط بها إلى القسطنطينية .

وكانت أنطاكية نموذجاً لاهتمام الخلفاء الأمويين بإحياء مراكز الثقافة الهلينستية بمقر حكمهم . إذ اشتهرت أنطاكية قبل الإسلام بتقدمها في مضار الحضارة بفضل علماءها من اليعاقبة^(٢) . ولكن تدهورت أحوال هذه المدينة على عهد الإمبراطور هرقل بسبب غزو الفرس للشام . وظلت أنطاكية تنهت من وضعها حتى دخول الإسلام أرض الشام . فتولى بنو أمية إعادتها إلى سيرتها الأولى وبعث دم الحياة فيها مرة أخرى . وازدهرت أنطاكية على عهد الأمويين رغم وقوعها بالقرب من منطقة التخوم القلقة الأوضاع بين الدولتين الأموية والبيزنطية . ذلك أن موقع أنطاكية ساعد على جلب المخطوطات من آسيا الصغرى^(٣) ، وحركة تبادل المراجع التي كانت تنشط في فترات السلم وانتهاء الحروب^(٤) .

(١) كان أطباء بلاط الأمويين ممن يجيدون اليونانية ، واشتهر منهم ابن أنال الذي كان يعالج معاوية ، وتياذوق اليوناني ، كما يتضح من اسمه ، والذي كان يعالج الحجاج .
(٢) ينسب اليعاقبة إلى زعيم المذهب المنوفيرتي ويدعى يعقوب براديسوس ، الذي ظهر في الشام .

(٣) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

(٤) عبد الرحمن بدوي ، نفس المرجع ، ص ٦٩ .

وزار بعض علماء المسلمين المشهورين القسطنطينية ، حيث أوفدهم الخلفاء في مهام خاصة . وكان من هؤلاء العلماء الفقيه عامر بن شراحيل الشعبي (المتوفى سنة ٧٢٨ م) . وهو من أهل السكوفة التي اشتهرت في هذه الفترة المبكرة من عهد الحضارة الإسلامية بأنها مركز هام من مراكز الثقافة . وعرف الشعبي بإطلاعه الواسع وأنه سمع الأحاديث التي كان يحفظها عن ظهر قلب ويرويها دون أى خلط من نحو مائة وخمسين من الصحابة ؛ وظهر من تلاميذ الشعبي أبو حنيفة العظيم . وقد زار الشعبي بلاط القسطنطينية مبعوثاً من الخليفة عبد الملك ابن مروان ، واسترعى أنظار البيزنطيين بعلمه الواسع ، وغزارة مادته .

وقد ظهر في النواحي الثقافية آثار الاتصال السياسي والاحتكاك الحربي بين الأمويين والبيزنطيين وتردد صدى أعمالهما في الآداب والأشعار . فأدت الحروب إلى امتلاء آداب الدولتين بالقصص والأشعار التي تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالأقدام والمغامرة ، وغدا كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية ، لها قوة خارقة للعادة ، ومقدرة على أداء الصعب من الأعمال . فمن ذلك أن المراجع العربية تشيد بمحارب مسلم اسمه عبد الله البطال ؛ وتمجد مغامراته وحروبه ضد البيزنطيين ، على حين تروى المراجع البيزنطية الكثير عن مغامر هاجم الأراضى الإسلامية ويدعى ديجينيس أكر يتاس^(١) Digenis Akritas

وإذا كانت سائر كتب الأدب العربي تروى الكثير من قصص البطولة التي أبدأها المسلمون في الميدان البيزنطي ، فإن الشعر الأموي سجل بدوره نشاط قادة المسلمين وأشاد بهم . وقد اهتم الخلفاء والأمويون بالشعراء وجذبوهم إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم العطايا الوفيرة ، حتى أصبح أولئك الشعراء صحف بني أمية ورواة

أعمالهم . وكان من أشهر الشعراء الذين وفدوا على بلاط الأمويين بدمشق ،
وتناولوا في أشعارهم جهود بني أمية في حرب البيزنطيين وإعزاز دولة المسلمين ،
الفرزدق وجريير والأخطل^(١) .

وقد شاهد عصر أولئك الشعراء الثلاث الفطاحل عهد اتساع الفتوح
الأموية وضم كثير من أرض البيزنطيين إلى دولة الإسلام . وكان عنوان عظمة
الأمويين في تلك الفترة ثلاثة من أعظم الخلفاء ، عبد الملك بن مروان وإبنه
الوليد وسليمان . فعاصر الشعراء الثلاثة الأحداث التي قام بها أولئك الخلفاء ضد
البيزنطيين وسجلوها في أشعارهم . على أن معظمهم أشادوا بسليمان الذي اشتهر عنه
تحمسه لحصار القسطنطينية وبذله أقصى الجهود لإذلال البيزنطيين . وسجل
جريير في مدائحه أفضل سليمان في نصرته الإسلام وانتصاراته على البيزنطيين .^(٢)
وتناول الشعراء كذلك أعمال قادة الأمويين ضد البيزنطيين وخلدوا أعمالهم
في أشعارهم . وكان مسامة بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس من مدحهم جريير
وسجل أعماله الرائعة ضد البيزنطيين^(٣) . وقد أجاد جريير في شعره ، وإن كان
مقتضباً ، ويعد مدحه تعبيراً عما ساد عصره من حماس وحب للجهاد ، وأن الخليفة
وأخاه كانا رمز الشعور الإسلامي ، وتفانى الجميع في الزود عن حياض الإسلام
وإعلاء شأنه .

(١) اشتهر أولئك الشعراء الثلاثة بأنهم كانوا في طليعة شعراء العصر الأموي وأكثرهم
اتصالاً بالخلفاء الأمويين . وعرف عنهم الميل إلى الهجاء الشديد والمدح كذلك . وتحفل المراجع
بالكثير من أخبار هؤلاء الشعراء الثلاثة وما خلفوه من قصائد .

(٢) مدح جريير الخليفة سليمان وأشاد بانتصاراته على البيزنطيين ، وداهر ملك السند
كذلك :

هداك الذي يهدى الخلائق للتقى وأعطيت نصراً لم تنلته الخلائف
وأرض هرقل قد قهرت وداهرا وتسعى لكم من آل كسرى النواصف
(٣) أشاد جريير بما عرف عن مسامة بن عبد الملك من حب قيادة الجيوش الإسلامية

وما ناله من نصر : فقال :

ولم تخل الأشعار الأموية من تسجيل طرائف تتردد فيها صدى أحداث الحروب بين المسلمين والبيزنطيين ، ومن ذلك أن الخليفة سليمان خرج للحج مرة وحجت معه الشعراء ، وهناك عقد مجلساً بالمدينة حيث وصلت طائفة من أسرى البيزنطيين ، بلغت نحو من أر بعائة. وكان من بين الأسرى شخصيات رأى الخليفة قتلها ، فأمر الفرزدق الشاعر أن يتناول سيفاً ويطيح رأس أسير. ولكن أحد مناهضى الفرزدق دس له سيفاً غير ماض ، ولما ضرب به الأسير لم يمت ، فضحك الخليفة والحاضرون ، وشمّت أخوال سليمان وهم بنو عبس بالفرزدق (١). فرد بشعر يسفه به المتأسرين عليه ، ويذكر أن شيمة سليمان العفو عن الأسرى وإطلاق سراحهم (٢).

وهكذا حفلت الآداب الأموية بنماذج متعددة تصور مظاهر الاتصال الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين ، وتبين مدى ما كان للخلفاء الأمويين من تأثير في رقى الحركات الثقافية بالدولة الإسلامية . على أن أهم مظهر ميز الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة المبكرة هو ظهور الطابع الشرقي في الحضارة الهلنيسية والاستفادة من ثقافات بلاد البحر الأبيض المتوسط . وتعد الحقيقة السالفة من أهم العوامل التي غذت حضارة المسلمين بدم جديد ، وجعلتها تزدهر على عهد العباسيين .

— مسلم حرار الجيوش إلى العدا
يداك تسقى السمام عدونا
كما قاد أصحاب السفينة نوح
وأخرى بربات السحاب تفوح
(١) كتاب القنائص ، ٣٨٣ .

وأنشد الفرزدق معرضاً ببني عبسى :
إن يك سيف خان أو قدر أبى
فسيف بنو عبس وقد ضربوا به
لتأخير نفس حتفها غير شاهد
نبا ييدى ورقاء عن رأس خالد
(٢) وعرض الفرزدق في هذه المناسبة أيضاً بأعدائه ، ومدح فضائل سليمان وميله إلى إطلاق سراح الأسرى قائلاً :

فلا تقتل الأسرى ولكن تفكهم
فهل ضربة الرومى جاعلة لكم
أحق بأيام العلى والمكارم
أبا عن كليب أو أبا مثل دارم

الاتصالات الدبلوماسية

لم تقم الدولتان الأموية والبيزنطية ستاراً يفصل كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال ويجعلهما تعيشان عيشة إنعزالية موحشة . إذ استلزمت صلة الجوار وقيام الحروب بينهما ظهور نوع من الاتصالات الدبلوماسية ، تهدف إلى حل المشاكل التي تطرأ لهما ، وخدمة سائر الأغراض الأخرى التي تعن للفريقين . ولكن يلاحظ أن العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين اختلفت عما نعرفه في الوقت الحاضر « بالتمثيل الدبلوماسي » بين دول العالم . إذ لم يكن هناك في الدولة الإسلامية أو البيزنطية دور سفارات يقيم بها ممثلون دائمون للاشراف على شؤون دولتهم وحماية مصالحها. (١)

كان التمثيل الدبلوماسي بين الأمويين والبيزنطيين يقتصر على إرسال سفير عندما تقتضي الظروف ، للاتفاق على عقد هدنة أو التفاهم على إنهاء وضع شاذ خاص بأسرى الحرب أو بمسائل تجار من رعايا الدولتين . ويشبه هذا النوع من التبادل الدبلوماسي ما نعرفه اليوم بالسفراء فوق العادة ، وهم الأشخاص الذين توفدهم الدول لحضور حفلة زفاف أو إبرام اتفاق ، ثم تنتهي مهمتهم بانتهاء المناسبة أو المهمة التي أوفدوا من أجلها ، ويعودون إلى بلادهم .

وظهر في هذه الفترة المبكرة من الاتصال الدبلوماسي بين المسلمين والبيزنطيين نظم مقررته اتبعها الفريقان ، حتى يتمكن السفراء من تأدية رسالتهم على أتم وجه . فقد راعى أولو الأمر في الدولتين الإسلامية والبيزنطية تزويد السفير بخطاب يحمل تعريفاً بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسمياً باسم دولته . وكان هذا الخطاب أشبه بأوراق الاعتماد التي يحملها السفراء اليوم

Runciman, op cit, 156. (١)

Baynes, the Byzantine Empire, 74.

عند مقابلتهم رؤساء الدول التي يفقدون إليها . وإلى جانب ذلك تمتع السفراء
المسامون والبيزنطيون بكافة أنواع الحصانة الدبلوماسية التي نعرفها اليوم . إذ كان
السفير يعتبر رمز الدولة التي توفده وله كافة الحقوق التي لرئيس دولته .^(١)

وحرص الأمويون والبيزنطيون على الحفاوة بالسفراء وإغداق مظاهر
التكريم عليهم . إذ قصد كل من الفريقين إظهار عظمتهم لممثل الطرف الآخر
والعمل على ترك أطيب الأثر في نفسه . وكان ذلك من الوسائل الفعالة في حل
المشاكل وتصفية الأحقاد . وخصصت الدولتان الأموية والبيزنطية مبالغ كبيرة
للأغراض الدبلوماسية .

فاجتهد معاوية منذ أن كان والياً على الشام في تخصيص مبالغ للانفاق على
استقبال السفراء وضيافتهم . فطلب من الخليفة عثمان بن عفان أن يترك له خراج
بعض أراض وضياع كان يرسل إلى بيت المال في الحجاز للنهوض بأعباء التمثيل
الدبلوماسي . فأجابه الخليفة إلى طلبه^(٢) ، وغدا معاوية ينعم بدخل واسع كان
أساس سياسته إزاء سفراء البيزنطيين بعد أن أصبح خليفة المساميين .

وعرف عن الدولة البيزنطية مبالغتها في انتقاء سفرائها إلى الدولة الإسلامية^(٣) ،
ولاسيما أنها كانت تسكن لها الهيبة والاحترام . إذ أرسلت إلى دمشق بعد انتهاء
حصار القسطنطينية المعروف بحرب السنوات السبع أحد رجالها الممتازين ويدعى
يوحنا . وكان هذا السفير مسناً حكماً لبقاً ، عولت الدولة البيزنطية عليه الشيء
الكثير في إنهاء حالة الحرب الطويلة المدى بينها وبين الأمويين .

وصل يوحنا إلى دمشق واستقبلته السلطات الأموية بالحفاوة والترحيب .

(١) ابن الفراء ، رسل الملوك ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ص ١٨٣ ؛ أنظر ص ٥٨ في الكتاب .

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

وعقد له مجلس كبير ضم كبار شخصيات البيت الأموي وعلية القوم من المسلمين .
واكتسب هذا السفير عطف معاوية لأنه حرص دائماً على إظهار احترامه للدولة
الاسلامية . واستطاع يوحنا أن يعقد صلحاً مع الدولة الاسلامية مداه ثلاثون
عاماً ، ثم عاد إلى القسطنطينية مزوداً بأطيب الأخبار عن عظمة البلاط الأموي
ونبل رجاله (١) .

وبلغ حرص الدولة البيزنطية على أن يكون سفراؤها إلى الدولة الاسلامية
عنواناً للخلق الرفيع مبلغاً كبيراً . فزودتهم بتعليمات مكتوبة تحضهم على التمسك
بمكارم الأخلاق ، وأداء رسالتهم بصدق وأمانة . إذ حدث أن توفي أحد السفراء
البيزنطيين الذين وفدوا إلى دمشق على عهد معاوية ، فوجد في جيبه « لوح
ذهب مكتوب فيه حفرأ : إذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، وإذا مات الاعتصام
عاش الانتقام ، وإذا ظهرت الخيانات قلت البركات » (٢) . وتمهض هذه الحادثة
دليلاً على ما كانت الدولة البيزنطية تعلقه من آمال على سفرائها ، وتذكيرهم
دائماً بسمو الرسالة التي ينهضون بأعبائها .

وكان يتوقف على السفير إلى حد كبير تنفيذ أغراض دولته ورفع شأنها . ومن
ثم كان تمسكه بالعفة النصيحة الأولى التي يزوده بها صاحب الأمر في الدولة .
إذ كثيراً ما جهدت السلطات في البلاد التي يذهب إليها السفير في اجتذابه إلى
جانبا لكشف سره أو تخفيف الشروط التي يحمها . وكان ذلك يتطلب معرفة
بأحوال السفير ودراسة شخصيته . إذ حدث أن أرسل معاوية أحد سفرائه إلى
القسطنطينية لآبرام هدنة مع السلطات البيزنطية . وكان هذا السفير مزوداً
بتعليمات مشددة تقضى ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين . ولكن
لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية ، وتهاون في عقد الهدنة حتى جاءت

(١) Bury, op cit, 312

(٢) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٤ .

في صالح البيزنطيين^(١). ولما عاد السفير عزله معاوية عن تولى مناصب الدولة ، وأثبت أنه يقف بالمرصاد لتصرفات سفرائه .

واشتهر من سفراء الأمويين إلى بلاط القسطنطينية العالم الفقيه عامر بن شراحيل الشعبي . إذ بعثه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى امبراطور الدولة البيزنطية في رسالة خاصة . وقد استطاع الشعبي أن يثبت علو كعبه في ميدان الدبلوماسية الاسلامية ورفع شأن دولته . اذ دخل في مناقشات مع السلطات البيزنطية جعلته موضع احترامها وإجلالها . فأقبل عليه الامبراطور بحادثه وسأله عدة أسئلة أجاب عليها الشعبي إجابات رائعة حازت إعجاب الامبراطور . وظفت السلطات البيزنطية أن الشعبي من أبناء البيت الأموي لنبل تصرفاته واطلاعه الواسع . وقد حسد الامبراطور البيزنطي الخليفة عبد الملك على هذا الرسول الحاذق^(٢) ، وعمد الى الوشاية بينهما ، لكن فطن الخليفة الى حيلة الإمبراطور وازداد تمسكا ورعاية بالشعبي .^(٣)

وتعددت أغراض المهام التي أوفد من أجلها السفراء الأمويون والبيزنطيون ، ولكن كان أبرزها محاولة إنهاء حالة حرب أو الابقاء على فترات المسلم أطول مدة ممكنة ، إذ يلاحظ أن العصر الأموي حفل بالحروب المستمرة تقريبا بين المسلمين والبيزنطيين وتبادل الإغارات الخربة بينهما لا على أنه لم تقم سفارات كبرى بين الدولتين الأموية والبيزنطية لتبادل الأسرى (الفداء) على نحو ما حفل به العصر العباسي فيما بعد ، رغم اتساع دائرة الحروب في العصر الأموي ، وما يتبع ذلك من ازدياد عدد الأسرى الذين يتردون من الطرفين . فلا توجد في المراجع إلا إشارات عابرة عن اتصالات دبلوماسية لإطلاق سراح بعض الشخصيات

(١) ابن مطاطبا ، الفخرى ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ص ١٣ .

الكبرى من رجال الدولتين ، واقتصر الفداء على حالات فردية^(١) . وكثيراً ما استهدف المسلمون والبيزنطيون من تبادل كبار الأسرى التديل على حسن النية أو الإسراع في عقد معاهدة أو هدنة .

وعلى أن هناك سفارات دبلوماسية لم تخل من طرافه في نوع المهمة التي تقوم بها . إذ كان بعض السفراء يحملون كتباً فيها مداورات ومحاجاة على نحو ما يفعل بعض رجال الدبلوماسية في الوقت الحاضر . وكان الهدف من هذه السفارات النبيل من أولى الأمر في البلاد أو وصف بعض أعمالهم بالسفه^(٢) . وتجلي هذا النوع من الرسائل حين أخذ الوليد كنييسة دمشق وحوها إلى المسجد الأموي ، إذ كتب إليه إمبراطور الدولة البيزنطية « إنك هدمت الكنييسة التي رأى أبوك تركها ، فإن كان حقاً فقد خالفت أبك ، وإن كان باطلاً فقد أخطأ أبوك^(٣) . » فلما وصلت الرسالة إلى الوليد رأى ما فيها من مغالطة ، وعقد مجلساً من العلماء وقرأ عليهم الرسالة وشاورهم في طريقة الإجابة عليها . وإستطاع الفرزدق الشاعر أن يأتي بأحسن الآراء . إذ أشار على الخليفة أن يرد على الإمبراطور بقصة سليمان وداود الذين تعرضا للقضاء في إحدى المشاكل ، وأبدى فيها كل منهما رأياً دون أن يختلفا معاً . واستشهد الوليد في رسالته بالآية القرآنية « وداود وسليمان ، إذ يحكمان في الحرب ، إذ نفشت فيه غم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آثينا حكماً وعلماً . »^(٤)

ومهما يسكن من أغراض السفارات الأموية البيزنطية فإن الجانب الذي راعاه الطرفان دائماً هو وضع برنامج خاص لضيافة السفراء والترفيه عنهم . إذ كانت السفارة تضم بعض شخصيات كبيرة يجب إعطاءهم صورة حسنة عن

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٤١ .

(٣) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٤١ .

(٤) ابن عساكر ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

الأماكن التي يذهبون إليها . وكانت المبالغة في إكرام السفراء أمراً حرص عليه الأمويون والبيزنطيون ، ولا سيما أنهما تبادلا الهدايا أحياناً^(١) . فكان ركب السفارة يصل محملاً بالهدايا النادرة لأولى الأمر في البلاد وغيرهم من كبار رجالاتهم . وفي العاصمة يستقبلهم عامل خاص يلقيهم الآداب والتقاليد التي يجب أن تراعى عند مقابلة صاحب البلاد^(٢) .

وخصصت دور ينزل بها السفراء طوال الفترة التي يقضونها في العاصمة^(٣) . وحرصت السلطات الأموية على مراقبة السفراء البيزنطيين حين يفدون إلى دمشق دون أن تشعرهم بذلك . إذ كثيراً ما كان السفراء البيزنطيون يفدون في تلك الفترة المبكرة من الاتصال السياسي بين الدولتين للتجسس ، والوقوف على مبلغ استعدادات الأمويين الحربية . وفي أمثلة ذلك السفارة التي أرسلتها الدولة البيزنطية أثناء استعداد الخليفة الوليد لحصار القسطنطينية ، وهو الحصار الأخير لها — زمن سليمان^(٤) . وكانت الدولة البيزنطية تفرد دوراً مخصوصة ينزل بها السفراء المسلمون عندما يأتون إلى القسطنطينية ، وتهتم بضيافتهم ورعاية مطالبهم .

وكان من المرافق التي يحرص الأمويون على عرضها للسفراء البيزنطيين قصورهم وروائع مساجدهم ، وكثيراً ما استمع الخلفاء الأمويون للملاحظات التي كان السفراء يبديونها ويأخذون بها إذا كانت حسنة مقبولة . ذلك أنه وفد على معاوية رسول بيزنطي بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء ،

(١) إكرام السفراء عادة قديمة ترجع إلى عهد الرسول الكريم ؛ إذ جاءه سفير من الدولة البيزنطية نال كافة الأكرام . فقد قال الرسول (ص) للسفير البيزنطي « إنك رسول قومك ، وإن لك حقاً ، ولكن جئتنا ونحن مرملون . فقال عثمان بن عفان ، أنا أكسوة حلة صفورية ، وقال رجل من الأنصار على ضيافته » .

(٢) Runciman, op cit, 157.

(٣) Hamidullah, Muslim Conduct of State, 139.

(٤) انظر الكتاب ص ١٨٤

والذي أصبح فيما بعد دار الإمارة . وكان القصر مبنياً بالطوب ، فلما شاهدته السفير البيزنطي أبدى عليه بعض الملاحظات ، ورواها حين سأله معاوية « كيف ترى هذا البنيان ؟ » فرد السفير قائلاً « أما أعلاه فللعصافير ، وأما أسفله فللغار » . وأدرك معاوية صحة انتقاد السفير ، وأعاد بناء قصره من الحجارة ، مما جعله رائعاً صالحاً للبقاء طويلاً (١) .

وحرص الخلفاء الأمويون كذلك على جعل سفراء الدولة البيزنطية يشعرون بعظمة العمارة الإسلامية ، ولا سيما في مساجدهم . فكان الجامع الأموي بدمشق قبلة أنظار السفراء ، يطلبون مشاهدته والتمتع بما فيه من روعة البقاء . ولم يستطع بعض السفراء البيزنطيين إخفاء ما دخل قلوبهم من هيبة وروعة عند مشاهدة الجامع الأموي .

وتجلى نجاح الأمويين في أهدافهم عند ما وفدت سفارة بيزنطية من عشرة رجال إلى دمشق زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز . إذ عهد الخليفة إلى عشرة رجال مسلمين ممن يعرفون اللغة اليونانية بمصاحبة أفراد هذه السفارة دون أن يطلعوهم أنهم يعرفون اللغة اليونانية ، ثم كلفهم أن يدونوا له ما يبدوونه من ملاحظات . ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الأموي وأخذت تنفرس في روائعه الفنية خر رئيسها مغشياً عليه ، فحمل إلى منزل الضيافة ، ولما أفاق سأله رفاقه عما حل به فجأه ، إذ كان طوال الطريق موفور الصحة والعافية . فقالوا له « ما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد ؟ فقال ، إنا معشر أهل رومية (أي القسطنطينية) نتحدث أن بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيلقونها ، فلذلك أصابني ما أصابني » (٢) .

(١) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن عساکر ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٢١٠ .

وكانت الدولة البيزنطية بدورها تعرض علي السفراء المسلمين روائع عاصمتها وما بها من مباحج . فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفراء لرؤية كنيسة أياصوفيا وقناطر المياة والأديرة القائمة حول القسطنطينية ، والحفلات الرياضية التي كانت تقام في الملعب (Hippodrome)^(١) . وأعجب السفراء المسلمون بنواحي النشاط في الملعب ، حيث كان المتنافس لسائر مباحج سكان العاصمة . وكان سباق العربات أهم لون في الاستعراضات التي تقوم في الميدان ، وفي الفترة التي تتخلل سباق العربات كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات . فمنهم من يمشي على الحبل ، ومنهم من يضع عموداً على جبهته ويتسلقه الأطفال .

وكان الامبراطور وكبار رجال دولته يحضرون مع السفراء أحياناً لمشاهدة الألعاب في الميدان ، وكانت لهم مقاصير خاصة . وعندما يدخل الإمبراطور مقصورته ويرفع غطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك اللعب . وقام بالقرب من الميدان دار البلاط ، التي كان ينزل بها السفراء ، وكبار رجال الأسرى من المسلمين . وهذه الدار بنيت منذ أيام الخليفة عبدالملك ، وروى أحد الكتاب المتأخرين سبب بناء هذه الدار قائلاً : « اعلم أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصرة في الميدان ، ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاوده ، فأجابه إلى ذلك ... ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه في إجراء وتعاهد وتنزه »^(٢) .

وخلف لنا الرحالة المسلمون فيما بعد صوراً عن مشاهداتهم في الملعب

(١) Runciman, op cit, 157, 158.

(٢) المقدس ، أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ .

البيزنطى^(١)، مما ينهض دليلا على حسن السياسة الدبلوماسية التي وضعها الأمويون ، والتي نعم خلفاؤهم بها ، وساروا على هديها فيما بعد . اذ ترعرعت نواة التمثيل الدبلوماسى التي وضعها الأمويون مع الدولة البيزنطية على عهد العباسيين ، وحفلت المراجع الإسلامية والبيزنطية بشتى الصور عن مظاهر هذا التبادل السياسى .

(١) ذكر ابن رسته ، فى كتابه الأعلام النفسية ، ص ١٢٠ ، وصفا للملعب عند البيزنطيين فيما يلى : —

« فى وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر ، وإلى جانبه موضع يقال له البديرون (وهو Hippodrome) ، وهو يشبه الميدان يجتمع إليه فيه البطارقة ، فيشرف عليهم الملك من قصره وفى وسط المدينة . وعلى غربى الميدان .. بابان ، يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل . وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجة بالذهب ، ويتركها تجرى .. حتى تخرج من تلك الأبواب ، .. فأياها سبق صاحبها ، ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان » .

السياسة الدينية

أظهر الاتصال الدبلوماسي بين الأمويين البيزنطيين احترام الفريقين لشعائر ديانتيهما ، واتخاذ كل منهما سياسة خاصة في المسائل الدينية التي تعرض لها . فسارت الدولة الأموية على سياسة معاملة أهل الذمة من رعاياها بالحسنى ، وفق تعاليم الدين الإسلامي السامية . وكان أهل الذمة يكونون إحدى الطبقات الأربعة التي انقسم إليها المجتمع الأموي ؛ إذ وجد إلى جانبهم طبقة العرب المسلمين الذين قاموا بالفتوحات وقبضوا على أزمة الحكم في الدولة الإسلامية ، ومن هذه الطبقة الأمويون الذين أخذوا أعنة السلطان في يدهم . ثم هناك الموالى من أهالى الولايات الذين اعتنقوا الإسلام وأخيراً طبقة الرقيق . وكان المسيحيون خاصة هم حلقة الاتصال بين الأمويين والبيزنطيين وحجر الزاوية في سياستيهما الدينية .

• مطلباً واشتهر عن الدولة الأموية حسن معاملتها للمسيحيين حتى وصل كثير منهم إلى مراتب عالية في الإدارة الإسلامية . وكان لهذه السياسة أثر كبير في استقرار أوضاع الدولة الإسلامية في هذه الفترة المبكرة من تاريخها السياسي ، وسد الثغرات التي حاول البيزنطيون النفاذ منها إلى أرض الإسلام . إذ اتجهت الدولة البيزنطية إلى تغيير سياستها بعد ظهور الإسلام بما يحقق أغراضها ، فالمعروف أنها كانت من قبل تعامل رعاياها من أصحاب المذاهب لدينية المخالفة لمذهبها الرسمي معاملة قاسية وتعتبرهم « هراطقة » خارجين على قوانين الدولة ويستحقون أشد ألوان التعذيب .

وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين في التبعية لها اتجهت الامبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها ، بحيث جعلت من نفسها صاحبة الحق في رعاية المسيحيين في بلاد المسامين والدفاع عن مصالحهم . وعمد

البيزنطيون بهذه السياسة الجديدة وضع العراقيين أمام دولة المسلمين الغتية ، ولا سيما في الجهات التي لم تستقر فيها أقدامهم تماما . وتجلت هذه السياسة مع البربر المسيحيين بشمال إفريقيا ، ومحاولة ضمهم إلى جانبهم في صد التقدم الإسلامي على بلادهم . ولكن المسيحيين لقوا كل عناية وتكريم من المسلمين ولا سيما من الأمويين حكام الدولة الإسلامية .

وأظهر معاوية مؤسس الدولة الأموية كل مودة وتقدير للمسيحيين بالشام . فزوج بامرأة مسيحية من قبيلة كلب وتدعى ميسون . وكانت زوجته على المذهب اليعقوبي الذي اضطهدت الدولة البيزنطية من قبل أنصاره ومعتنقيه . وارتفع شأن ميسون ولا سيما أنها أنجبت لمعاوية ولي عهده يزيد . فكانت تحمل ابنها إلى مضارب قبيلتها حيث يندمج مع أقاربه من المسيحيين ، وأثبت بنو كلب أنهم أوفياء مخلصون للبيت الأموي ^(١) .

وشب يزيد وسط أصدقاء من المسيحيين . فكان من أعز أصدقاءه في أيام شبابه يوحنا الدمشقي . وكان هذا الصديق المسيحي حفيد منصور بن سرجيوس الذي تولى منصب المشرف المالي لمدينة دمشق أواخر العصر البيزنطي ، ونصب معاوية والد يوحنا على إدارة الشؤون المالية ^(٢) . وظل يوحنا الدمشقي يتمتع بحرية عقيدته في ظل خلفاء بني أمية حتى أنه غدا من أقطاب المسيحية وفضاحلها المدافعين عنها والمهتمين بمشاكلها . وقد خلف يوحنا أباه كذلك في الاشراف على إدارة مالية دمشق . وظل هذا المنصب المالي حكراً على أسرة سرجيوس حتى عهد الوليد وتعريب الدواوين ^(٣) .

وكان الأخطل شاعر القصر الأموي مسيحياً ، إذ كان ينتمي إلى عرب

Hitti, Hisrory of Syria, 424 440 ; (١)

Lammens, Le Règne du Calife Mo'awia 286.

Htti, op cit, 440, 499 (٢)

(٣) بروكلمان ، نفس المرجع ، ص ١٦٨ .

تغلب النصارى الذين أقاموا في الحيرة . وكان الأخطل نديماً ليزيد كذلك
وصديقا ليوحنا أيضا . ودأب الأخطل على دخول قصر الخليفة وقد تدلى من
عنقه الصليب ، ويلقى قصائده التي نالت إعجاب الخليفة ومن حوله . وبلغ التسامح
الدينى أقصاه فى السماح للأخطل المسيحى بالتدخل فى المنافسات التى كانت
سائدة بين عرب الشام المسلمين ^(١) . إذ ظهر على عهد الأمويين الشعر السياسى
الذى يمجّد الأمويين ويشيد بأعمالهم ، ونظم الأخطل القصائد فى مدح البيت
الأموي .

واستخدم الأمويون أطباء مسيحيين . حتى كان أطباء الخلفاء منهم .
فكان طبيب معاوية مسيحي يدعى ابن أنال . وقد نصبه معاوية مديراً مالياً
لمقاطعة حمص ، وهى وظيفة لم يسبق أن شغلها مسيحي فى الدولة الأموية ^(٢) .
إذ كانت الوظائف التى تولاها المسيحيون على عهد الأمويين هى المناصب التى
كانوا يشغلونها من قبل ، واحتفظت السلطات الاسلامية بها لهم . ولكن جاء
تعيين معاوية لابن أنال على شئون مالية حمص دليلاً على ما تتمتع به المسيحيون
من عطف ورعاية .

وكان يطيب لمعاوية أن يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة
ويستمع إلى جدلهم الدينى ومناقشاتهم المختلفة . وذخرت الكتب التى وضعها
المسيحيون الأول بصور متعددة للمجالس التى عقدها المسيحيون من رعايا الدولة
الأموية بحضرة الخليفة ، وهى تنطق بألوان التسامح الدينى وسمو الإسلام .
وأشادت المراجع البيزنطية كذلك بما أثار عن معاوية من عطف على المسيحيين ،
إذ تشير إلى أن معاوية سمح للمسيحيين بإعادة كنيسة الرها سنة ٦٧٨ م ، وكانت
قد تحطمت بفعل أحد الزلازل ^(٣) .

Lammens, op cit, 383 (١)

(٢) حتى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

Bury, op cit, II, 413 (٣)

وقد حفظ المسيحيون لمعاوية وآله هذا التسامح الديني وما نالوه على أيديهم من عطف وتكريم . فأخلصوا للبيت الأموي ، وتفانوا في تأدية ما عهد إليهم أداءه من أعمال . فاستطاع الأمويون أن ينهضوا بأعباء إدارة شؤون دولة الإسلام على أحسن الوجوه وخيرها . ومن ناحية أخرى سجل المسيحيون فيما وضعوه من مؤلفات فضائل البيت الأموي وأشادوا به بما يعلى من شأنه .

وتردد صدق المعاملة الطيبة التي لقيها المسيحيون في الدولة البيزنطية ، إذ رأت السلطات بها أن من الأجدى الاعتراف بفضائل المسلمين ورعاية شعائرهم من يفد منهم إلى بلادها . وكان معظم الزائر المسلمين لبلاط القسطنطينية من السفراء ، فضلاً عن الأسرى المسلمين . وتجلّى احترام الدولة البيزنطية لشعائر المسلمين الدينية أن بنت بالقسطنطينية مسجداً يؤدون فيه طقوسهم حين حضورهم إلى العاصمة .
وتنسب الروايات بناء هذا الجامع إلى عهد الامبراطور ليو الثالث^(١) الذي قاوم الحصار الأموي الثالث على القسطنطينية . إذ أدرك هذا الامبراطور أن من الأجدى كسب مودة المسلمين باحترام شعائرهم الدينية ولا سيما أنه عرف سمو معاملاتهم للمسيحيين في بلادهم .

وكان الامبراطور ليو نفسه قد نشأ في جو إسلامي وتأثر بتقاليدهم . إذ هو من مدينة مرعش في منطقة التخوم الإسلامية البيزنطية ، وكان يجيد العربية إجادته للغة اليونانية ، وقد نهج ليو على سياسة دينية إزاء رعاياه كان لها صدق في الدولة الأموية ، وجاءت دليلاً على ما اتصفت به الدولة الإسلامية من تسامح إزاء حرية العقيدة للمسيحيين . إذ رأى الامبراطور أن عبادة الإيقونات ، أي الصور المقدسة والتماثيل التي تصور العذراء والقديسين غدت ظاهرة متفشية بين رعاياه ، وصمم على وضع حد لهذه الظاهرة ، وشن حملة شعواء على أنصارها . وتعرف سياسة الامبراطور ليو في التاريخ البيزنطي باسم الحركة اللايقونية ، أي الحركة

(١) المقدس ، نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

المناهضة للصور والتماثيل المقدسة وعبادتها ، وإصلاح الحالة الدينية وتطهيرها من الماديات ^(١) .

أصدر الامبراطور ليو الثالث سنة ٧٢٦ م مرسوماً يطلب فيه من القائم على شؤون البيوت الدينية والأديرة رفع الصور المقدسة إلى أماكن عالية ^(٢) حتى يقلع الناس تدريجياً عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين مبتهلين ^(٣) . وأدى هذا المرسوم المعتدل الى فتنة شديدة بالقسطنطينية ، مما يدل على أن الإيقونات كانت تحتل ركناً أساسياً من اعتقادات الناس ، غير أن الامبراطور رأى عدم التخاذل أمام ثورة شعبية لا تقوم على أساس . وإنما زادت الفتنة عزمًا ، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيلت بمقتضاه التماثيل والصور المقدسة الموجودة في الكنائس وغيرها ^(٤) .

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجة عالية في القسطنطينية امتدت آثارها إلى خارج العاصمة ، إذ ناهض معظم رجال الدين السياسة اللا إيقونية التي فرضها الامبراطور ليو ، وتذرعوا بأن بقاء الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى أذهان الناس . وظهر من طبقة رجال الدين أحد فطاحل علماء المسيحية المقيم في أرض الدولة الأموية وهو يوحنا الدمشقي ؛ إذ عارض يوحنا سياسة الامبراطور ليو اللا إيقونية ، وكتب في ظل الخلافة الأموية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعاً عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها . إذ قال إن ما يعبد هو الشخص الذي تمثله الصورة لإمادة الصورة نفسها ^(٥) .

واشتد الجدل والنزاع حول مسألة الإيقونات ، فاتهم ليو بأن سبب حملته هو محاولته التقرب من الدولة الاسلامية ، ووصفه بعض المراجع بأنه « ذو عقلية

(1) Bury, op cit II, 428,429.

(2) Vasiliev, L'Empire Byzantin I, 339, 340.

(3) Ibid, 232.

(4) Ibid, 342. 343.

(5) Hitti, op cit. 501

عربية « . وكانت الدولة الإسلامية قد بدأت منذ ثلاث سنوات ، قبل مرسوم
ليو بإزالة الأيقونات — أى فى سنة ٧٢٣ م — ، بجرعة أشبه بما قام به الامبراطور
البيزنطى . إذ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م / ١٠٤ هـ ، بتعطيم
الصلبان فى كل مكان ، ومحو الصور والتماثيل من الكنائس فى جميع بلاد الدولة
الإسلامية ^(١) . ولكن السلطات الإسلامية لم تمنع رعاياها المسيحيين من الأدلاء
بآرائهم فى المسألة اللايقونية ، رغمًا عن أنها لم تقر عبادة الأيقونات فى أرضها
نفسها .

وهكذا احترمت الدولة الإسلامية وجهة نظر رعاياها المسيحيين ، ولم تكسرهم
على اتخاذ عقيدة معينة فى شؤونهم الدينية الخاصة . فلم تتعرض بأى أذى للقديس
يوحنا الدمشقى حين طاف بأنحاء الشام يناضل من أجل عبادة الصور المقدسة
ويدحض آراء المعادين لها . وبلغ من حماس يوحنا أنه خاطر بنفسه وزار بلاط
القسطنطينية ليدافع عن آراءه فى المشكلة اللايقونية ، ويعتبر يوحنا نموذجًا
لتسامح الإسلام ، إذ لم يكتف بالدفاع عن الأيقونات فحسب ، وإنما ألف ترانيم
لا يزال بعضها مستعملًا فى احتفالات الزواج البروتستانتية ، وتعد من أجل
ما وصل إليه شعراء الكنيسة المسيحيون من إجادة وروعة فى الأدب الكنسى .
وله فضلًا عن ذلك كتب دينية وأناشيد تجعله درة لامة فى جبين الكنيسة المسيحية
على عهد خلفاء بنى أمية ^(٢) .

ومن ثم اتصفت السياسة الدينية لسكل من الدولتين الأموية والبيزنطية
بالابتعاد عن التعصب المذهبي ، وما يؤدى ذلك من محاولة أنصار كل ديانة
القضاء على أتباع الديانة الأخرى . وهذا أمر فريد من نوعه فى تاريخ العصور
الوسطى عامة ، التى نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب .

(1) Byzantium 319.

(2) Hitti, op cit, 500, 501.

إذ عرف المسلمون على عهد بني أمية كيف يبهرون العالم المحيط بدولتهم بسمو
تعاليم دينهم ، واعتدادهم بسياستهم الدينية إزاء رعاياهم من المسيحيين وأهل
الكتاب عامة . وضربت الدولة الأموية بذلك المثل الأعلى على عظمة
الإسلام ، وابتعادهم عما وصم به البيزنطيون من قبل من عنت واضطهاد ديني
إزاء رعاياهم ، وإنزال أشد ألوان التعذيب بهم وكبت حرية عقيدتهم .

التراث الأموي في الحضارة الإسلامية

سقوط الدولة الأموية :

إهتم الخلفاء الأمويون اهتماماً كبيراً بالشطر الغربي من دولتهم المطل على البحر الأبيض المتوسط ، وسخروا ما به من مقومات وحضارات لخدمة المسلمين وببلادهم . واستطاع الأمويون بفضل هذه السياسة الوقوف وقفة الحارس الأمين المدافع عن أرض الإسلام ضد البيزنطيين ، وإعداد التربة في هدوء وأمان لتنبثق منها بذور الحضارة الإسلامية . وكان البيزنطيون طوال العصر الأموي يترقبون للدولة الإسلامية ويعملون على النيل منها كلما سنحت لهم الفرص . إذ كانت الغيرة تأكل قلوبهم لارتفاع صرح الدولة الإسلامية وعلو سلطانها في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

واستطاعت الدولة الأموية أن تتفرغ لجهتها الغربية وتدفع عدوان البيزنطيين باستمرار بفضل سلسلة من الولاة المخلصين ، تولوا تصريف شؤون الشطر الشرقي من الدولة الأموية . إذ نصب بنو أمية على إقليم العراق الذي كان مركز القسم الشرقي من الدولة الإسلامية عمالاً عرفوا بالحزم والثبات في أداء الواجب والإخلاص لعرشهم . فكان المغيرة بن شعبه وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي نماذج رائعة لهذا النوع من الولاة الأمويين في الشطر الشرقي من الدولة الأموية .

ويعزى إلى أولئك الولاة حسن إدارة إقليم العراق وما يتبعه من بلاد ، مما جعل الخلفاء الأمويين يطمئنون اطمئناناً تاماً إلى سير الأحوال على خير ما يرجى في رقعة بلادهم الشرقية . وظل العمال الأمويون في العراق وسائر البلاد الشرقية الإسلامية على الولاء لبني أمية في أخرج الفترات التي أخذت تجتازها

دولتهم بعد عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣ م) . إذ يعتد
حكم هذا الخليفة حـداً فاصلاً بين عهد ازدهار الدولة الأموية وعلو شأنها
وبين عهد اضمحلالها وانتشار العوامل الفتاكة في جسمها .

وخرجت معاول الهدم التي أطاحت بالدولة الأموية من القسم الشرقي من
بلادها ، واستغلت اضطراب الأحوال في القسم الغربي من الدولة وأزالت نهائياً
الأمويين عن عرش الخلافة الإسلامية . فبينما كرس الخلفاء الأمويون جهودهم
في صهر حضارات البحر الأبيض المتوسط وتحويلها لمنفعة الدولة الإسلامية كانت
أرض العراق وإيران تضطرب بحركات وراء ظهر الأمويين ، هدفها التخلص
من سلطانهم وإقصائهم عن الخلافة .

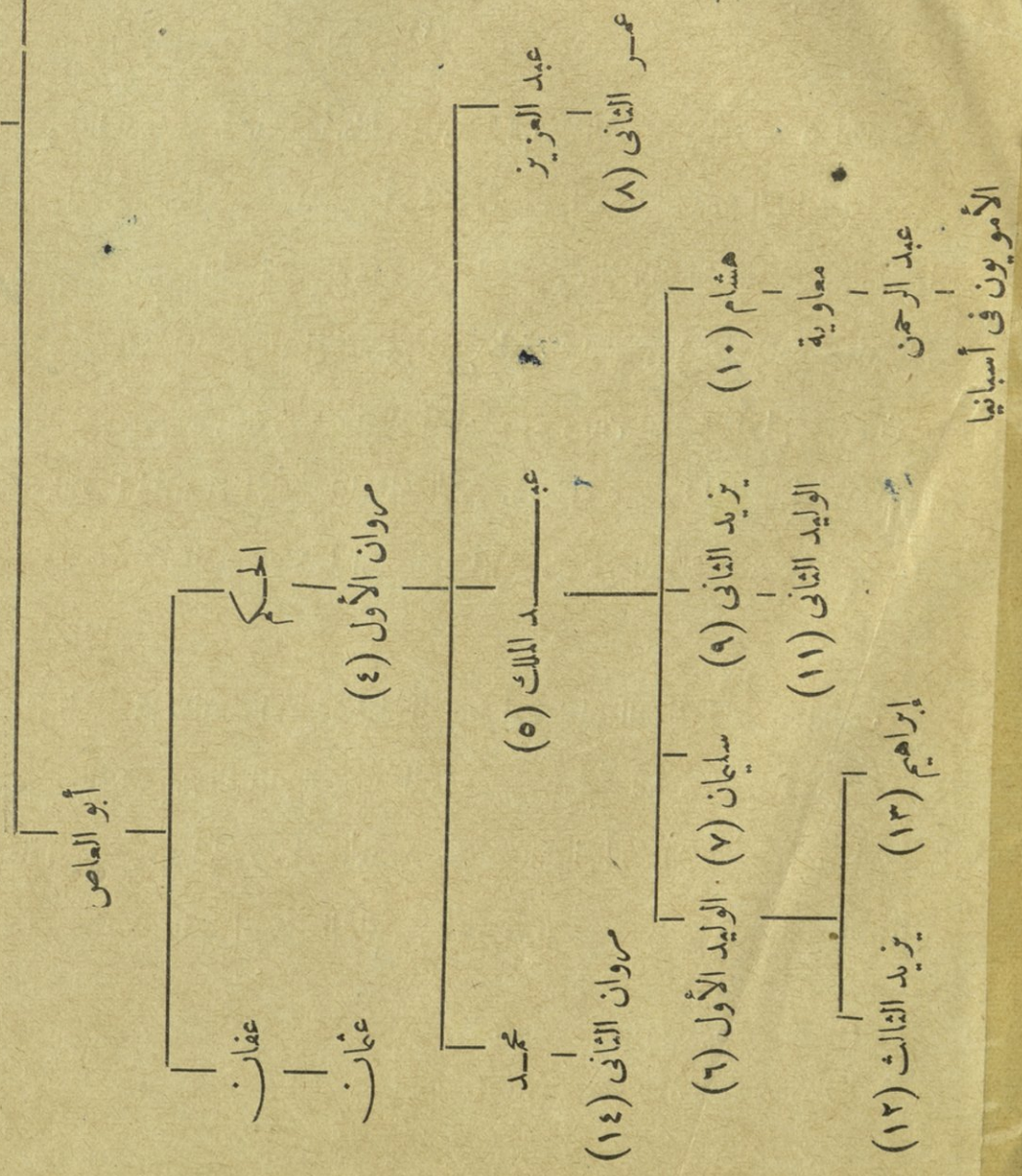
وقد بدأت عوامل الاضطراب تحدث أحداثها في أراضى الشطر الشرقي
من الدولة الأموية بعد حادثة كربلاء ومقتل الحسين بن علي بن أبي طالب
(٦١ هـ / ٦٨٠ م) . إذا اختار الشيعة أنصار علي بن أبي طالب وأولاده العراق
مقرأ لهم ، ونشروا هناك دعوتهم . والتف حولهم السواد الأعظم من أهل العراق
تسكيراً عن تخاذلهم في نصره الحسين^(١) . وكان سكان العراق يحقدون علي
أهل الشام علو ذكركم وقيام حاضرة الدولة الأموية في ديارهم . وظل الشيعة
يتربصون الدوائر بالأمويين ويعملون على الانتقام لما حل بهم هوان .

وساعد على انتشار روح التدمير في العراق ظهور حركة العباسيين ، التي عمل
أصحابها على انتزاع السلطة من أيدي بني أمية . إذ جهد العباسيون بما عرف
عنهم من الدهاء على احتضان الشيعة والاستفادة منهم في زلزلة دعائم الدولة
الأموية . ونجح العباسيون في تحقيق أهدافهم بأن مزجوا دعوتهم مع العلويين
بتظاهرهم بالمطالبة بحقوق آل البيت (البيت الهاشمي) . وكان الشيعة يعتقدون

(1) Nicholson, Literary History of the Arabs, 167, 198.

أمية

حرب
أبو سفيان
معاوية الأول (١)
يزيد الأول (٢)
معاوية الثاني (٣)



يزيد

أن المقصود بالدعاية سلالة علي بن أبي طالب ، وأنهم أحق الناس بالخلافة
سائر أفراد آل البيت .

وعرف العباسيون كيف يديرون الدعوة لأنفسهم ويزيدون عدد أتباعهم
وأنصارهم . فاتخذوا لأنفسهم حق الدفاع عن الدين الحق ، متهمين بني أمية
بمخروجهم على تعاليم الدين الاسلامي وعدم مساواتهم في المعاملة بين سائر المسلمين
المنضوين تحت رايتهم . وكان العباسيون يهدفون من ذلك كسب أهل فارس
الذين انتشرت بينهم دعاية الشيعة^(١) ، ولا سيما في منطقة خراسان في الشمال .
إذ كان سكان هذه الجهات يحقدون على الأمويين اعتزازهم بالعنجهية العربية
وتعاليمهم على رعاياهم من غير العرب^(٢) .

وغدا العباسيون بذلك أبطال المعارضة للبيت الأموي وقادة حركة المقاومة .
وأجادوا تدبير دعايتهم ضد بني أمية ، فتخيروا قرية صغيرة إلى الجنوب من
البحر الميت تدعى الحميمة وجعلوها مركزاً لهم . وتمتاز هذه القرية بحسن موقعها
وصلاحياتها لنشر الدعوة ، إذ تقع في ملتقى طرق تجارية وعلى طريق الحجاج إلى
مكة . ونجح العباسيون في إيجاد اتحاد بينهم وبين الشيعة وأهل خراسان ،
وكان ذلك إيذاناً بأفول نجم الخلافة الأموية . إذ عرف الخلف الجديد كيف
يستفيد من مظاهر الاضطراب التي انتشرت في الدولة الأموية بعد عهد
الخليفة هشام .

وكان أول مظاهر الاضمحلال التي طرأت على الدولة الأموية تجدد روح
التعصب القبلي بين القبائل العربية المنتشرة في أرجاء البلاد الاسلامية . إذ قام
الشقاق بين عرب الجنوب أي اليمنيين وعرب الشمال أي المضريين واشتد النزاع
بينهما . وانفجر الصراع في الشام مقر الخلافة الأموية بين قيس أشهر القبائل

(1) Browne, op cit, 130, 131.

(2) Nicholson, op cit, 280, 281.

المضرية وقبيلة كلب أشهر اليمنيين ، وفي خراسان والعراق تجدد النزاع بين تميم
أشهر قبائل عرب الشمال ، وبين الأزدية من عرب الجنوب .

ووقفت القبائل العربية وجها لوجه من عرب الشمال وعرب الجنوب في سائر
أرجاء الدولة الأموية . وأذكى نار التنافس بينهما أن الخلفاء المتأخرين من بني أمية
لم يستطيعوا حفظ التوازن بينها على نحو ما فعل معاوية من قبل ، وغيره من
الخلفاء الأقوياء . فقد أخذ كل خليفة أموي يحاجي بعض القبائل ويناصرها على
غيرها . وتطور النزاع بين القبائل إلى أنها غدت ساعد أسراء البيت الأموي
في الوصول إلى العرش . فكان الوليد الثاني يناصر القيسية ، على حين استطاع
يزيد الثالث أن يفتصب العرش منه بمساعدة اليمنيين ، الذين أصبحوا منذئذ
موضع رعايته . وغدا الخلفاء الأمويون بذلك رؤساء أحزاب خاصة ، لا خلفاء
للدولة الأموية المتحدة (١) .

وزاد هذه الاضطرابات سوءاً مبدأ ولاية العهد الذي وضعه الخلفاء الأمويون .
فكان نظام ولاية العهد غير ثابت أو مستقر الأوضاع ، إذ جرى شكلياً وفق
طريقة البيعة العامة دون أن يستطيع الخلفاء تقرير أسلوب خاص لولاية العهد بين
أبنائهم . ثم زاد هذه المشكلة تعقيداً السابقة الخطيرة التي سنها مروان بن الحكم
مؤسس الفرع المرواني ، إذ لم يكتف بتعيين ابنه ولياً لعهد ، وإنما عدد الأشخاص
الذين يخلقونه في ولاية العهد . ونجم عن ذلك أن كل خليفة يتولى العرش يعمل
جاهداً على إقصاء من عينه سلفه ويقصر ولاية العهد على ابنه فقط . وأصبحت
الخلافة تبعاً لذلك مسرحاً للدسائس في الفترة المتأخرة من عهد الدولة الأموية
وصرفت الخلفاء عن المشا كل الداخلية التي أخذت تعرقل مرافق الدولة وتشل
أدائها .

وكان الجوب بذلك ممهداً أمام التحالف المعادي لبني أمية ليضرب ضربه

(1) Hitti, op cit, 528, 529.

الأخيرة . وبدأت نهاية الأمويين سنة ٧٤٧ م عندما نشر أبو مسلم الخراساني ، أحد دعاة العباسيين ، العلم الأسود شعار العباسيين في خراسان ، التي أصبحت أولى البقاع التي رفعت راية العصيان على الأمويين . وأظهر عامل الأمويين في خراسان وهو نصر بن سيار ولاءه للبيت الأموي ، إذ أسرع بإرسال وصف للحالة في خراسان وطلب من الخليفة الأموي إذ ذاك وهو مروان الثاني (٧٤٤-١٧٥٠م) تدارك الثورة في خراسان . وكان مروان يتصف بالجلد الشديد في الحرب مما جعله يلقب بمروان الحمار ، واشتهر أيضاً ببراعته في فنون القتال حتى أنه يعزى إليه تدعيم نظام الكراديس ، وهي وحدات صغيرة شديدة التماسك ، وإزالة نظام الصفوف الذي كان مستعملاً من قبل .

ولم يستطع مروان رغم صفاته الشخصية أن ينقذ الموقف ، إذ كان منغمساً في إخماد فتنة ثارت بالشام وامتدت إلى فلسطين وحمص ، وأذكي نيرانها الطامعون في الخلافة . وزاد موقف مروان سوءاً أن ولاء أهل الشام بدأ يتحول عنه ، ذلك أن مروان ارتكب خطأ فاحشاً عندما نقل مقر حكمه وخزائنه إلى حران في العراق الأعلى . وكان أهل الشام يرون بقاء الخليفة في دمشق رمزاً لعظمتهم وشرطاً للتفاني في خدمته . وبذلك ذهبت صيحات نصر بن سيار سدى ، وغدا الطريق مفتوحاً أمام العباسيين لإكمال دعوتهم وحركاتهم ضد الأمويين .

ودخل أبو مسلم مرو عاصمة خراسان سنة ٧٤٧ م بمساعدة قبيلة الأزد اليمنية وفلاحى الفرس ، ثم تلا ذلك سقوط الكوفة أهم مدن العراق سنة ٧٤٩ م . وفي أكتوبر من نفس السنة أخذت البيعة العامة في مسجد الكوفة لأبي العباس ، ونودي به أول خليفة عباسي . وعندئذ أخذت راية الأمويين تتقهراً أمام علم العباسيين الأسود . وقد أفاق مروان الثاني لما دهمه من خطر ساحق بعد فوات الأوان . إذ صمم على صد الزحف العباسي ، والتوجه إلى العراق قبل وصول جيوش العباسيين إلى الشام .

وسار مروان على رأس قواته والتقى بجيوش العباسيين التي كانت تحت قيادة عبد الله بن علي ، عم الخليفة العباسي ، على الضفة اليسرى للزاب الكبير أحد فروع دجلة ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الجيوش الأموية وفرار مروان الثاني . وقد قررت معركة الزاب مصير إقليم الشام ، إذ دخل العباسيون هذا الإقليم في سهولة ويسر ما عدا مدينة دمشق ، إذ أبت هذه العاصمة أن تستسلم دون مقاومة . ولكن العباسيين حاصروا المدينة العاتية المتكبرة ، وضيقوا عليها الخناق حتى سلمت في إبريل سنة ٧٥٠ م ، بعد حصار دام أياماً قلائل .

أوبسقوط دمشق زالت دولة الأمويين عن مسرح التاريخ الإسلامي . وقد جهد مروان الثاني على القيام بمحاولة أخيرة لينقذ ما بقي له من سلطان^(١) . ولكن أعماله كانت كصحوة الموت وضر بأمن حب الحياة والتمسك بها . إذ تابع العباسيون زحفهم واستولوا على فلسطين ، ثم أرسلت فرق من الجيش لتتقب عروان الثاني في مصر . واستطاع العباسيون القبض على مروان الثاني في مدينة بوصير ، ووضعوا حداً لما كان يجيش في نفسه من أطماع بإعدامه ، وذلك في أغسطس سنة ٧٥٠ م .

وبدأ العباسيون بعد ذلك في استئصال أبناء البيت الأموي ، فأعملوا في أفراده القائمين بالشام القتل ليطيحوا بهم تماماً عن دائرة السلطان والنفوذ ، وليأمنوا حركات المقاومة التي قد يثيرونها ضد النظام الجديد . فبث العباسيون العيون والجواسيس في سائر أرجاء البلاد الإسلامية للقبض على الأمويين المختفين بها وقطع دابرهم . ولكن استطاع أحد أبناء البيت الأموي أن يحافظ على تراث

(١) كان مروان قد عقد النية على الرحيل إلى إحدى مدن الدولة البيزنطية ليستنجد بالامبراطور قسطنطين الخامس . ولكن بعض مشيرية الدين لم يتخلوا عنه في محنته أشاروا عليه بالإقلاع عن هذه الفكرة ونصحوه بالارتحال إلى مصر أو إفريقيا ، والتأهب هناك للدفاع عن ملكه واسترداده مرة أخرى . لكن سرعة الزحف العباسي قضت على هذه الفكرة في مهدها . وقد حقق عبد الرحمن الأموي هذه الفكرة حين استطاع الهرب إلى الأندلس .

آبائه وأجداده وأن يفر من حملة الاضطهاد والتقتيل التي قام بها العباسيون .
إذ استطاع حفيد هشام، الخليفة الأموي العاشر، ويدعى عبد الرحمن الخلاص من
يد العباسيين القوية ، ووصل إلى أرض الأندلس في أقصى أطراف الدولة
الإسلامية في الغرب وأسس لنفسه دولة هناك مستقلة عن الدولة العباسية .

التراب الأموي :

غربت شمس الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ولكن خلفت وراءها
دفئاً نعم به المسلمون قرناً طويلاً . إذ تولى الأمويون تدعيم دوحه الإسلام في حوض
البحر الأبيض المتوسط ، ووضع نواة حضارة المسلمين في تربة هذا البحر، الذي
شاهد الحضارات التي عرفها العالم القديم . ونجح الأمويون في الإغلاء من شأن
الإسلام والمسلمين باتجاههم صوب البحر الأبيض المتوسط ، الذي كان قطب
الرحى في الأحداث العالمية ومحط أنظار كل دولة كبرى تبغى لنفسها مقاما سامياً
وعظمة خالدة .

وكان الأمويون يتحلون بخلق سكان البحر الأبيض المتوسط ، وهو بعد النظر
وما يتبعه من الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له ، والمقدرة على إيجاد روح التعاون
والترباط وما يتطلبه ذلك من مشاورة وعزم صادق . وتجلت هذه الصفات التي
فطرت عليها نفوس بني أمية منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وتمسك
بها سائر آل بينته الذين تداولوا عرش الخلافة حتى زوالها عنهم . فأدرك معاوية
أن البحر الأبيض المتوسط هو الميدان الجدير بأن تتجه إليه قوى المسلمين لإغراز
دولتهم الناشئة وحمايتها من الأخطار المفاجئة .

ورسم معاوية خلفائه السياسة التي كفلت للمسلمين ودولتهم العزة والمنعة،
وحققت لهم السيادة على غيرهم من الأقوام المجاورة لدولتهم . فكرس الأمويون
جهودهم لخلق بحرية إسلامية قوية دفعت عن أرض الإسلام أخطار البيزنطيين ،

العدو اللدود ، ومكنت المسلمين من التوسع على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والاستيلاء على شمال إفريقيا . ولذا ما أن ظهر العباسيون ونقلوا حاضرتهم إلى بغداد حتى سارت البلاد الإسلامية في غرب الدولة على تراث القوة البحرية التي خلفها الأمويون في تلك الجهات (١) .

وهكذا حافظ الأمويون على الفتوحات والمجهورات التي بدأها الخلفاء الراشدون ، ثم تابعوا في نشاط رائع بسط رقعة الإسلام ولا سيما في حوض البحر الأبيض المتوسط . فغدت شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية أراض إسلامية فضلاً عن شواطئ الأندلس . ولم يكتف الأمويون بهذا السلطان الواسع ، وإنما بدأوا خطوة جعلت من البلاد التي وصل إليها الإسلام وحدة وثيقة العرى لانقسام لها معها تعاقبت الأزمان والأجيال . إذ بدأ عبد الملك بن مروان صيغ الدولة الإسلامية على عهده بالصيغة العربية ، وتابع ابنه الوليد سياسة تعريب مرافق البلاد حتى ظهر رباط اللغة العربية رويداً ، وبدأ يحيط أرض الإسلام بسياج قوى متين .

ووضع الأمويون بذلك أسس الثقافة العربية التي ألقت بين قلوب المسلمين في سائر البلاد وقربت من عقلياتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم . فبعد أن قويت جذور اللغة العربية في سائر أنحاء الدولة الإسلامية غدا المسلم الذي يرتحل من أى بلد يجد في المسكن الذي ينزل به إخوة له في الدين يستطيع أن يتفاهم معهم بلغة واحدة . ولذا نعم الرحالة المسلمون على عهد الدولة العباسية ببذور اللغة العربية التي غرسها بنو أمية في سائر البلاد التي استظلت على عهدهم براية الإسلام .

وخلف لنا أولئك الرحالة صوراً صادقة عن أحوال العالم الإسلامي ، من طبيعة بلاده الجغرافية ومزاج سكانه وتقاليدهم وطرق كسب معاشهم ، وذلك بفضل اللغة العربية التي أصبحت وسيلة التخاطب ، وهيأت للرحالة المسلمين سبيل الدراسة الصحيحة لسائر مظاهر الحياة في البلاد الإسلامية . ولا أدل على قوة رباط اللغة

(١) تناول الدكتور حسين مؤنس في محاضرات الجمعية الملكية للدراسات التاريخية (مارس ١٩٥٣) بيان هذه المظاهر السالفة ، ومدى ما كان للأمويين من نشاط عظيم في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

العربية من أنها غدت إلى جانب رباط الدين الاسلامي المظهر الذي أبقى على وحدة المسلمين في شتى أنحاء البلاد ، بعد أن زالت الوحدة السياسية بينهم وغدوا شعوبا وأقواما شتى . وما زال هذا المظهر الثقافي الذي وضع الأمويون نواته الأولى يلعب دوراً كبيراً في خلق لون من الوحدة السياسية بين دول المسلمين التي ظهرت على مر العصور حتى الوقت الحاضر .

وقد ترك الأمويون نموذجاً يتفق والعصر الذي نشأوا به عن ضم صفوف المسلمين سياسياً وتوجيههم ضد أي عدو يدهم أرضهم عامة . فكان أمام الدولة الأموية مهمة إعداد المسلمين لمحاربة البيزنطيين وصد عدوانهم المتكرر . ونجح الأمويون في تنسيق قوى مصر وشمال إفريقيا وأرض العراق مع القوات المركزية بالشام في الحملات الإسلامية الثلاثة التي حاصرت القسطنطينية . فكانت أساطيل مصر وشمال إفريقيا تتخذ قواعد لها في موانئ الشام ، على حين يتجمع العمال الأقباط من مصر في أرض الشام للمساهمة في الأعمال الحربية حسب ما تحتاجه السلطات الأموية .

وظل التعاون الحربي الذي حققه الخلفاء الأمويون بين بلاد الدولة الإسلامية المنهاج الذي جهد خلفاء الدولة العباسية على السير على هدية . وتفاوت قادة الدولة الإسلامية فيما بعد في المحافظة على هذا التآزر والتضامن باختلاف الملامح والأوضاع الزمنية . وبقدر نجاح أولى الأمر في البلاد الإسلامية في إيجاد ضرب من التعاون الحربي بين بعضهم بعضاً بقدر ما كتب لهم من فوز واستقرار . فجهدت الدولة العباسية في عصرها الزاهر على إبقاء التعاون البحري بين مصر والشام وشمال إفريقيا . إذ أن الدولة البيزنطية جهدت على الإغارة على سواحل المسلمين المطللة على البحر الأبيض المتوسط والاستفادة من ابتعاد بغداد عن هذا البحر .

وهكذا استطاع العباسيون بفضل الخطة البحرية التي آلت إليهم عن بني أمية الدفاع عن دولتهم وحمايتها من أخطار البيزنطيين . ولكن الدولة العباسية لم تلبث أن تعرضت للتفكك السياسي ، وتفتتت فيها ظاهرة استقلال الولاة بما يديرونه من بلاد خلال العصر العباسي الثاني (منذ ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) ومن

ثم ضعفت الروابط بين الحكام الجدد ، وغدا التعاون بينهما قاصراً على ما يمكن أن يحصل عليه كل منهما من عقد تحالف أو تضامن .

وقد تجنب الأمويون المصير الذي تردت فيه الدولة العباسية ، ولا سيما تفككها في أواخر أيامها ، بانتقاء العمال والولاة الذين تولوا تصريف شئون البلاد الإسلامية . إذ كان العمال الأمويون نموذجاً عالياً للطاعة والإخلاص ، فلم يفكراً أحدهم في الخروج على السلطة المركزية بدمشق أو الانفصال عن جسم الدولة في الأزمات التي تعرضت لها . إذ كان أولئك العمال أشبه بقناصل الدولة الرومانية وحكام الدولة البيزنطية على الأقاليم المختلفة . فاتصف عمال بني أمية كما اتصف أسلافهم من قناصل الرومان والبيزنطيين باحترام السلطة المركزية وتنفيذ أوامرها دون تردد أو إهمال .

وتجلت الظاهرة السالفة طوال العصر الأموي حتى نهايته . فكان الحجاج بن يوسف الثقفي مثلاً جندياً كرس نفسه لخدمة البيت الأموي دون اعتبار للوسائل التي تدرع بها لتحقيق هذا الهدف . إذ أخذ ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز في غير هوادة أولين ، وبعد أن فرغ منها امتثل لأمر الخليفة عبد الملك بن مروان وانتقل إلى إقليم العراق حيث تولى نشر الهدوء والاستقرار في ربوعه . ولم يظهر الحجاج ضجراً في نقله من ميدان إلى ميدان ، وإنما ظل عاملاً مخلصاً أميناً . فكان يبعث إلى دمشق خيرة الشعراء والعلماء الذين علا كعبهم في إقليم العراق ، واستفاد الخليفة عبد الملك من بعض هؤلاء العلماء مثل عاصم بن سراحيل الشعبي الذي أوفده سفيراً إلى بلاط الدولة البيزنطية .

وكان موسى بن نصير عامل الأمويين على شمال إفريقيا مثلاً آخر لطاعة الولاة للسلطة المركزية . فبعد أن أتم موسى إخضاع شمال إفريقيا وقطع شوطاً كبيراً في فتح الأندلس استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق . ورغم أن الموقف الحربي في بلاد الأندلس كان يستدعي بقاء موسى بن نصير واستمراره في عملية الفتح فإنه أسرع بالذهاب إلى العاصمة في الشام ومعه كثير من الهدايا والتحف للخليفة . واستهدف الوليد من استدعاء موسى خوفه من اتساع نفوذه ، ولكن

موسى ظل خاضعاً لمشيئة بنى أمية ، ولا سيما بعد أن منعه سليمان ، خليفة الوليد من العودة إلى مقر ولايته بالمغرب .

وإذا كان الحجاج وموسى بن نصير نموذجين لارتباط العمال الأمويين بالخلفاء في دمشق إبان مجد الدولة الأموية فإن نصر بن سيار يعتبر خير مثال لإخلاص عمال بنى أمية ساعة الحنة والخطوب . وكان نصر بن سيار عاملاً على خراسان التي بدأت منها الشرارة التي أطاحت بالدولة الأموية . وظل يرقب بعين ساهرة تطور الموقف في خراسان ويبلغ الخليفة مروان الثاني بانتظام أنباء الثوار وحركاتهم . وعندما اضطر أن يغادر مروان حاضرة خراسان أمام ضغط وهجمات أبو مسلم الخراساني بعث نداءً مؤثراً إلى الخليفة ، ظلت أصداؤه تدوى على مر العصور^(١) . وكان باستطاعة نصر بن سيار أن ينضم إلى أنصار الدعوة الجديدة والتي بدا أن نصرها مؤكداً ، ولكنه ظل على ولائه يؤدي واجبه مهما كانت النتائج والعواقب .

وهكذا كانت الأسس والنماذج التي وضعها خلفاء بنى أمية وعمالهم قوية راسخة الأوتاد ، هيأت لدولة الإسلام مكاناً عالياً في عالم العصور الوسطى ، وكفلت لها إسمًا خالداً لا يفنى . إذ اقترن تاريخ المسلمين بالبحر الأبيض المتوسط مهد الحضارات القديمة وعصب الحياة في العالم القديم . فأصبحت شواطئه تذخر بالشعوب الإسلامية ومظاهر حضارتها ، ومياهه تغص بالسفن الإسلامية ونشاطها . وقد آذن هذا المظهر الجديد بعهد حرى أن يذكره المسلمون بأن البحر الأبيض المتوسط غداً فيه بحيرة إسلامية .

(١) ظلت أبيات الشعر التي بعث بها نصر بن سيار إلى مروان الثاني نموذجاً تردده الألسن كلما واجهت الدول فتناً أو مشاكل . ومن هذه الأبيات قوله :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وأن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام

المراجع

- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ (بولاق)
البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (باريس ١٩١٢)
٤ البلاذري ، فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١ م)
أبو الحسن ، النجوم الزاهرة (ليدن ١٨٥١ م)
جرير ، ديوان جرير (مصر ١٣١٣ هـ)
حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب (١٩٤٧ م)
ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة)
ابن رسته ، كتاب الأعلام النفيسة (ليدن ١٨٩١)
السلوى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى
٥ ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانية (مصر ١٣١٧ هـ)
٦ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٣٢٦ هـ)
ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (ليدن ١٩٢٠)
ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة)
٣ عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (١٩٤٠)
العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (١٩٥١)
ابن غداري ، البيان المغرب في أخبار المغرب (ليدن ١٨٤٨)
ابن العربي ، تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٨٩٠)
٧ ابن عساكر ، التاريخ الكبير (١٩٢٩)
٨ ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك (القاهرة ١٩٤٧ م)
مفردريك بيك ، تاريخ شرق الأردن وقبائلها (تعريب بهاء الدين
طوقان ١٩٣٤)

- فيليب حتى ، تاريخ العرب (ترجمة محمد مبروك نافع)
قدامة بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج (ليدن)
القلقشندي ، صبح الأعشا في صناعة الإنشا (القاهرة ١٩٢٢ م)
كارل بروكمان ، تاريخ الشعوب العربية (نقلة إلى العربية نبيه فارس ومنير
البعليكي — بيروت ١٩٤٨)
كردعلى ، خطط الشام (دمشق ١٩٢٥)
المالكي ، رياض النفوس (نشر الدكتور حسين مؤنس)
محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام (١٩٤٨)
المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ١٢٨٣ هـ)
التنبيه والاشراف (مصر ١٩٣٨)
X المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن)
X المقرئزي ، كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم
(ليدن ١٨٨٨)
نلدكة ، أمراء غسان (ترجمة بندلي جوزي ، وقسطنطين زريق —
بيروت ١٩٣٣)
الهمداني ، صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤)
ياقوت ، معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٧)

- Arculf,
The pilgrimage of Arculf in the Holly Land (Trans. by
Mac. pherson-London 1889)
- ✓ Baynes, N. H.
The Byzantine Empire « London 1925 »,
Byzantium (Ed. Byanes — 1948.)
- ✓ Bell, H.I,
The Aphrodito Papyri (Der Islam)
- / Bréhier, L,
Vie et Mort de Byzance (Paris 1949).
- Browne E. G,
A Literary History of Persia (London 1920).
- ✓ Bury, J. B.,
A Histry of the later Roman Empire (London. 1889,1931)
- Charlesworth, M. P.,
Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1926)
- Cheira, M. A,
La Lutte entre Arabes et Byzantins (1947)
- Daussaud, R,
Les Arabes en Syrie avant L'Islam (1907)
- De Lacy O'Leary,
Arabia before Muhammed (1927)
- Diehl, ch.,
L' Afrique Byzantine (1896)
- Encyc. of Islam.
- Feddan R., Syria (1947)
- Finlay , History of Greece (1877)
- Fournel, H., Etude sur la Conquête de L'Afrique Par Les Arabes.
- Grant, C.P.,
The Syrian desert (1938)
- ✓ Hamidullah, M,
Muslim Conduct of State (1945)
- Hill. J.,
Die Kultur der Araber (Leipzig 1919)
- ✓ Hell. G.,
A History of Cyprus (1940)
- ✓ Hitti, P. K.,
History of Syria (1951)

- Kammerer, A.,
Petar et la Nabatine (Paris 1929)
- ✓Khuda-Bukhsh,
Islamic Civilisation (1930)
- Kremer
Orient under the Caliphs (Trans-by Khuda-Bukhsh-1920)
- ✓Lammens.P.H,
L'Arabie Occidentale avant L'Hegire (1928)
Etudes sur le régime du Calife Mo'awia I^{er} (1908)
La Syrie (1921)
- Laurent, J.,
L'Armenie Entre Byzance et L' Islam (1919)
- Le Styange, G.,
Palestine under the Moslems (1890)
The Lands of the Eastern Calphate (1930)
- Mercier, F.
Histoire de L'Afrique Septerionale (1888)
- Mommsen, T.,
The Provinces of the Raman Empire (1909)
- Muir , W.,
The Caliphate (1951)
The Life of Mohamad (1912)
- Nabia Abbot,
The Kurrah Papyri
- Oman, ch.,
A History of the War in the Middle Ages (1924)
- ✓Runciman, S.,
Byzantine Civilisation (1933)
- (Semple, E.C.,
The Geography of the Mediterranean Region (1932)
- ✓Vasiliev,
Histoire de L'Empire Byzantin
Byzance et Les Arabes (1935)
- Wellhausen, J.,
The Arab Kingdom and its Fall (1927)

الفهرس

صفحة	مقدمة الكتاب
ج	الفصل الأول
٤٥ - ١	مهد الخلافة الأموية ورحلة الصيف
١٦ - ١	عرب الشام قبل الإسلام
١	الشام على عهد البيزنطيين
٨	القبائل العربية في الشام البيزنطي
٣٢ - ١٧	بنو أمية ورحلة الصيف
٤٥ - ٣٣	قيام البيت الأموي في الشام
١١٩ - ٤٦	الفصل الثاني
	معاوية قاهر البيزنطيين
٧٢ - ٤٦	المرحلة الأولى في الجهاد الأموي ضد البيزنطيين
٤٦	استيلاء معاوية على منطقة الشام الساحلية
٥٤	أداة الجهاد ضد البيزنطيين
٦٥	الصحوة البيزنطية على عهد قنسطانز الثاني
١١٩ - ٧٣	معاوية والبيزنطيون في شرق البحر الأبيض المتوسط
٧٣	سياسة معاوية البحرية
٨٠	فتح قبرص
٨٦	الإغارات الإسلامية على الجزر البيزنطية
٩٢	ذات الصواري
١٠٠	مناطق التخوم

صفحة	
١٠٨	المردة أو الجراجمة =
١١٢	الاستيلاء على أرمينيا =
١٢٠ — ١٩٢	الفصل الثالث
	دمشق والقسطنطينية
١٢٠ — ١٥٣	أسس نمو المدن وازدهارها
١٢٠	أوضاع المدن
١٢٣	دمشق — قبلة سفن الصحراء
١٣٠	دمشق الأموية
١٣٩	نشأة القسطنطينية
١٤٥	القسطنطينية البيزنطية
١٥٤ — ١٧٠	معاوية والقسطنطينية
١٥٤	فتى العرب وحصار القسطنطينية
١٥٨	خط الدفاع البيزنطى عن القسطنطينية
١٦٤	حرب السنوات السبع
١٦٧	الغار البحرية
١٧١ — ١٨٠	بنو مروان والقسطنطينية
١٧١	تدعيم البيت الأموى
١٧٤	عبد الملك بن مروان وجستينيان الثانى =
١٧٧	استئناف الجهاد ضد البيزنطيين
١٨١ — ١٩٢	الحصار الثالث للقسطنطينية =
١٨١	الاستعدادات الإسلامية والبيزنطية
١٨٥	سير الحملة الإسلامية

صفحة	
١٨٨	الحصار الإسلامي
١٩٣ — ٢٣٣	الفصل الرابع
	استيلاء الأمويين على شمال إفريقيا
	وإقصاء البيزنطيين
١٩٣ — ٢٠٠	المغرب قبل العصر الأموي
١٩٣	إفريقية البيزنطية
١٩٦	طلائع الفتح الإسلامي
٢٠١ — ٢٠٧	معاوية بن أبي سفيان والمغرب
٢٠١	حملة معاوية بن حديج
٢٠٤	حملة عقبة بن نافع الأولى
٢٠٨ — ٢١٨	التحالف البيزنطي البربري
٢٠٨	حملة دينار أبو المهاجر
٢١١	حملة عقبة بن نافع الثانية
٢١٣	حملة زهير بن قيس البلوي
٢١٩ — ٢٣٣	زوال النفوذ البيزنطي وتمام الفتح الإسلامي
٢١٩	حملة حسان بن النعمان
٢٢٢	ثورة الكاهنة
٢٢٦	نهاية البيزنطيين
٢٣٠	الجناح الأيسر لدولة الإسلام
٢٣٤ — ٢٧٦	الفصل الخامس
	التجاوب الحضاري بين الدولتين الأموية والبيزنطية
٢٣٤ — ٢٤٢	التراث الأموي في نظم الأمويين الإدارية

صفحة	
٢٣٤	إدارة الأقاليم ✓
٢٣٩	العائر والفنون ✓
٢٤٣ — ٢٤٨	الاتصال الثقافي ✓
٢٤٩ — ٢٥٧	الاتصالات الدبلوماسية ✓
٢٥٨ — ٢٦٤	السياسة الدينية ✓
٢٦٥ — ٢٧٦	التراث الأموي في الحضارة الإسلامية ✓
٢٦٥	سقوط الدولة الأموية ✓
٢٧٢	التراث الأموي ✓
٢٧٧ — ٢٨٠	المراجع
٢٨١ — ٢٨٣	الفهرس
	الخرائط والجداول
١٣١	١ — خريطة الدولة الأموية وشرق البحر الأبيض المتوسط
١٤١	٢ — خريطة للقسطنطينية
٢٦٧	٣ — جدول يمثل أبناء البيت الأموي تعريف عن الكتاب بالإنجليزية

[تم طبع كتاب « الأمويون والبيزنطيون » في مطبعة
لجنة البيان العربي بالقاهرة في يوم الاثنين ٦ من شعبان سنة
١٣٧٢ هـ (الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٥٣ م) . والحمد لله
أولاً وآخراً] .

رئيس محفوظ كمال
المدير الفني للمطبعة

However in spite of the war between the Omayyads and Byzantines they exchanged diplomtic missions, and the Omayyads, especially, did not hesitate to make use of the Byzantine artists and their methods of work. Therefore the Omayyads were able to lay the solid foundation of the Islamic Empire and its civilisation. They acheived their role with Success because they had officials of Mediterranean mentality. They were like the consuls and prefects of the Roman and Byzantine Empires, and showed no interest in self-government during the decline of the Omayyad dynasty.

The Omayyad dynasty was thus able to leave a heritage, which gave the Muslims cultural unity, and also examples of political unity. These models are of great value to Modern Muslim States nowadays, and may help them to take part in the contribution to the world affairs to-day.

I. A. El-Adawi

THE OMAYYADS
&
BYZANTINES
The Mediterranean an Islamic Lake

By

Dr. Ibrahim Ahmed EL-Adawi

B. A. Hon. (Cairo)

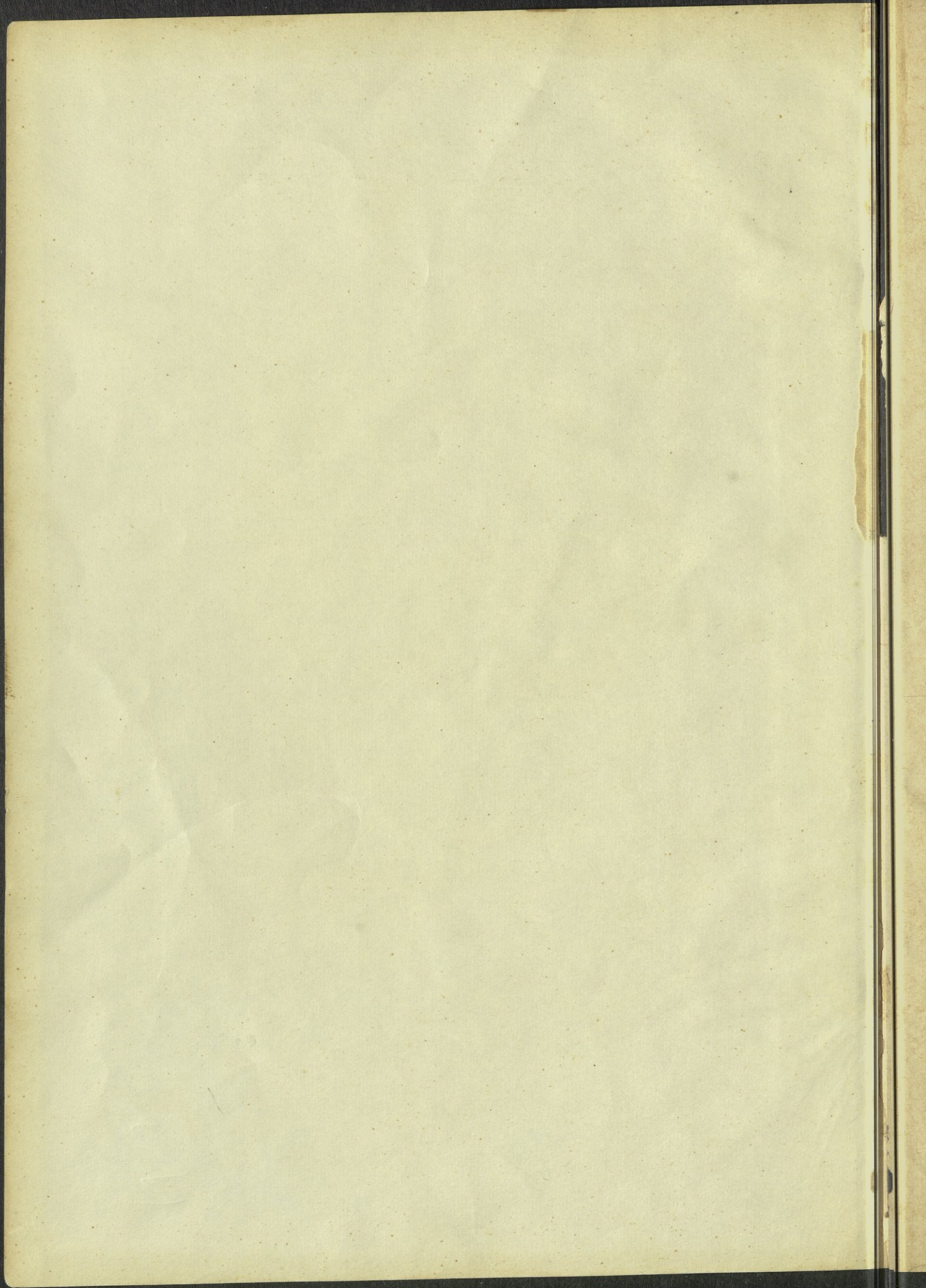
Ph. D. (Liverpool)

Lecturer in Mediaeval History

University of Cairo

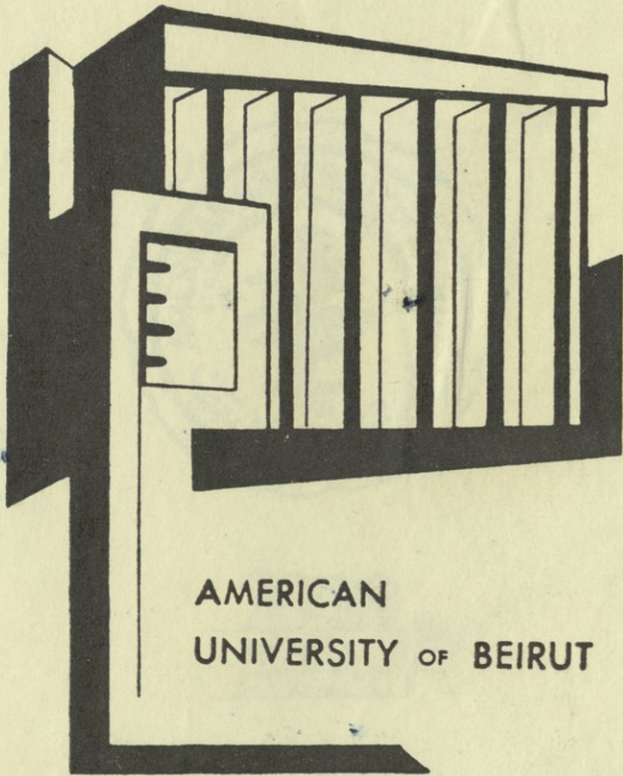
Published by
The Anglo-Egyptian Bookshop

El-Bayan El-Arabi Press



2

297.09:A22uA:c.1
العدوى، ابراهيم احمد
الامويون والبيزنطيون، البحر الابيض
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

